

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

صاعد البغدادي

حياته وآثاره

دراسة

الدكتور عبد الوهاب التازي سعود

1413هـ / 1993م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

I

يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم في الصفحات التالية دراسة عن أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي اللغوي وكتابه الذي اشتهر به بين الناس، أعني «الفصوص».

وسيلاحظ القارئ أن هناك تلازما في هذه الفصول الدراسية بين الرجل وكتابه، ولا غرو فإن الرجل لم يشتهر بغير الفصوص، ولذلك كان نظري فيما اعتبرته مداخل دراسية ينصب على المصادر التي تحدثت عن الرجل وكتابه، وعلى محاولة تجلية صورة واضحة للرجل في مختلف مناحي شخصيته الغنية، وعلى كتابه: «الفصوص».

وسيتضح مما سيأتي في فصول الدراسة أن شخصية صاعد البغدادي الغنية والمتنوعة كما تظهر من خلال «الفصوص»، تؤكد الفكرة المتداولة عند مؤرخي الفكر والحضارة وهي أن القرن الرابع الهجري كان بغير منازع قرن ازدهار هذا الفكر في أجلى مظاهره.

وحَسْبُ الفصوص وصاحبه انتسابهما للفكر العَربي في قمة ازدهاره وعطائه.



ـ II ـ

لاشك في أن الإقدام على أثر متميز كالفصوص، من أجل نفض غبار القرون عنه، وتقديمه في الصورة التي يستحق أن يقدم عليها إلى القراء، عمل طموح، ومحفوف بالمصاعب العلمية المختلفة؛ ولا يدفع إلى الاستسلام لهذا الطموح، أمام ما يقف في وجهه من مصاعب، إلا سبب يستحق هذه المواجهة. والسبب في رأيي أهمية هذا الأثر العلمي من جانب، وظلم القدماء لصاحبه، ثم له من جانب آخر. وعلى الرغم من أن هناك من رأى أن هذا الكتاب، لقيمته العلمية البالغة، يجب أن تتضافر الجهود على نشره(1)، توكلت على الله، واعتبرت أن ما سأبذله من جهد صادق في تحقيقه ودرسه، معتمدا في ذلك على جهود من سبقني وأعانني على عملي كيفما كان نوع إعانته، يمكن أن يستجيب للرغبة الدفينة التي حركها في علم صاعد في فصوصه، ثم ظلم المؤرخين له. وإن إخراج آثار أجدادنا العلماء إلى نور الحياة من جديد، كفيل بأن يحفز الهمم، ويخفف من العراقيل التي تصاحب مثل هذا العمل.

على أنني ـ على ما بذلت في تحقيق الفصوص من جهود ـ لم أشأ أن أستبد بالقول في دراسته، فاعتبرت ما قمت به في هذا الباب مجرد مداخل دراسية للرجل وأثره العلمي، منتظرا ما يأتي من الأيام لأعود إلى الفصوص كاشفا، ومحللا، ومقارنا. وهكذا قسمت هذه المداخل الدراسية إلى ثلاثة: سميت أولها قراءة في المصادر، وجعلت الثاني مشروع سيرة، وخصصت ثالثها للفصوص. وقسمت المدخل الأول قسمين: عرضت في أولهما للمصادر عرضا تاريخيا، وصنفت في ثانيهما معلومات هذه المصادر تصنيفا نقديا، باعتبار أن منها ما يؤرخ لحياة صاعد،

1) محمود علي مكي، في مقدمة تحقيقه للمقتبس ص: 52، الهامش 2.



ومنها ما تنـوعت معلوماته، أو تحـدث عن غير الفصوص، أو أرخ لها.

وعرضت في مشروع السيرة الذي جعلته المدخل الثاني لرحلة حياة صاعد، من الهوية والجذور إلى المولد والنشأة، ثم إلى حياته في بغـداد، ثم خروجـه من بغداد، ومـرحلة رحلته التـي وسمتها بـالمصريـة، إلى وصـولـه إلى الأنـدلس، ثم خروجـه إلى دانيـة فسرقسطة فصقلية. ونظرت بعـد ذلك في الرجل إلى تلمذته لعدد من الشيـوخ في مختلف المنـاطـق التي حل بهـا، وإلـى تميـزه بتحصيل عـدد من كنـوز التـراث العربي فيمـا نقلـه من خطـوط العلماء. وألقيـت نظرة على شـاعرية صـاعد في كل مـن المشرق والأندلس. وخصصت بعد ذلك لكتابته حديثا مقتضبا. ووقفت عند جانب بـارز من شخصيته هو جـانب النديم، فقسمتـه إلى النديم العالم، والمسامر، والمغني، والماجن. ثم تحدثت عنه باعتباره عالما مصنفـا. وخصصت بعـد ذلك فقرة للحـديث عن صـاعـد الشيخ، فتحدثت عن تـلاميذه وما رووه عنـه. وختمت هذا المـدخل الثاني بالإشارة إلى مصنفاته، وإلى الروايات المختلفة لفصوصه.

وفي المـدخل الثـالث المخصص للفصـوص، تحـدثت عن الفصـوص بين كتب الأمـالي والمجـالس والأدب العـام، فعـرضت لطـائفة من كتب هـذا الاتجـاه العلمي العـربي المشهور، محـاولا تلمس مـوضع كتاب الفصـوص بينهـا. وعـرضت بعد ذلك لبنـاء الفصوص، ومصادرهـا، وشخصية مؤلفها من خلالهـا، وأثره هو فيها وفي غيرهـا مما أتى بعده؛ ثم ختمت هذا المدخل بـوقفة عند فصوص صاعد وأمالي القالي. وقد وقفت في بناء الفصوص على العنوان ودلالتـه وعلاقتـه ببناء الكتـاب؛ ثم انتقلت إلى مـا سميته بالبنـاء المنطقي للفصوص، فعـرضت لكونهـا مزيجـا من الأخبار والطرائف والأشعار والشروح والتفاسير، لا يخضع توزيعها لمنهج



ثابت. وانتقلت بعد ذلك إلى بناء الفص الواحد، متحدثا عن معايير تحديده، وعن أركانه التي ظهرت لي متجلية في مدخله الإسنادي، ومتنه، ثم ما يعقب ذلك من شروح. ووقفت بعد ذلك عند تفاوت الفصوص في بنائها الكمي بين الطول والقصر. وميزت في البناء العلمي لها بين فصوص الآيات، والأحاديث، والمواعظ والحكم، والأخبار، والطرائف والملح، والهزل والمجون، وأخبار الشعراء، وأخبار العلماء، وأخباره هو، وفصوص المختارات الشعرية والنثرية، ثم فصوص تفسير الأشعار، وشرح أبيات المعاني، والفصوص اللغوية، ثم فصوص العروض والقوافي، ففصوص المعارف الجاهلية. وكشفت في مصادرها عما سميته منها بالوسيطة، وهي خطوط العلماء والرواية، وما سميته منها بالأصول وهي القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمصادر الأدبية المسموعة، والمخطوطة كأشعار القبائل وغيرها، ثم الكتب المشهورة.

وحين انتقلت إلى شخصية صاعد العلمية من خلال الفصوص، كشفت فيها عن العالم المفسر، والمحدث، والشارح، وعالم الصرف والنحو، والراوية الموثق، والشاعر الناقد، والهازل الماجن، ثم العالم المتحزب. وكان لابد من تلمس أولي لأثر الفصوص فيما بعده، فتحدثت عما ظهر لي من ذلك في آثار تلاميذه وتلاميذهم. وخصصت فصوص صاعد أمام أمالي القالي بحديث منفرد، رغم أنه ينتمي إلى ما سبق أن أشرت إليه من موضع الفصوص بين كتب الأمالي والمجالس والأدب العام، فتحدثت عن صاعد أمام تلامذة القالي، وأمام مؤلفيه «البارع والأمالي».

على أن أهم ما يجب أن يشار إليه هنا، أنني استطعت أن أرفع الوهم الكبير الذي غشّى عيون جميع من نظر إلى صاعد سابقا، فاعتبره ممخرقا كذابا. والحق أن علم الرجل في الفصوص كشف



عن معدن نفيس من علوم العرب، أظهر التحقيق مصادرها المتعددة، وعلاقتها الوشيجة بمختلف معارفهم. كما كشفت الفصوص عن ذخائر من عيون تراثنا لم يسبق أن ظهرت في مؤلف آخر.

وإن ما يبرر اعتبار ما قمت به هنا مجرد مداخل دراسية، أن غنى المحتوى العلمي للفصوص يفرض دراسة شاملة لهذه المادة، ووضعها في إطارها التاريخي والمعرفي، وتلك لعمري مهام يجب أن ينهض لها دارسون متعددون، حتى يوفوا الموضوع حقوقه المختلفة.

وبعد، ففيما قدمت مقنع لقارئ الفصوص التي طال اختفاؤها والله المسؤول عن نجاح القصد، والسلام.

د. عبد الوهاب التازي سعود

أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي

وكتابه الفصوص

في الآداب والأشعار والأخبار

مداخل دراسية

- المدخل الأول -

صاعد والفصوص :
قراءة في المصادر

أولا : عرض وترتيب

ثانيا : تصنيف نقدي

تقديم :

تهدف هذه القراءة إلى تتبع جل المصادر التي أرخت لصاعد وفصوصه، أو اكتفت بالإشارة إليهما، وذلك من خلال عرضها وترتيبها ثم تصنيفها نقديا.

أولا : عرض وترتيب

I ـ مصادر القرن الرابع :

1) لعل أقدم الإشارات إلى صاعد تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وقد وردت أولاها لدى معاصره أبي حيان التوحيدي في كتابه: «الإمتاع والمؤانسة». وهي إشارة تفيد ـ إذا لم يكن المقصود صاعدا آخر ـ أن صاحب «الفصوص» كان في وقت مبكر من حياته وقبل 352هـ(2) قد أصبح من المقربين إلى الوزراء. فالتوحيدي ينقل ما يفيد أن أبا العلاء صاعدا كان واحدا من جماعة من النبهاء الذين قربهم الوزير المهلبي وقدمهم ونوه بهم ونبه على فضلهم: «سمعت ابن سورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتنم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابا والتهب في عشق الثناء التهابا، أبو محمد المهلبي، فإنه قدم قوما، ونوه بهم، ونبه على فضلهم، وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم، منهم: أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليفرني، ومنهم أبو إسحاق الصابي، وأبو الخطاب الصابي، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد...(3).

2) الإشارة الثانية تعود إلى سنة 361هـ، وقد وردت أيضا عند أبي حيان التوحيدي في كتابه: «المقابسات»، وهي إشارة تفيد أن

2) هي السنة التي توفي فيها الوزير المهلبي الذي سيشار إليه في النص اللاحق.

3) الإمتاع والمؤانسة: 2/212 ـ 213.



صاعدا كان في مرحلة من حياته يحضر دروس يحيى بن عدي الملقب بالمنطقي، تلميذ متى بن يونس والفارابي. ففي المقابسة 14، يرد قول التوحيدي: «قال يحيى بن عدي في درس البديهي عليه سنة إحدى وستين وثلاثمائة وأنا حاضر... ودخل أبو العلاء صاعد، فانقطع الكلام وفات أن يبلغ أقصى ما عنده»(4).

3) الإشارة الثالثة في كتاب إيضاح المشكل لشعر المتنبي، لمؤلفه أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمان الأصفهاني، وقد ألفه لبهاء الدولة البويهي، وتتبع فيه أخطاء ابن جني في شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي. والجديد الذي تقدمه هذه الإشارة يتجلى في كون صاعد الذي تعود حضور مجالس الوزير أبي محمد المهلبي، قد التقى في بعض هذه المجالس بالشاعر أبي الطيب المتنبي. فعن وصول أبي الطيب إلى بغداد، ووروده على الوزير المهلبي يقول أبو القاسم الأصفهاني: «فركب إلى المهلبي فأذن له، فدخل وجلس إلى جنبه، وصاعد خلفه(5)، ودونه أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، فأنشدوا هذا البيت...»(6) ويجمع بين هذه الإشارات الثلاث كلها، فضلا عن أهميتها التاريخية، قِدَمُها بالقياس إلى كل ما كتب عن صاعد في المصادر القديمة، وجِدَّتُها بالقياس إلى ما كتب عنه حديثا إذ لم يسبق ـ حسب ما اطلعتُ عليه ـ لباحث أن وقف عند هذه الإشارات.

---

4) المقابسات: ص: 156 ـ 157.

5) ورد في طبعة بولاق وطبعة هارون: وصاعد خليفته دونه وأبو الفرج. والراجح ما أثبت. ويحتمل أيضا وصاعد خلفه دونه وأبو الفرج. وما رجحناه يعود إلى كون الحديث عن الطريقة التي جلس بها باقي الحاضرين كل حسب مقداره. وانفرد أبو الطيب دون غيره بالجلوس إلى جنب الوزير.

6) نقلا عن خزانة الأدب للبغدادي 1/ 385 (بولاق).

II

وفي القرن الخامس الهجري نجد الإشارة إلى صاعد ترد بصيغ مختلفة في سبعة مصادر أندلسية، عاصر أصحابها صاعدا، أو أدركوا من عاصره. هذه المصادر هي: التشبيهات لابن الكتاني المتوفى سنة 420هـ، والمقتبس لابن حيان المتوفى سنة 469هـ، وأرجوزة ابن سيده المتوفى سنة 458هـ، ومعجم ما استعجم ثم التنبيه فاللآلي لأبي عبيد البكري المتوفى سنة 487هـ، وجذوة المقتبس للحميدي المتوفى سنة 488هـ.

1) يكتفي ابن الكتاني صديق صاعد في تشبيهاته بإيراد نماذج متنوعة من أشعار صاعد، في عدة مواضع من كتابه(7) ولعله سمع ما اختاره من هذه الأشعار من الشاعر نفسه، ففي منزل ابن الكتاني كان صاعد ينزل عند حلوله بسرقسطة ولا يضم هذا الكتاب أي خبر يتعلق بصاعد أو بكتابه الفصوص. ويكتفي المؤلف عند ذكر صاعد بأن يسميه صاعد بن الحسن أو صاعد بن الحسن اللغوي أو صاعدا البغدادي.

2) ويقدم لنا أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، تلميذ صاعد، صورة مفصلة عن طبيعة المصنفات التي كان التلاميذ في الأندلس يقرؤونها على شيخهم المشرقي صاعد البغدادي، وذلك من خلال تعداده في أرجوزته أسماء شيوخه وما رواه عنهم من مصنفات.

وفي ذكر للكتب التي رواها عن شيخه المشرقي، يبدو ابن سيده معترفا بفضل هذا الشيخ عليه (رجز):

1 ــ ثُمَّ قَرَأتُ عِلْمَ سيبويه
لُبَّ الفُؤاد فهما عَلَيْهِ

7) انظر الصفحات 100، 135، 146، 173، 195، 218، 289.



2 ـ على أبـــي عثمـــانَ شيـخـي نـــافـعِ
وكـــان فيـــه جـــد حبـــر بـــارع
3 ـ ثُــمّـــتَ فَـاوَهْـــتُ أبَــا العَـــلاَء
فـي كتـب الصفـــــات والأسمــــــاء
4 ـ روّانـي الغـــريـــبَ والإصـــلاحـــا
حتـى أنــــار فجــــرهـــا ولاحـــا
5 ـ ثــمـَّـتَ رقـتــانـــي إلى الألـفـــاظ
راويـــــةً فعـــــدتُ فـي الحفّـــاظ
6 ـ وقـــد قـــرأت كـــتـــبَ الـمـجـــاز
عليـــه من قـــرمـــوطـــة الشيـــرازي[8]

3) ويـورد ابن حيان في مقتبسـه مـا يفيد تلمـذتـه المباشـرة لصاعد وسمـاعه منـه كتاب الفصـوص. ففي سيـاق حديثـه عن الأعرابي العذري يقول: «قال حيان: أقول أنشدنا أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي في كتابه المعـروف بالفصوص في معنى قول هذا الأعرابي...»[9] وينقل وهو يتحـدث عن مفاضلـة الأعرابي بين التمر والبلـوط بيتين من كتاب الفصـوص: «لأعـرابية بدويـة نقلها زوجها من البـادية إلى قرى النخـل كارهـةً فأحمدت النجعـة لما طعمت التمـر ثم حنت إلى وطنهـا، فلمـا عـاودته أعـوزهـا التمـر فتشـهَّـتْـه وقالت (طويل):

1 ـ ألاَ مَـنْ لِـقَـلْــبٍ لا يـــزال مـكـلـفــا
تـــزايلَ مـــا بين القــــريبـــة والفحل
2 ـ يَحِـــنُّ إلــى الأرْطَـــاةِ حـــتـــى إذا أتـــى
بـــلادا بهـــا الأرطـــاة حنّ إلـى النخلِ[10]

والقصة واردة في النسخة التي أخرجناها من الفصوص.

8) ابن سيده المرسي، لداريو كابانيلاس رودريجيث، ترجمة حسن الوراكلي، ص: 51.
9) المقتبس 3/ 14.
10) المقتبس 3/14، وانظر الفصوص ص: 109 ب. (اعتمدت في الإشـارة إلى كتاب الفصوص على أرقام صفحات مخطوطة القرويين).



4) ويستفيد البكري تلميذُ ابن حيان تلميذ صاعد من كتاب الفصوص استفادة واضحة في إغناء المادة العلمية لكتابه: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» وينقل عنه في عدة مواضع، ففي ذكره لبُبُرْقة حاج يقول البكري: «هكذا ذكرها صاعد بن الحسن بالحاء والجيم، وهكذا رويناه منه وإنما هو خاخ بخاءين معجمتين على ما يأتي في حرف الخاء»(11) وتتكرر الاستفادة عند الحديث عن دارات العرب(12). ولا يعتبر البكري مخالفته لما رواه صاعد مبررا لإسقاط رواية شيخه: «وقد تقدم في ذكر البُرَقِ برقة الصَّفَّاح بفتح الصاد وتشديد الفاء، هكذا ذكره صاعد وحدثنا به عنه، وأنا أراه برقة الصِّفَاح»(13).

ويعتمد البكري في كتابه اللآلي على رواية صاعد في إظهار وهم القالي في بعض ما رواه، «... وأخبرني من أثق به أن صاعد بن الحسن كان يرد هذه الرواية في البيت ويقول إن الصحيح (طويل):

تجلَّلْتَ عارًا لا يزال يَسُبُّه
سِبَاب الرِّجال نَثْرُه والقصائدُ(14)

ويرد نفس الكلام في كتابه التنبيه(15).

والملاحظ أن كتب البكري الثلاثة التي تدل على اهتمامه بمرويات صاعد، لا تقف عند الأخبار الخاصة بحياة صاعد لانصراف التأليف فيها إلى مباحث لغوية لا علاقة لها بالأخبار.

5) ويظهر مع جذوة المقتبس لأبي عبد الله محمد بن فتوح الحميدي، نفس جديد في الحديث عن صاعد والتعريف به.

11) معجم ما استعجم ـ ص: 242.
12) نفسه ص: 535، 537، 538.
13) معجم ما استعجم ص: 835.
14) سمط اللآلي 1/429.
15) التنبيه على أوهام القالي في أماليه: ص: 56.



فالحميدي يخصص في جذوته ترجمة مطولة لصاعد يمكن تصنيف معلوماتها إلى معلومات تتعلق بحياة صاعد في الأندلس ومعلومات تتعلق بمؤلفاته، وأخرى تتعلق بما حكي عنه من نوادر للتفكه، ومعلومات تتعلق بعلمه ومعارفه.

فعن حياة صاعد في الأندلس، يشير الحميدي إلى تاريخ قدومه من المشرق إلى الأندلس ووفوده على المنصور بن أبي عامر، مرجحا عن طريق الظن أن أصله من الموصل، وأنه انتقل إلى بغداد قبل مجيئه إلى الأندلس: «صاعد بن الحسن الربعي اللغوي أبو العلاء ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر في حدود الثمانين وثلاثمائة وأظن أصله من ديار الموصل ودخل بغداد»(16). ويشير الحميدي إلى انقطاع صاعد بعد موت المنصور عن حضور مجالس الأنس التي كان يحضرها(17).

وينهي الترجمة بذكر خبر خروجه إلى صقلية منبها إلى أنه مات بها عن سن عالية قريبا من سنة 410(18).

أما المعلومات المتعلقة بمؤلفات صاعد فتشير إلى أنه ألف للمنصور بن أبي عامر كتاب الفصوص وكتابين آخرين كان المنصور مشغوفا بثانيهما: «ومما ألّف له: كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي وكتابا آخر... سماه كتاب الهجفجف بن غدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف، وكتابا آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء. قال لي أبو محمد علي بن أحمد: وهو كتاب مليح

---

16) الجذوة ص: 223.

17) نفسه ص: 224.

18) جذوة المقتبس ص: 620.



جدا، وكان المنصور أبو عـامر كثير الشغف بكتاب الجواس، حتى رتَّب له من ُيخرجه أمامه في كل ليلة» (19).

ومن أشعـار صاعـد يورد الحميـدي الأبيات التي أرسلهـا إلى المنصور مع الأيل الذي أهداه إليـه، والأبيات المادحة التي أرسلها إلى المظفر معتذرا بمرضه عن حضور مجالسه (20).

ويذكر الحميدي حكايتين عن تسـرع صاعد في الإجابة عن كل ما كان يسأل عنه، وهما الحكـايتان اللتان ستتكرران في المصادر اللاحقـة: «وكان أبـو العلاء كثيرا مـا تستغرب لـه الألفاظ ويُسأل عنها فيجيب فيهـا بأسرع جواب... ومما يُحكى عنـه أنه دخل على المنصور أبي عامـر وبيده كتاب ورد عليه من عـامل له في بعض البلاد اسمه مبرمان بن يزيد يـذكر فيه القلب والتزبيل... فقال له: أبا العلاء. قال: لبيك يامـولانا. قال: هل رأيت فيما وقع إليك كتاب القوالب والزوالب لمبرمان بن يزيـد؟ فقال: إي والله يامولانا، رأيته ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل... فقال له: أما تستحيي أبـا العلاء من هذا الكذب، هـذا كتاب عاملنا ببلـد كذا وكذا... وإنما صنعت هذا تجربة لك. فجعل يحلف أنه ما كذب وأنه أَمْـرٌ وَافَـقَ. وقال له المنصور مرة أخرى وقد قُـدِّم طبق فيه تمر: مـا التَّـمَـرْ كُـلُ في كلام العـرب؟ فقـال: يقـال تَمَرْكَلَ الـرجل يَـتَـمَـرْكَـلُ تمـرْكُـلاً: إذا التف في كسـائه. وله من هـذا كثير» (21). ويذكر قصة الأيل الذي أهـداه صاعد إلى ابن أبي عامر وهي القصـة التي ستتكـرر الإشارة إليهـا في المصـادر اللاحقـة بـاعتبـارهـا إحـدى المستغـربـات. وينقل الحميـدي مسنـدا إلى العاصمي النحوي خبرا سيصبح نواة لـلأخبار المضطربة المتعلقة

19) جذوة المقتبس ص: 223.

20) انظر الجذوة ص: 226/224.

21) الجذوة ص: 224/225.



بمعارف صاعد وعلومه. وهو خبر يرتبط بالمرحلة التي وصل فيها صاعد إلى بلاط المنصورِ ليجد نفسه أمام تلامذة القالي الذين كانوا قد أصبحوا علماء مجالس المنصور: «حدثني أبو محمد علي بن أحمد قال: حدثني الوزير أبو عبدة... عن العاصمي النحوي قال: لما قدم صاعد بن الحسن اللغوي على المنصور... جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقَصر فيها... قال: ثم سألنا صاعدٌ فقال ما معنى قول امرئ القيس... فقلنا هذا واضح... فقال صاعد: سبحان الله أنسيتم قوله قبل هذا في وصفه... قال: فبُهِتْنَا والله وكأننا لم نقرأ هذا البيت قط، واضْطرَّنا إلى سؤاله عنه...»(22).

وينقل الحميدي أيضا خبرا آخر يؤكد أن صاعدا كان متفوقا على معاصريه من الأندلسيين في فهم الشعر وتذوقه(23)، وهو الخبر الذي سأل فيه صاعدٌ علماءَ المنصور عن معنى الحمامة في بيت للشماخ. وقد أورد صاعد نفسه هذا الخبر في كتابه الفصوص، عند حديثه عما فات القالي من أحرف في كتابه البارع.

ومما يجدر التنبيه إليه في هذا العرض الخاص بترجمة صاعد في الجذوة، أن الحميدي يروي جل ما نقله سماعا عن شيخه ابن حزم، الذي صادف وروده على المظفر العامري لأول مرة إنشاد صاعد لبائيته أمام الحاجب، وهي البائية التي كتبها صاعد لتلميذه ابن حزم هذا بخطه(24).

ويبدو أن الحميدي لم يكن يثق بالحكايات المجرحة التي حكيت للقدح في علم صاعد، ويتضح ذلك في قوله بعد إشارته إلى تسرعه في الجواب: «ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح لما حُمل

---

22) الجذوة ص: 225.

23) نفسه ص: 225/226.

24) نفسه ص: 224.



إلا على التصديق، وقد ظهر صدقه في بعض ما قال»(25)، وقوله بعد ذكر خبر القوالب والزوالب، وخبر التمركل: «وله من هذا كثير، ولكنه كان عالما»(26).

وفي الترجمة 979 يشير الحميدي إلى الزبيري الشاعر صاحب أبي العلاء صاعد، ويورد له بيتين قالهما متندرا بابن شهيد وصاعد، عندما عجزا عن وصف نرجسة رُكِّبت في وردة(27). كما يذكر خبره مع بشار الأعمى في معنى الجرنفل. وفي حديثه عن وفود ابن دراج على المنصور يشير إلى قصيدة له عارض بها صاعداً البغدادي(28).

III

وفي القرن السادس الهجري يرد ذكر صاعد في عدة مصادر أندلسية مغربية مع تفاوت في مقدار المعلومات التي تتضمنها هذه المصادر.

1) ففي فهرس ابن عطية ترد الإشارة إلى كتاب الفصوص وإلى إجازة ابن حيان لأبي محمد بن عبد الرحمان بن عتاب فيه(29).

2) وفي الفصل الذي خصصه ابن بسام لذكر الأديب اللغوي صاعد بن الحسن البغدادي وإثبات جملة من نظمه ونثره، يمد المؤلف الباحث بأطول ترجمة(30) قديمة لصاعد، فللتعريف بشاعريته يورد ابن بسام أبياتا كثيرة مختلفة موضوعاتها

---

25) نفسه ص: 224.

26) الجذوة ص: 225.

27) نفسه ص: 384.

28) نفسه ص: 103/104.

29) فهرس ابن عطية ص: 81.

30) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/18، 57.



ومناسباتها، اقتطعت من منظومات متعددة نظمها صاعد بالأندلس. ويذكر قصة ابن العريف والمكيدة التي كادها متهما صاعدا بسرقة بيتين نظمهما في وصف وردة لم تتفتح، وما تلا ذلك من امتحان المنصور لصاعد أمام الحاضرين، وتفوق صاعد في وصف المشهد الذي أعده المنصور لاختبار شاعريته(31). ويشير ابن بسام إلى تحرج صاعد من معارضة قصيدة أبي نواس الرائية في الخصيب، عندما أمره المنصور بمعارضتها، ويمدح فيه هذا الاعتراف بالعجز عن مجاراة أبي نواس(32). ولم يفت ابن بسام أن يقف عندما اعتبر سرقة في شعر صاعد، كما لم يفته ـ وكتابه قد ألف لإبراز محاسن أهل الجزيرة ـ أن يقارن بين بديهة صاعد وبديهة الشاعر الأندلسي أبي مروان الجزيري ليبرز فضل الأندلسي على الوافد المشرقي(33).

أما ترسله ونثره فقد رسم لنا ابن بسام صورة له من خلال نقله لفصول اقتطعها من عدة رسائل كتبها صاعد إلى بعض أصدقائه من الحكام(34).

ومن أخبار صاعد في الأندلس يكرر ابن بسام الإشارة إلى وفوده من المشرق إلى الأندلس، ويضيف إلى ما ذكره عن أصله قوله «الطبري أصلا»(35) دون أن يذكر الموصل. ويعيد نقل بعض ما جرى له مع المنصور، وقصة الأيل، ثم يضيف أخبارا جديدة تتعلق باتصاله بالوزير ابن مسلمة، ومراسلته لمجاهد العامري والقائد ابن وداعة، والخليفة الأموي هشام المؤيد، ويذكر سوء

31) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/17، 19.
32) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/22، 23.
33) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/35، 36.
34) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/10، 11، 53.
35) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/33.



أحواله في أيام الفتنة، ويعيد ذكر ما حكي عن كذبه فينقل حكايتي القوالب والزوالب، والتمركل الواردتين في الجذوة، ثم يضيف إليهما حكاية(36) الخنبشار، وحكاية(37) الكاغد الأبيض الذي سفر ووضع له عنوان لاختبار كذبه.

ولا يذكر ابن بسام من كتب صاعد إلا كتاب الفصوص، ضمن خبر يفيد أنه ألفه للمنصور، على غرار نوادر أبي علي القالي، وأنه أملاه بجامع مدينة الزاهرة، وأن الكتاب غرق في النهر بأمر من المنصور بعد أن جعله أدباء الوقت يشك في صحة ما يأتي به صاعد ويجيب به: «... فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعرا شاهدا، أو أتى بحكاية تجانسها، فازداد المنصور عجبا. ثم أراه كتاب النوادر لأبي علي، فقال: إذا أراد المنصور أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته كتابا أرفع منه قدرا، وأجل خطرا لا أدخل فيه خبرا مما أدخله أبو علي، فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بالفصوص. فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت، لم تمر فيه كلمة زعموا صحتها عندهم، ولا خبر ثبت لديهم. فقالوا للمنصور: رجل مقتدر على تأليف الكذب... حتى إنهم كلفوا المنصور أن يأمر بتسفير كاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم، ففعل وترجم على ظهر ذلك السفر بكتاب: «النكت»، تأليف أبي الغوث الصنعاني. فترامى إليه صاعد حين رآه، وجعل يقلبه(38)، وقال: إني والله قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان، وهذا خطه. فأخذه المنصور من يده خوفا أن يفتحه، وقال له: إن كنت رأيته كما تزعم فعلام يحتوي؟ قال:

---

36) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/ 33.

37) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/ 15.

38) لعل الصواب يقبله.



ورأسك لقد بعد عهدي به ولا أنـص منه شيئا، ولكنه يحتوي على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبـر. فقال له المنصور: أبعد الله مثلك فمـا رأيت الذي هـو أكذب منك. وأمـر بإخراجـه، وأن يقذف بكتاب الفصـوص في النهر، وفي ذلك يقول بعض شعـراء العصر (سريع):

قد غاص في البحر كتـاب الفصوصْ
وهـكـــذا كـــل ثـقـيـــل يـغــــوصْ

فجاوبه صاعد بقوله (سريع):

عــــاد إلى مــعـــدنـــه إنــــمـــا
توجـد في قعـر البحـــار الفصـوص(39)

أما الشخصيـة العلمية لصاعد، فتبـدو من خلال الذخيـرة غير واضحة، ويعود ذلك إلى أن رأي ابن بســام في صاحب الفصوص كان خـاضعا لتأثير الأخبـار التي تحدثت عن تقصيـره في النحو والصـرف أمام العـاصمي والزبيـدي، أو عن كذبـه وتسرعـه إلى الإجابـة عن كل مـا يسأل عنه تظـاهرا بالعلـم والمعرفة، ولتـأثير الأحكام التي اعترفت له بأنه كـان راسخا في العلم رسوخا تشـهد به مصنفـاته: «وكـان طلع على آفاق الجـزيرة في أيـام المنصور محمد بن أبي عـامر، نجما من المشـرق غرب، ولسانـا عن العرب أعرب، أبده من رأى وسمع، وأذكى من طار ووقع، فأراد المنصور أن يعفي به أثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية قبله، وهزه لذلك فألفى سيفـه كهاما، وسحـابه جهـاما، من رجل يتكلم بملء فيه، ولا يـوثق على ما يـذره وما يأتيـه... وقد أتيت أنـا بلمع من أعاجيبـه، وأوردت غرائب من أكاذيبه وتخللت أثنـاء ذلك جملة من نظمه ونثره، ممـا يشـهد على ثبوت قدمه وشـهـرة تقدمه»(40). لكن

---

39) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/15، 16.

40) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/8، 9.



ابن بسام يصـــرح ـ رغم ما نقله عنــه من أخبار ـ بما يــوحي أنه كان في قرارة نفسه مطمئنــا إلى علمه وإلى ما ورد في الفصوص اطمئنــان من قــرأ ووعى: «قال ابــن بسام: ومــا أحسب أن أحــدا يجتــرئ على إخراج تصنيف وإبــداء تأليف، يضيق عنه التعــديل، ويدفع في صدره النقد والتحصيل لاسيمــا وصاعد علم أن قرطبة حسب ما ذكــرنا، ميدان جيــاد وبلد جدال وجلاد، ولكنــه اشترط غير المشـهور، فلم يظفــروا منه بكثير، وأعانهم هــو على نفسه بما كان ينفق به من تنحله وكذبه. ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير، ولا بصر(41) بــالنقد مشـهـور، وإلا فليس يخلــو كتاب الفصـــوص المذكور من غريبة مسموعة ولا من فائدة رائقة بديعة. ولكنه خبر وجدناه فنقلناه» (42).

وينقل ابن بسام خبرا يفسر ما وصف به صاعد نفسه(43) عند مناظرته العاصمي والزبيــدي وابن العريف أمام المنصور، من أنه كان عالمــا بالموسيقى مع دلالة هذا الخبــر المنقول الضمنية على أنه لم يكن يجاهر بمعرفته بــالأنغام والأوزان: «ودخل صاعد يوما على المنصــور فلما وصل إليــه، وجـد عودا بين يـديــه، فقال لــه المنصور: قد تــواتر الخبر، وتحدث عنك البشـــر، أنك فرد في علم الموسيقى، وقد أردت غير مــرة الانبساط معك سرا في ذلك، فشق الأمر على صاعد هنالك، ولم يجد من محيد عن أخذ العود، فتناوله وجس أوتــاره وسوى تســوية أطــربت ابن أبي عــامر، ثم انــدفع ينشده بيتي مجنون بني عامر...» (44).

---

41) لعل الصواب «نحرير، ولا بصير بــالنقد مشهور». فيكون المقصود أن المنصور كان يفتقر إلى العالم الناقد القــادر على تقويم الكتاب تقويما حقيقيا. ونفهم من كلام ابن بسام أنه لمس من نفسه هذه الصفة.

42) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/ 16.

43) «قال صاعد: وبضاعتي أنا حفظ الأشعار... وعلم الموسيقى».
الذخيرة ـ القسم الرابع 1/ 15.

44) الذخيرة ـ القسم الرابع 1/ 30، 31.



وتبدو هذه المعرفة بالموسيقى ـ رغم سكوت كل المصادر عنها(45) ـ منسجمة مع الصورة التي رسمها صاحب الذخيرة، للشخصية الإنسانية لصاعد، وهي الشخصية التي جمعت بين طيب المعاشرة والمزاح والفكاهة، والإمتاع عند المجالسة واللطافة في الاستجداء، والوفاء لأولي الفضل عليه، والحنين إلى الوطن في بلد الغربة.

ويؤكد ابن بسام في آخر ترجمته المطولة لصاعد، ما ورد عند الحميدي قبله، من أن وفاة هذا الوافد المشرقي كانت بصقلية سنة 410هـ. ويضيف ابن بسام إلى هذه الترجمة المسهبة لصاعد، أخبارا يوردها عرضا في كتابه في سياق حديثه عمن يترجم لهم من الأعلام.

ففي ترجمته للشاعر ابن دراج القسطلي، يورد له مقتطعا من قصيدة قالها في مدح منذر بن يحيى، مصرحا بأن مناسبة هذه القصيدة كانت تهنئة الأمير بقدوم أبي العلاء صاعد اللغوي عليه(46).

وفي سياق ذكر خبر الوزير عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع، ومقتله على يدي المظفر عبد الملك بن أبي عامر، يشير إلى تعليق رأسه بباب الزاهرة، ثم ينقل قول ابن حيان: «وكنت في جملة من نظر إليه واستبنت الضربة بخده الأيمن. وكان أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي منقطعا إلى عيسى، فكان أول من أنشد عبد الملك، على سبيله من سرعة الانقلاب، شعرا يقول فيه (بسيط):

1 ــ فتلك هامتُه في الجوِّ ناطقةٌ
تُحدِّثُ الناس من آياتها عِبَرَا

45) نقل المقري كلام ابن بسام.

46) الذخيرة ـ القسم الأول 1/71، 72. والقصيدة في ديوان ابن دراج ص: 173.



2 ـــ مكتـوبـة الـوجـــه بـالـهنـديّ يقـرؤه
من ليس يقـــرأ مكتـــوبـا ولا سطـــرا (47)

ويورد عند حديثه عن أبي حفص بن بـرد، شعرا له «خاطب به أبا العـلاء صاعـد بن الحسن اللغوي»(48)، ثم يثبت الأبيـــات التي أجابه بها صاعد(49). ولم تـرد هذه الأبيات التي تضمنـت الإشارة إلى سن صــاعد عنـد نظمها، في غير الـذخيرة من المصــادر التي استطعت الوصول إليها.

وفي سيـاق الحديث عن أعمـال عباد، يتطـرق إلى عبد الجبـار الملقب بالمهدي، مفـرق الجماعة، والحديقة التي غـرسـها برؤوس أعدائه والخـارجين عليـه، ويشير إلى اشتغـال النظارة بهـا وذكر الشعراء لها، ممثلا لذلك بقول صاعد «من قصيدة أولها (وافر):

جـــلاء العيـن مبهجـــة النفـــوسِ
حـــدائق أطلعتْ ثمـــر الـــرؤوسِ...»(50)

ويكشف عند إيراده أبياتا لابن القوطية في وصف الترنجان، أن صاحبهـا أخذهـا من بيت لصاعد في نفـس الوصف: «وأراه سمع قول صاعد اللغوي فيه حيث يقول (بسيط):

مِـــنْ طِـيــبِـه ســرق الأتـرجُّ نكهتَـهُ
يـــاقـــوم حتّى من الأشجـــارِ ســـرّاقُ

ولكنه عكسه إذِ اقتبسه وترك الرائحة، ومال إلى الإسم»(51).

ويـورد في القسم الثالث من الـذخيـرة فصولا من خطبـة لابن سيده في نقد الـوزير الكاتب أبي الأصبغ ابن أرقم، وردّ ابن أرقم

---

47) نفسه ـ القسم الأول 1/128.
48) نفسه ـ القسم الأول 1/129.
49) نفسه ـ القسم الأول 1/130.
50) الذخيرة ـ القسم الثاني 1/27.
51) الذخيرة ـ القسم الثاني 1/216.



عليه، متهما إياه بالتقصير لإثباته رواية بيت اعتبرها ابن أرقم محرفة خارجة عن طرائق الشعراء ومذهب الفصحاء. والبيت الذي يتحدث عنه ورد ضمن أول ما أثبته صاعد في كتابه الفصوص من شعر، وقد أنشده ابن سيده كما رواه عن شيخه صاعد. ومما أورده ابن بسام في هذا السياق»... وقال(52) في فصل منها: والحسّاد في كل ذلك تكسر علي أوعاظها، ولا تفتر من النظر إلي ألحاظها، وأنا أنشدهم ما أنشدته عن أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي عن أبي رجاء الضبعي (طويل)(53):

1 ـ حسودٌ كئيبُ القلبِ يُخفي أنينَه
ويضحي كئيب البال عندي حزينَهُ

2 ـ يلوم على أن ظِلْتُ للعلم طالباً
أُجَمِّع من عند الرواة فنونَهُ

3 ـ وأكتب أبكار الكلام وعونه
وأحفظ مما أستفيد عيونَهُ

4 ـ فيا حاسدي دعني أُغَالِ بقيمتي
فقيمةُ كل الناس ما يحسنونَهُ

الرد(54): في هذا البِرْسَامِ غريبتان، إحداهما مقالة الحاسد الذي يكسر عليه أرعاظه، قولَه: دعني أغال بقيمتي، هذا جواب الأولياء لا جواب الحسدة والأعداء. والأخرى تحريفه الشعر عن وجهه، وصرفه عن نكهه، ولو تبين وقرأ طرائق الشعراء، ومذهب الفصحاء والخطباء لما استجازه، ولاجاد نقده وإحرازه، فهذا الشعر

52) الضمير يعود على ابن سيدة. الارعاظ ج: رُعْظ. مدخل النصل في السهم.

53) الشعر في الفصوص ص: 1ب لابن طباطبا العلوي.

54) يقصد ابن بسام رد الوزير ابن أرقم.



لأحمد بن المعذل مشهور مأثور (طويل):

غــــزالٌ سقيم اللحظ يُخفي أَنِينَــــهُ
ويُضْحِي كَئِيبَ الْقَلْبِ عِنْـدِي حَـزِينَـه

ونسي نفسه أبو الحسن في تأمل البيت الأول وكيف يجتمع فيه كئيب القلب، كئيب البال، وكيف يكون حزين البال، والشاعر منزه عن هذا السقط، مبرأ من مثل هذا الغلط...»(55) وبهذه الأخبار التي وردت في غير الفصل الخاص بالحديث عن صاعد، تكون المعلومات التي تمدنا بها الذخيرة، أوفر وأغزر ما كتب عن صاحب الفصوص في المصادر القديمة والمراجع الحديثة، فضلا عن قيمتها العلمية كما سيتبين.

3) وفي الغنية للقاضي عياض المتوفى سنة 544هـ، ترد الإشارة إلى أن أبا محمد عبد الرحمان بن عتاب(56) أجاز عياضا في فصوص صاعد(57). وينقل القاضي عياض أيضا، في ترتيب المدارك(58)، خبر رد ابن العطار على المنصور بن أبي عامر، لفظة «لفع»، وإدخال المنصور لصاعد الذي حكم بوجود الفاء والقاف في اللفظة، مع اعتبار ذات القاف أشهر. ولم يتقدم هذا الخبر لا عند الحميدي ولا عند ابن بسام.

4) وفي فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي المتوفى سنة 575هـ، يذكر المصنف كتاب الفصوص في اللغات والأخبار، مشيرا إلى أن صاعدا ألفه للمنصور بن أبي عامر، ثم يقول متحدثا عن روايته لهذا الكتاب: «حدثني به الشيخ أبو محمد

---

55) الذخيرة القسم الثالث 390/1.

56) قد تقدمت الإشارة، عند التعرض لفهرسة ابن عطية، إلى أن ابن حيان أجاز ابن عتاب في كتاب الفصوص.

57) الغنية ص: 224.

58) ترتيب المدارك 151/7.



بن عتـاب رحمه اللـه، قـال: أخبـرني به الشيخ المـؤرخ صـاحب الشـرطة أبـو مـروان، حيان بن خلف بن حيـان، وكتب لي بـذلك بخطه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه، رحمه الله» (59).

وينقل ابن خير إشـارة الوزير أبي بكر المصحفي إلى أنـه كان يقرأ كتاب «المداخل» للمطرز، على ابن خشخاش، وصاعد اللغوي حاضـر. ثم يذكر مـا يفيد أن صـاعدا قرأ «المـداخل» بمصر على الوزير ابـن حنزابة، عن أبي عمر محمـد الزاهد مؤلفـه، قراءة عليه ببغداد، «وكان ابن حنزابة لا يفارق صاعدا يسامره» (60).

وعنـد ذكر كتـاب «إصلاح المنطق» ليعقـوب بن السكيت، ينقل ابن خيـر قول أبي بكـر المصحفي: «وقرأه أيضـا أبي رحمه اللـه على أبي العلاء صاعد بن الحسن الـربعي النحوي البغدادي، وكان يـرويـه عن شيخيـه أبي سعيـد السيـرافي وأبي علي الفـارسي بأسانيدهما المشهـورة، وعن غيرهما» (61). ويمدنـا ابن خيـر عند ذكره لشعـر ابن الحجاج، بخبر جـديد يفيـد أن صاعدا هـو الذي أدخل شعر هـذا الشاعر المـاجن إلى الأندلس: «شعـر ابن حجاج البغدادي في ستة أجزاء، حدثني بـه الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الـرحمان، رحمـه الله، عن الوزيـر أبي بكر محمـد بن هشام المصحفي، قال: سمعته علـى أبي العلاء صاعد اللغوي عـن قائله ابن حجاج» (62). ثم يشير بعد ذلك إلـى رواية المصحفي لشعر ابن سكرة عن صاعد، وينقل عنه خبـرا يفيد أن ابن سكرة وابن حجاج كانا صـاحبين لصاعد اللغوي ببغـداد، ويشير إلى من كان يسمع معه شعر ابن حجاج على صاعد، وإلى تكريم التلاميذ لصاعد من

---

59) فهرسة ابن خير صفحة 326.

60) فهرسة ابن خير ص: 358.

61) فهرسة ابن خير ص: 331.

62) فهرسة ابن خير ص: 406.



أجل شيخ لهم كـان يسمع معهم عليـه شعر ابن الحجـاج، ثم إلى نزول صاعد على ابني غصن خالي الوزير ابن أرزاق، ونزوله على ابن الكتاني بسرقسطة»(63).

ويـذكر عنـد إشارتـه إلى تـواليف الأديب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى، أنه روى جميع ما رواه ابن سيدة «عن أبيه وأبي عمر الطلمنكي وصاعد اللغوي وغيره»(64).

5) ويستهل ابن بشكوال المتوفى سنة 578هـ، ترجمته لصاعد، في كتابـه الصلة، بذكـر شيوخ صـاحب الفصوص، فيسمي منهم السيرا فـي والفارسي اللذيـن ذكرهما ابـن خير(65) من قبـل، ثم القطيعي والخطـابي. وينقل عن الحميدي ملخصـا(66) مـا ورد في الجـذوة عن وفود صـاعد على المنصـور في حدود سنـة 380هـ، وعن أصله وعلمـه باللغة والآداب والأخبـار، وما حكي عن بـديهته وتفكهه وطيب عشـرته، وحـذقه في استخراج الأمـوال، وما قـاله الحميدي عن خروج صاعد أيام الفتنـة إلى صقلية وموته بها سنة 410هـ، لكنـه يضيف إلى هذا التاريـخ تاريخا آخـر ينقله عن ابن حزم: «قال أبو محمد بن حزم: توفي صاعد رحمه الله بصقلية في سنة سبع عشرة وأربع مائة»(67).

ومن الأخبار التي أوردها ابن حيان، ينقل ابن بشكوال قوله عن تأليف الفصوص: «وجمع أبو العلاء للمنصور، محمد بن أبي عامر كتابا سماه الفصوص فـي الآداب والأشعار والأخبار، وكان ابتداؤه

---

63) فهرسة ابن خير ص: 406.

64) فهرسة ابن خير ص: 450.

65) فهرسة ابن خير ص: 331. وورد في الذخيرة 4ـ 1/14:
«فرفع المنصور مجلسه وآنســه، وسأله عن أبي سعيد السيرافي فـزعم أنه لقيه وقرأ عليه...».

66) الصلة ص: 237.

67) الصلة ص: 238.



له فـي ربيع الأول سنة خمس وثمـانين [وثلاثمائة]، وأكملـه في شهر رمضـان من العام، وأثابـه عليه بخمسـة آلاف دينار، دراهم في دفعة، وأمره أن يسمعـه الناس بالمسجد الجامع بـالزاهرة، في عقب سنة خمس وثمـانين وثلاثمائة. واحتشد له مـن جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمـة. قال ابن حيان: وقرأتـه عليه منفردا في داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة» (68).

ولا نجد بين هـذه النقول مما نسبه ابن بشكـوال إلى نفسه إلا قولـه، «قلتُ: وكان صاعـد هذا متهما بـالكذب وقلة الصـدق فيما يورده، عفا الله عنه» (69). إلا أن هذه العبارة على قصرها، أصبحت بعـدُ حكمـا يتـردد في بعض تـراجم صـاعـد التي كتبهـا علمـاء متخصصون في الحديث النبوي ورجاله.

وفي تـرجمة ابن بشكـوال للسعيد بن عثمـان المعروف بـابن القزاز، الملقب بلحية الذبل(70)، الذي كان من أجل(71) أصحاب أبي علي القـالي، أن لابن القـزاز هذا كتـابـا في الرد علـى صاعـد بن الحسن اللغوي البغـدادي، في مناكير كتـابه في النـوادر والغريب المسمى بالفصوص، أكثر التحامل عليه فيه(72).

وفي عدة مـواضـع من الصلة، ترد الإشـارة عرضا إلى صـاعد عند الترجمة لمن رووا عنه، أو رووا عن تـلامذته كتابه الفصوص، أو أجيزوا فيه(73).

---

68) الصلة ص: 237، 238.

69) الصلة ص: 238.

70) يـرى عبد العلي الـودغيري، أن لفظـة الـذبل تصحيف للفظة «الثيتل»، أبـو علي القالي: ص: 353.

71) الصلة ص: 210.

72) الصلة ص: 209، 210.

73) انظر الصلة ص: 348، 349، 369، 370، 417، 533، 535، 536، 556، 557، 648.



6) وفي بغيـة الملتمس في تـاريخ رجـال أهل الأنـدلس، ينقل أحمد بن يحيى بن أحمـد بن عميرة الضبي المتـوفى سنة 599هـ، بالحرف مـا أورده الحميدي في الجذوة من أخبار صـاعد ونوادره وأشعاره ومـؤلفاته، دون أن يضيف جديـدا. وكل ما يميز تـرجمة صاعـد في بغية الملتمس، عن ترجمة الحميـدي له، أن الضبي في بعض مـا نقلـه يـروي عن غيـر واحـد عن شـريح بن محمـد بن حزم(74)، بينما يـروي الحميدي سمـاعا عن ابن حـزم، وأنه جعل وفاته سنة 417هـ(75) بينما جعلها الحميدي سنة 410هـ، كما تبين من قبل.

IV

وفي القرن السابع الهجري، نجـد أخبار صاعـد لـدى كل من الأزدي والشريشي والمـراكشي والقفطي والحموي وعـز الدين بن الأثير، وابن الأبار وابن خلكان وابن عذاري.

1) صنف علي بن ظـافـر الأزدي المتوفى سنـة 613هـ، كتابه بدائع البدائه لتجميع ما أبدعتـه بدائهُ بعض الشعراء، في مناسبات لم تكن متوقعـة. ومن هذه الأشعـار البديعـة التي أوردها الأزدي، أبيات لصاعد، قالها بديهـة في مناسبات مختلفة، أو أبيات لشعراء غيـره قالـوا على البـديهة محسنين وصفَ مـا قصَّـر صاعـد عن وصفه. ومن ذلك الأبيات التي قالها في وصفَ المشهد الذي أعده المنصور لاختبار شـاعرتيه(76)، والأبيـات التي قالهـا بعـد ذلك ـ مستدركـا ـ في وصـف جاريـة من النوار تجدف بمجـاديف من ذهب(77)، والبيت الذي قـاله، عند سقوطه فـي البركة(78)، والبيتان

74) بغية الملتمس ص: 320.

75) بغية الملتمس ص: 320.

76) بدائع البدائه ص: 300.

77) بدائع البدائه ص: 301.

78) بدائع البدائه ص: 356.



اللذان قـالهما في وصف وردة أهـديت إلى المنصور(79)، والبيتان اللذان قالهمـا في وصف الإبريق(80)، وكل ذلك كـان نقـلا عن ابن بسـام. أما الحميـدي فقـد نقل من جذوتـه الخبـر الذي رواه أبـو الحسن الراشـدي عن براعة الزهيـري الشاعر صاحب صـاعد في وصف نرجسـة ركبت في وردة، بعد أن عجز صاعـد وابن شـهيد عن وصفها(81).

أمـا كتاب التنبيهـات على غـرائب التشبيهـات، فقد اكتفى فيـه الأزدي بإيـراد البيتين اللـذين قـالهمـا في وصـف الـوردة التي أهديت(82) إلى المنصـور قبل أن تستكمل تفتحهـا، وهمـا البيتـان اللذان كانا سببـا في امتحان المنصور لشاعرية صـاعد وبديهته، بعد أن أوهمه ابن العريف أنه سرقهما من شاعر بمصر.

2) وينقل الأديب أبـو العبـاس أحمد بن عبـد المـؤمن القيسـي الشريشي المتـوفى سنة 620هـ، في شـرحه لمقامات الحـريري، بعض أشعار صاعد مع ذكر مناسبة نظم بعضها.

ومما نقله أن المنصور كان «قـد أثبت عنده الحسدة أن صاعدا اللغوي متهم في كل مـا يورده من حديث أو شعـر، فأدخلت عليه يوما باكورة لم تفتح أكمامها فقال فيها صاعد ارتجالا: (متقارب):

1 ــ أتَتْـــك أبـا عـــامـــر وردة
يُـــذكِّـــرك المسـكُ أنفـــاسَهــــا

2 ــ كعـــذراءَ أَبْـصــرَهـــا مُبـــصِـــرٌ
فَغَطَّـتْ بأكمــــامهــــا رَاسَهــــا

فسُرَّ بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضرا...»(83).

---

79) بدائع البدائه ص: 299.

80) بدائع البدائه ص: 302، 303.

81) بدائع البدائه ص: 358. وانظر الجذوة ص: 384.

82) التنبيهات ص: 83.

83) شرح مقامات الحريري 1/58.



وأورد الشريشي كذلك، االأبياتَ التي قالها صاعد في وصف ترنجان عبث به المنصور ورماه(84)، وقولَه(85) متغزلا (منسرح):

1 ـ قُلْتُ له والرقيبُ يُعْجِلُه
مستعجلا للفراقِ: أَيْنَ أَنَا؟

2 ـ فمَدَّ كفّاً إلى ترائبه
وقال: سِرْ آمنا فأنتَ هُنَا

ومما استحسنه الشريشي في البر بالجليس، أبيات نسبها، كابن بسام قبله، إلى صاعد(86)، وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الفصوص، إلا أن صاعدا صرح بنسبتها إلى الشاعر العباسي كشاجم(87).

والملاحظ أن كل ما أورده الشريشي من أشعار صاعد منقول من كتاب الذخيرة لابن بسام.

3) وفي المعجب(88) في تلخيص أخبار المغرب، يعيد عبد الواحد المراكشي ذكر ما ورد(89) من قبل في الجذوة، فيشير إلى وفود صاعد على المنصور سنة 380هـ، وإلى ما عرف عنه من ميل إلى الفكاهة وسرعة جواب وطيب معاشرة وحذق في استخراج الأموال، وينقل قصة الرقاع التي لبسها في مجلس المنصور، ثم يورد نفس الأبيات التي قالها صاعد معتذرا بعلته، عن حضور مجالس المظفر بعد وفاة أبيه المنصور. ويشير إلى قصة القوالب والزوالب، والتَّمَرْكُل، وتعجيز العاصمي لصاعد في النحو، وتفوق صاعد على العاصمي وباقي العلماء الحاضرين

84) شرح مقامات الحريري 1/60.
85) شرح مقامات الحريري 4/271.
86) شرح مقامات الحريري 2/186.
87) الفصوص ص: 91أ. والأبيات في ديوان كشاجم ص: 287.
88) فرغ المراكشي من تأليفه سنة 621.
89) انظر ص: 30، 37.



في شــرح أبيات لامــرئ القيس والشمــاخ، وإلى قصة الأيل الــذي أهداه صاعد إلى المنصور، ثم يعيد ما ذكره الحميدي من أن وفاة صاعد كانت بصقلية سنة 410هـ، عن سن عالية.

ويضيف المراكشي إلى هذه الأخبار المكــررة، خبرا جديدا يفيد أن المنصور استوزر صــاعدا: «واستوزر جماعة منهم الــوزير أبو الحسن جعفر بن عثمــان... واستوزر أبا العلاء صــاعد بن الحسن الربعي اللغوي البغدادي»(90). ويخالف المراكشي ابن بسام في ما نقلــه عن تغريق كتــاب الفصــوص، فصاحب الــذخيــرة يذكــر أن المنصور هو الذي أمر بأن يقذف الكتاب في النهر، بعد أن تبين له كذب صاعد، بينما يورد المــراكشي خبرا يفيد أن كتاب الفصوص سقط في نهر قــرطبة مع الغلام الــذي كان يحمله: «وألف لــه أبو العلاء هذا كتبا، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي. واتفق لهــذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العــلاء دفعه حين كمل لغلام لــه يحمله بين يديه وعبــر النهر، نهر قــرطبة، فخــانت الغلام رجلــه فسقط في النهر هــو والكتاب، فقــال في ذلك بعض الشعــراء...»(91) ومن الجــديد الــذي تضمنه المعجب، أن كتاب «الجواس» الــذي ألفه صاعد للمنصــور، كان ما يزال موجــودا متداولا في عصر المراكشي: «.... وهــو كتاب مليح جــدا، انخرم أيــام الفتن بالأنــدلس، فنقصت منــه أوراق لم توجــد بعد»(92).

4) ويــردد القفطي، جمال الــدين أبــو الحسن علي بن يــوسف المتوفى سنة 624هـ، في إنباه الرواة على أنباه النحاة، وهو يترجم لصاعد، ما ورد في المصادر السابقة، وينقل ما كان ابن حيان قد

---

90) المعجب ص: 30.

91) المعجب ص: 31.

92) المعجب ص: 33.



قـاله عن تأليف الفصـوص، وفي قـراءته هـذا الكتاب مفـردا على شيخه صاعد سنة 399هـ.

ومما يبـدو جديدا في كتـاب القفطي، تعليله انتقال صـاعد إلى الأنـدلس، برغبتـه في ترويج بضـاعته العلميـة، «وبلغه أن اللغـة بالأندلس مطلوبة، والآداب هناك مرغوب فيها من ملوكها ورعيتها، فارتحل إلى الأندلس، ودخلها في حدود ثمانين وثلاثمائة»(93).

وعند الحديث عن وفاة صـاعد، ينقل القفطي نفس ما ورد عند ابن بشكوال(94) من جمع بين تاريخ الحميدي لوفاة صاعد وتاريخ ابن حزم لهذه الوفاة: «وخرج صـاعد عن الأندلس في أيام الفتنة، وقصد جزيـرة صقلية، فمات بها قريبا من سنـة عشر وأربعمائة، وقد أسن..... قـال أبو محمـد بن حزم: توفي صـاعد رحمـه الله، بصقلية في سنة تسع(95) عشرة وأربعمائة»(96).

ويصـرح القفطي بما يفيـد أن العلمـاء في عصـره، لم يكونـوا مقتنعين بصحـة الأخبار التي صـاغها خصـوم صاعد فـي البلاط العامري، تشكيكا في علمه وصدقه، وهو تصريح يفسر بأن كتاب الفصوص الذي جمع فيه صاعد حصيلة درسه، لم يكن من الكتب المجهولـة لدى العلماء والمحصلين، «ولـولا مزحه وكثرة مـا كان يأتي به في تصانيفه ما كان إلا عالما، وقد اختُبرتِ الكتبُ المطولة في اللغة وغيرها، فوُجد فيها حقيقةٌ ما اتُّهم فيه، وكان صاعد غيرَ صاعد في النحو مقصرا وباللغـة قيما، وله يد طولى في استنباط معاني الشعر»(97).

---

93) إنباه الرواة ص: 85.

94) الصلة ص: 237، 238.

95) الراجح أن (تسع) تصحيف لـ (سبع) التي وردت في المصادر الأخرى.

96) إنباه الرواة 2/89ـ 90.

97) إنباه الرواة 2/88.



وفي ترجمته لسراج بن عبد الملك اللغوي الأندلسي، يذكر القفطي أن سراجا هذا أنشد ـ لما قرئ عليه في الموطأ حديث: «لا قطع في ثمرٍ ولا كثرٍ» لصاعد بن الحسن الربعي (كامل)(98):

1 ــ ومهفهفٍ أبْهى من القمر
قمر الفؤاد بفاتن النظرِ

2 ــ خالسته تفاحَ وجنته
فأخذْتُها منه على غَرَرِ

3 ــ فأخافني قوم فقلت لهم
لا قطع في ثَمَرٍ ولا كَثَرِ(99)

والملاحظ أن هذه الأبيات لم ترد في ما ذكرت من قبل من المصادر، وقد وردت في الفصوص، لكن صاعدا نسبها إلى قائلها الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، خلافا للقفطي.

5) يستهل الحموي(100) المتوفى سنة 626هـ ترجمته لصاعد بذكر شيوخه، فيشير إلى السيرافي والفارسي، ثم الخطابي الذي ذكره ابن بشكوال ضمن شيوخ صاعد، لكنه لم يذكر القطيعي رغم ورود اسمه في الصلة مقترنا باسم الخطابي والسيرافي، عند تعداد ابن بشكوال لشيوخ صاعد. ويقتصر الحموي في معجمه على نقل ما ورد عند المراكشي من أن المنصور استوزر أبا العلاء صاعدا، وأن كتاب الفصوص الذي ألفه له سقط في النهر عندما زلت قدم الغلام الذي كان يحمله وهو يعبر النهر، وأن كتاب الجواس الذي ألفه صاعد أيضا للمنصور انخرم أيام الفتن التي كانت بالأندلس، فسقطت منه أوراق لم توجد بعد.

98) الشعر في الفصوص ص: 111أ للوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف.
99) إنباه الرواة 2/66.
100) معجم الأدباء 11/281، 286.



ورغم نقله بالنص عن المعجب، يجعل ياقوت الحموي وفاة صاعد سنة 417هـ كما ورد عند الضبي وابن بشكوال، مخالفا بذلك المراكشي الذي جعل وفاة صاعد سنة 410هـ.

6) وترد إشارة إلى صاعد عرضا في الكامل لابن الأثير المتوفى سنة 630هـ عند الحديث عما حدث سنة 385هـ من الحوادث. ففي ذكر حادثة غريبة بالأندلس، يقول عز الدين ابن الأثير: «في هذه السنة سير المنصور بن محمد بن أبي عامر... عسكرا إلى بلاد الفرنج للغزاة... فكان من القدر أن شاعرا للمنصور يقال له أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي قد قصده من بلاد الموصل وأقام عنده وامتدحه قبل هذا التاريخ، فلما كان الآن، أهدى إلى المنصور أيلا وكتب معه أبياتا منها....»(101).

ويبدو من العبارة التي ذكر فيها ابن الأثير صاعدا، أنه لم يكن يعرف عنه أكثر من التسمية التي كان المؤرخون يفتتحون بها كلامهم عند الترجمة لصاحب الفصوص.

7) وفي ترجمة علي بن وداعة، ينقل(102) ابن الأبار المتوفى سنة 658هـ، في الحلة السيراء، الخبر الذي أورده ابن بسام في ذخيرته، عن استغاثة صاعد بالقائد ابن وداعة، عندما ساءت أحواله وضاق به العيش، في أخريات الدولة العامرية، ويثبت ستة أبيات لصاعد، من الأبيات السبعة التي أوردها ابن بسام.

ويشير ابن الأبار نفسه في معجم أصحاب أبي علي الصدفي إلى ابن العريف(103)، ويذكر أنه روى كتاب الفصوص لصاعد عن أبي محمد الركلي عن أبي مروان بن حيان عنه، وأنه رواه أيضا

---

101) الكامل في التاريخ 9/113.

102) الحلة السيراء ص: 181، 182.

103) معجم أصحاب أبي علي الصدفي ص: 16.



عن أبي القاسم ابن النخاس، عن ابن سراج عن أبي حيان، عن صاعد(104).

8) ويصف ابن خلكان المتوفى سنة 681، صاعدا بأنه صاحب كتاب الفصوص(105)، ويسمي من شيوخه السيرافي والفارسي والخطابي، دون أن يذكر القطيعي. ثم يلخص ما ورد في المصادر السابقة عن وفوده على المنصور، وعن علمه وبداهته وحذقه في استخراج الأموال.

ومن النوادر التي حكيت عن صاعد وتسرعه في الإجابة، ينقل ابن خلكان، خبر عبث صاعد بالشاعر الأندلسي بشار الأعمى، في مجلس الأمير مجاهد العامري، وهو يشرح لفظة «الجرنفل» التي وضعها بشار للكشف عن كذبه(106). ولم ترد هذه النادرة التي تكمل ما صيغ حول صاعد وسرعة جوابه، إلا في جذوة المقتبس(107). ويعيد ابن خلكان خبر أمر المنصور بتغريق الفصوص، «لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له»(108) لكن وصفه لصاعد بأنه صاحب الفصوص، وتعليله رَفْضَ (109) الناس لهذا الكتاب، بكون صاحبه قد اتهم بالكذب في نقله، يفيد أنه كان يعرف كتاب الفصوص معرفة من طالعه وقرأه، ويقوي هذا الافتراض قول ابن خلكان في ترجمته لأبي العتاهية: «وحكى صاعد اللغوي في كتاب الفصوص أن أبا العتاهية زار بشار بن

---

104) معجم أصحاب أبي علي الصدفي ص: 16.

105) وفيات الأعيان 2/181.

106) وفيات الأعيان 2/181.

107) الجذوة ص: 384. وحصر ورود هذا الخبر في الجذوة مقيس إلى ما ذكرت من قبل من المصادر.

108) وفيات الأعيان 2/182.

109) وفيات الأعيان 2/181.



برد يوما فقال له أبو العتاهية...»(110)، وقوله في حديثه عن الوزير علي بن عيسى: «وذكر صاعد اللغوي في كتاب الفصوص قال: حدثني أبو الحسن المرزباني، قال: هويت جارية لعلي بن عيسى غلاما لأبي بكر ابن العلاف الضرير، ففطن بهما فقتلا جميعا... فقال أبو بكر مولاه هذه القصيدة يرثيه بها وكنى عنه بالهر والله أعلم...»(111).

وترد الإشارة إلى صاعد أيضا، في وصف ابن خلكان لابن حيان صاحب المقتبس - وهو يترجم له - بأنه صاحب «أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي وأخذ كتابه المسمى بالفصوص»(112).

كما ترد الإشارة إليه في ترجمته(113) لابن السيد بن مقلس الأندلسي، وترجمته لابن سيده(114) من خلال إشارته إلى تلمذتهما لصاعد.

9) وفي سياق الحديث عن المظفر، عبد الملك بن أبي عامر، واقتراحه على شعرائه، في بعض أوقات الربيع نظم قطع نوارية في الخيري وغير ذلك من أنواع النوار، يورد ابن عذاري المتوفى سنة 695هـ في البيان المغرب، نقلا عن ابن حيان، «قول أبي العلاء صاعد بن الحسين(115) البغدادي النديم رحمه الله(116)، في الآس(117) والترنجان(118) والنرجس(119) والبنفسج(120)

110) وفيات الأعيان 1/223، 226.

111) وفيات الأعيان 2/109، 110.

112) وفيات الأعيان 2/218.

113) وفيات الأعيان 3/193.

114) نفسه 3/330.

115) كذا، وسيرد نفس التصحيف في النفح.

116) البيان المغرب 3/18.

117) نفسه 3/19.

118) نفسه 3/19.

119) نفسه 3/19.

120) نفسه 3/19.

والخيري(121) والورد(122). وفي حديثه عن مقتل الوزير ابن القطاع يقول ابن عذاري: «وذكرت الشعـراء قتل عيسى، ورفعت أشعارها إلى الحاجب عبـد الملك مهنئة بالصنع فيه على عـادتها، فمن ذلك قول أبي العلاء صاعد البغدادي من قصيدة (بسيط):

يـــامن أعـــاد لنـــا من عـــدلـــه عمـــرا
حتى حسبنـــــاه من ملحــــوده نشــــرا

وهي طويلة(123).

ولعل البيـــان المغـرب يتميـــز، قيـــاســا إلـى مـا تقـــدم من المصادر(124)، بتضمنه مقطـوعة من قصيدة قـالها صاعد مـادحا المنصور لما نزل قصر الزاهـرة: «واشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهـرة، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها حتى أحسن كمـال، وجاءت في نهـاية الجمـال.... وفيها يقـول صاعـد اللغوي (بسيط):

1 ـ يـاأيـهـــا المـلـك المنصور مـــن يمــن
والمبتني نسبـــا غيــــر الـــذي انتسبـــا

2 ـ بـــغـزوة فـــي قـلـــوب الشرك راتعـة
بين المنـــايـــا تنــاغـي السمـر والقضبـــا

3 ـ أمـــا ترى العيـن تجـري فوق مرمـرها
زهـوا، فتجـــري على أحسـائهـا الطـــربـا

121) نفسه 3/20.
122) نفسه 3/20.
123) البيان المغرب 3/35.
124) أقصد المصادر التي ذكرتُ.

4 ـ أجْــرَيْتَــهَا فطمــا الــزاهـــي بجرْيتهــا
كمــا طَمَوْتَ فَسُــدْتَ العُجْمَ والعَرَبَــا..»(125)

- V -

في القــرن الثامن الهجــري ترد الإشــارة إلى صــاعد في عــدة مصادر مشرقية وأندلسية:

1) ففي لسان العرب لابن منظــور المتوفى سنة 711هـ يصبح صاعــد مصدرا لكثيــر من الروايــات التي يثبتها صــاحب اللسان، وسأعود إلى توضيح هذا في مبحث لاحق.

2) وفي سيــاق اهتمام الحــافظ الــذهبي المتوفى سنــة 748هـ بالرواة وصفــاتهم وأسانيدهم، يعرف في كتابــه «ميزان الاعتدال» بصاعــد تعريفــا مقتضبا نبّــه فيه نقــلا عن الصلة، على أنــه اتهم بــالكــذب: «صاعــد بن الحسن الــربعي، أبــو العــلاء الأديب نــزيل الأندلس، قال ابن بشكوال: متهم بالكذب»(126).

ومن بين شيوخ صاعــد لا يذكر الذهبي في كتــابه: «العبر في خبر من غبر» إلا القطيعي العالم المحدث»(127).

ويكرر الإشــارة إلى أنه كــان يُتّهم بــالكذب(128)، وهــي نفــس الإشارة التي ترد في كتابه الثالث المغني في الضعفاء(129).

واقتصر الذهبي في كتابــه «مختصر إنباه الرواة» على اختصار ما أورده القفطي في ترجمته لصاعد(130).

---

125) البيان المغرب 2/277.
126) ميزان الاعتدال 2/287.
127) العبر في خبر من غبر 3/124.
128) العبر في خبر من غبر 3/124.
129) المغني في الضعفاء 1/302.
130) انظر المكتبة العربية الصقلية ص: 644.



3) وفي تخليص الشواهد لابن هشام المتوفى سنة 761هـ يورد المؤلف قول الشاعر (منسرح):

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ   فِي بَعْضِ غِرَّاتِهِ يُوَافِقُهَا

ثم يشير إلى أن المشهور كون البيت لأمية بن أبي الصلت، وإلى أن صاعدا نسبه إلى رجل خارجي قتله الحجاج»(131). وهو نفس ما نجده في المقاصد النحوية للعيني حيث يقول الشارح: «أقول: قائله هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، شاعر جاهلي، وقال صاعد: هو لرجل خارجي قتله الحجاج، والأول أصح»(132). وفي هذا ما يطمئننا إلى أن ما رواه صاعد في فصوصه ومجالسه كان بعضا من المادة العلمية التي اعتمد عليها شراح الشواهد لعدم غرابة رواياته عنهم.

4) ويعيد الصفدي المتوفى سنة 764هـ في الوافي بالوفيات، نقل بعض ما ورد في المصادر السابقة مشيرا إلى شيوخه الأربعة(133)، ويجعل وفاته سنة 417هـ، كما ذكر ابن حزم، وخلافا لما ورد عند الحميدي وابن بسام. وبعد إشارته إلى تأليف صاعد لكتابه الفصوص، يورد خبر عبثه ببشار الأعمى في مجلس مجاهد العامري وقصة القوالب والزوالب، وقصة الأيل، ويثبت بعض الأشعار التي نسبت إلى صاعد في المصادر المتقدمة مع مناسباتها، ثم يورد الأبيات الرائية التي انفرد القفطي - حسب ما اطلعت عليه - بإيرادها في الإنباه منسوبة إلى صاعد(134).

---

131) تخليص الشواهد ص: 328.

132) المقاصد النحوية 2/187.

133) السيرافي والفارسي والخطابي والقطيعي.

134) إنباه الرواة 2/66، وهي منسوبة في الفصوص إلى الوزير ابن يوسف.



ويبدو أن الصفدي نقل قصيدة ابن العلاف[135] في رثاء الهر عن ابن خلكان الذي نقلها من كتاب الفصوص، إذ لم ترد القصيدة مروية عن صاعد في كتاب آخر قبل وفيات الأعيان.

5) ويأتي ابن كثير المتوفى سنة 774هـ، في كتابه: «البداية والنهاية»، عند ذكر كتاب الفصوص، بما يبدو غريبا بالقياس إلى كل ما قيل عن الفصوص في المصادر، ففي حديثه عن صاعد يقول ابن كثير: «.... صاحب كتاب الفصوص في اللغة على طريقة القالي في الأمالي، صنفه للمنصور بن أبي عامر، فأجازه عليه خمسة آلاف دينار. ثم قيل له إنه كذاب متهم... قلت كأنه سمى هذا الكتاب بهذا الإسم ليشاكل به الصحاح للجوهري، لكنه كان مع فصاحته وبلاغته وعلمه متهما بالكذب، فلهذا رفض الناس كتابه ولم يشتهر»[136]. وحديث ابن كثير عن عدم اشتهار الفصوص، ومقارنته بالصحاح يوحيان بأنه لم يكن يعرف من كتاب الفصوص إلا اسمه.

6) وترد الإشارة إلى صاعد في ثلاثة مؤلفات لابن الخطيب المتوفى سنة 776هـ، ففي كتاب الإحاطة[137] يذكر ابن الخطيب أن صاعدا كان من بين الشعراء الذين صاحبوا المنصور بن أبي عامر في غزواته سنة 374هـ، وهو تاريخ سابق لسنة 380هـ التي يجعلها المؤرخون تاريخ وفود صاعد على المنصور.

وفي أعمال الأعلام[138] يورد ابن الخطيب خمسة عشر بيتا من قصيدة ذالية مدح بها صاعد المنصور بن أبي عامر يهنئه بالنصر الذي حققه، في غزو للإفرنج. ولم ترد هذه الأبيات حسب ما اطلعت عليه في مصدر آخر.

135) انظر نكت الهميان ص: 47.

136) البداية والنهاية 12/21.

137) الإحاطة 2/106.

138) أعمال الأعلام ص: 83.



وفي كتاب «السحر والشعر»(139) يورد البيتين التاليين منسوبين إلى ابن شهيد (كامل):

1 ـــ اِقْبَلْ هُدِيتَ أَبَا الْعَلاَءِ نصيحتي
بقبولها وبوَاجب الشُّكْرِ

2 ـــ لا تَهْجُوَنَّ أَسَنَّ منك فربما
تهجو أباك وأنت لا تَدْرِي

وسيرد في النفح أن صاعدا كان يبكي من سماع هذين البيتين، إلا أن المقري نسبهما إلى شاعر آخر.

- VI -

وفي القرن التاسع نقف على أخبار صاعد وأشعاره في أربعة مؤلفات، هي: البلغة للفيروز آبادي، ولسان الميزان لابن حجر، وروضة الإعلام لابن الأزرق، ونزهة الأنام للبدري.

1) يكتفي الفيروز آبادي المتوفى سنة 817هـ في ترجمته المختصرة لصاعد بالإشارة إلى أخذه عن السيرافي والفارسي، وحظوته عند المنصور، وتأليفه للفصوص، وسقوط الكتاب في النهر مع الغلام الذي كان يحمله، ويجعل وفاته سنة 410هـ. ويصف الفيروز آبادي صاعدا بالخلاعة، ثم يجعل هذه الخلاعة سببا في امتناع الناس عن الأخذ عنه: «وكان خليعا مولعا بالشراب واللعب، فلم يؤخذ عنه العلم»(140).

2) رغم تأخر العصر الذي ظهر فيه كتاب لسان الميزان، يمدنا الحافظ ابن حجر المتوفى سنة 852هـ بما يبدو جديدا بالقياس إلى ما ورد في المصادر السابقة. فهو يتحدث عن صاعد باعتباره

---

139) السحر والشعر ص: 383. تحقيق قدور إبراهيم. نقلا عن: المستدرك على ديوان ابن شهيد الأندلسي، لعبد العزيز الساوري.

140) البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص: 98.



أحد رواة الحديث النبوي: «وهو من الرواة للحديث النبوي، وإنما اتهم في اللغة»(141). ويصرح ابن حجر بما يفيد أنه قرأ كتاب الفصوص: «وقد طالعت كتاب الفصوص له، فذكر في أوائله أنه لزم في حداثته أبا سعيد السيرافي وأبا علي الفارسي حتى استظهر اللغة...»(142) والنقول المطولة التي ينقلها من عدة مواضع من الفصوص، تؤكد أنه قرأ الفصوص كله قراءة متمعن»(143).

وفي هذا ما يطمئننا إلى أن كتاب صاعد كان في القرن التاسع معروفا في المشرق لدى أمثال ابن حجر من الحفاظ والعلماء.

وإلى جانب هذا يشير ابن حجر إلى بعض ما حكي عن صاعد في المصادر، وينقل عن الحميدي بعض ما ذكره عنه، ثم يشير إلى أنه قد روى عن صاعد من القدماء «أبو محمد بن حزم، وأبو مروان بن حيان، وغيرهما»(144).

3) وينقل ابن الأزرق المتوفى سنة 896هـ من فصوص صاعد ما يفيد أنه كان يعرف الكتاب معرفة من طالعه. وقد توزعت هذه النقول على عدة مواضع من كتابه «روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام». ومن هذه النقول خبر الأعمش حين كان يقرئ بمسجد بني أسد بالكوفة مع أبي حصين إمام المسجد(145)، وخبر أمير البصرة الذي لحن على المنبر(146).

---

141) لسان الميزان 3/160.

142) لسان الميزان 3/161.

143) انظر لسان الميزان 3/160 إلى 163.

144) لسان الميزان 3/163. وورد في الطبعة التي اعتمدنا عليها أن صاعدا توفي سنة سبع وأربعمائة بصقلية. والراجح أنه تصحيف لسبع عشرة وأربعمائة.

145) روضة الإعلام، ص: 27.

146) روضة الإعلام، ص: 488.



4) وينفرد أبو البقاء عبد الله البدري أحد علماء القرن التاسع الهجري في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام بإيراد قول صاعد اللغوي في المنثور (سريع):

1 ـ قَدْ أَقْبَلَ ٱلْمَنْثُورُ يا سَيِّدِي
كَالدُّرِّ والْيَاقُوت في نَظْمِهِ

2 ـ ثَنَاكَ لازال كَأَنْفَاسِهِ
وَرَأْسُ مَنْ عَادَاكَ مِثْلُ اسْمِه(147)

وإيراد قوله (سريع):

1 ـ تُفَّاحَةٌ أذْكَرَنِي نِصْفُهَا
خَدَّ حَبِيبي يَوْمَ عَانَقْتُه

2 ـ ونصفها الآخر شبهته
بلون وجهي حين فارقته(148)

والملاحظ أن هذه الأبيات التي أوردها أبو البقاء البدري منسوبة إلى صاعد اللغوي، لم ترد في أي مصدر من المصادر التي ترجمت لصاعد أو نقلت شعره(149).

ـ VII ـ

ويكتفي السيوطي المتوفى سنة 911هـ، بأن ينقل في بغية الوعاة، بعض ما ورد في تراجم غيره من المؤرخين الذين ترجموا لصاعد، فينقل عن ابن النجار، بعض ما تردد في جل المصادر(150).

147) نزهة الأنام، ص: 84.

148) نزهة الأنام، ص: 122.

149) حسب ما تيسر الاطلاع عليه.

150) بغية الوعاة 2/7.



وينقل عن ابن مكتوم كلاما يذهب فيه صاحبه إلى أن نزول قدر صاعد لدى القدماء، كان بسبب ما غلب عليه من الخلاعة: «وقال ابن مكتوم: كان مقدما في علم اللغة ومعرفة العويص وكان أحضر الناس شاهدا، وأرواهم لكلمة غريبة. وإنما حطمه عند أهل الأدب، ما غلب عليه من حب الشراب والبطالة، وإيثار الفكاهة، فلم يثقوا بنقله، ولا استكثروا منه»(151).

- VIII -

وفي القرن الحادي عشر يرد ذكر صاعد وفصوصه، لدى كل من المقري المتوفى سنة 1041هـ، وحاجي خليفة المتوفى سنة 1067هـ وابن العماد الحنبلي المتوفى سنة 1089هـ:

1) في سياق الحديث عن الوافدين إلى الأندلس من المشرق، يذكر المقري أبا العلاء صاعد بن الحسين(152)، ثم ينقل جل ما ذكره ابن بسام في ترجمته لصاعد، كما ينقل بعض ما ورد في الجذوة وبدائع البدائه عنه.

ومما يبدو متميزا في النفح، بالقياس إلى ما ورد عن صاعد في كل المصادر السابقة، عدا فهرسة ابن خير(153) إشارة المقري إلى أن صاعدا «قدم الأندلس من مصر أيام المؤيد، وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة 380هـ»(154). ولم ترد الإشارة إلى وجوده بمصر حسبما استطعت الاطلاع عليه إلا عند ابن خير(155). ويورد المقري الأبيات الرائية(156) التي ضمنت حديث: «لا قطع في

151) بغية الوعاة 7/2.

152) ورد نفس التصحيف في البيان المغرب.

153) حيث يشير ابن خير إلى أن صاعدا قرأ المداخل بمصر على الوزير ابن حنزابة.

154) نفح الطيب 36/4.

155) فهرسة ابن خير ص: 358.

156) النفح 76/4. وقد نسبها المقري إلى صاعد كما نسبها القفطي قبله إليه. وقد نسبها صاعد في الفصوص إلى الوزير ابن يوسف.



ثمر ولا كثر»، وهي نفس الأبيات التي أوردها القفطي منسوبة إلى صاعد. كما ينقل عن كتاب الأزهار المنثورة في الأخبار المأثورة أن صاعدا ألبس غلاما له أسود قميصا من الرقاع ليستخرج مال المنصور وهباته(157)، وهذه الرواية المنسوبة إلى صاعد تخالف الروايات السابقة التي تجعل صاعدا هو الذي لبس الرقاع. ويذكر المقري أن الحجاري قدم صاعدا بقوله (بسيط):

كأن إبريقنا والرَّاحُ في فمه
طيرٌ تناول ياقوتا بمنقار(158)

ومن شبه الجديد في النفح إشارة المقري إلى هجاء شاعر سماه ابن جاشد البغدادي لصاعد: «وقال جاشد البغدادي في صاعد اللغوي ـ وكان صاعد ينشدهما ويبكي، ويقول: ما هجيت بشيء أشد علي منهما ـ، (كامل):

1 ـ اِقْبِلْ هُدِيتَ أبا العلاء نصيحتي
بقبولها وبواجب الشكر
2 ـ لا تهجونَّ أسنَّ منك فربما
تَهْجُو أبَاك وأنت لا تَدْرِي

نعوذ بالله من لسان الشعراء(159)».

وقد تقدمت الإشارة إلى صاعد عرضا عدة مرات في نفح الطيب. ففي الحديث عن ابن مقلس، يذكر المقري أنه قرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب كتاب الفصوص(160). وعند ذكره لكتاب الكامل للمبرد والنوادر للقالي، يشير إلى أن كتاب الفصوص لصاعد «جار في مضمار الكتابين المذكورين»(161).

157) نفح الطيب 4/82.
158) نفح الطيب 4/94.
159) نفسه 4/95. وقد سبق أن ابن الخطيب ينسب البيتين لابن شهيد.
160) نفسه 2/132.
161) نفسه 2/172.



ويشير إلى قصة افتخار صاعد بالمشرق أمام الأندلسيين، وإنشاد ابن شهيد مقطوعة يعرض فيها بفخر صاعد(162). كما يورد قصة عجز صاعد وابن شهيد عن وصف نرجسة ركبت في وردة، وإسراع الزهيري تلميذ صاعد إلى وصفها(163). وهي القصة التي ذكرها الحميدي في الجذوة. وفي سياق الحديث عن اشتداد ملك المنصور بن أبي عامر ونزوله بقصر الزاهرة، يورد المقري ثمانية أبيات(164) من القصيدة البائية التي مدح فيها صاعد المنصور عند نزوله بهذا القصر، وهي نفس الأبيات التي يبدو، حسب ما تيسر لي الاطلاع عليه، أن ابن عذاري سبق إلى التفرد بإيرادها.

ولعل المقري ينفرد بنقله عن ابن سعيد قصة الأحد عشر بيتا التي قالها صاعد مناقضا خصمه ابن العريف النحوي: «وقد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر، وعنده صاعد اللغوي البغدادي، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات (مجتث):

1 ــ فَالْعَامِرِيَّةُ تَزْهَى
عَلَى جَمِيعِ المَبَانِي

2 ــ وَأَنْتَ فِيهَا كَسَيْفٍ
قَدْ حَلَّ فِي غِمْدَانِ

فقام صاعد، وكان مُنَاقِضاً له، فقال: أسعد الله تعالى الحاجب الأجل، ومكن سلطانه، هذا الشعر الذي قاله قد أعدّه وروّى فيه، أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا. فقال له المنصور: قلْ،

162) نفح الطيب 2/260.

163) نفح الطيب 2/598، 599.

164) نفح الطيب 1/581.



ليظهر صدق دعواك. فجعل يقول من غير فكرة طويلة (مجتث):

1 ــ يأيها الحاجبُ المُعْـ تلِي على كِيوَانِ
2 ــ ومَنْ بِهِ قد تَنَاهَى فَخَارُ كُلِّ يَمَانِ
3 ــ العامريّةُ أضحتْ كجنّة الرضوانِ
4 ــ فريدةً لفريدٍ ما بين أهل الزمانِ

فاستحسن المنصور ارتجاله، وقال لابن العريف: ما لك فائدة في مناقضة مَنْ هذا ارتجالُه...»(165).

2) ويكتفي حاجي خليفة في تعريفه بالفصوص بالإشارة إلى أنه لأبي العلاء صاعد، وأنه نحا فيه نحو القالي في أماليه «لأنه قيل له جميع ما فيه لا صحة له»(166).

وفي موضع آخر من كشف الظنون يشير المؤلف إلى شرح(167) على كتاب الفصوص لابن النفيس المصري.

3) وفي الحديث عن وفيات سنة 417هـ، يشير ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب إلى وفاة صاعد(168)، وينقل ملخصا ما ورد في المصادر السابقة من أخباره، دون أن يضيف جديدا.

---

165) نفح الطيب 1/582.
166) كشف الظنون 2/1261.
167) كشف الظنون 4/424.
168) شذرات الذهب 3/206.



- IX -

ويمكن أن نلحق بهذه المصادر مؤلفين متأخرين هما: روضات الجنان، للخوانساري المتوفى سنة 1285هـ والمكتبة العربية الصقلية المطبوع سنة 1857م.

1) يضيف الخوانساري في ترجمته لصاعد صفة الشيخ التي كان أبو العلاء المعري يوصف بها، وينقل بعض ما ورد في المصادر المتقدمة، وينقل عن السيوطي ما نقله عن ابن مكتوم(169).

وفي عرض الحديث عن بعض من سموا بابن السيد يشير إلى ابن مقلس الأندلسي «الذي هو من تلامذة صاعد البغدادي في اللغة»(170). كما ينقل عن ابن خلكان ـ عند حديثه عن ابن سيدة ـ إشارته إلى تلمذة هذا الأخير لأبي العلاء صاعد البغدادي(171).

2) وينقل ميخائيل أماري بعض ما ورد في ترجمة صاعد في وفيات الأعيان، ومختصر إنباه الرواة، والوافي بالوفيات، ضمن ما نقله من هذه المصادر في مؤلف المكتبة العربية بصقلية(172).

- X -

وترد الإشارة إلى صاعد وفصوصه في كثير من المراجع الحديثة العربية والأجنبية، ومن بين هذه الإشارات أنبه على ما

169) روضات الجنان 4/131.
170) روضات الجنان 1/250.
171) روضات الجنان 5/5/119.
172) انظر ص: 625، 644، 659.



ورد عند كل من الندوي[173]، وبلاشير[174]، وبروكلمان[175]، وبلانثيا[176]، وأحمد أمين[177]، والزركلي[178]، وكحالة[179]، وإحسان عباس[180]، وألبير مطلق[181]، ومحمود علي مكي[182]، وعبد العلي الودغيري[183].

وقد نبه الندوي في وقت مبكر إلى وجود نسخة من كتاب الفصوص لصاعد بخزانة القرويين: «قلت: كتاب جيد في الأدب، نسخة نادرة في مكتبة جامع القرويين بفاس»[184].

---

173) تذكرة النوادر ص: 129، 130.

174) صاعد البغدادي، مجلة هسبريس، العدد 1، الجزء 10، 1930. (بالفرنسية).

175) تاريخ الأدب العربي 3/149.

176) تاريخ الفكر الأندلسي ص: 66، 68.

177) ظهر الإسلام ص: 22، 128، 129، 229.

178) الأعلام 3/271.

179) معجم المؤلفين 4/318.

180) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ص: 60، 61.

181) الحركة اللغوية في الأندلس 94، 102.

182) مقدمة تحقيق المقتبس لابن حيان ص: 22، 23، 57، 58.

183) أبو علي القالي ص: 273، 276، 353، 354 وغيرها.

184) تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ص: 130.



ثانيا : ترتيب نقدي :

نهدف من وراء هذا التصنيف، إلى المقارنة بين المعلومات التي تقدمها المصادر عن صاعد، وفصوصه من حيث الأهمية. وحتى تصبح هذه المقارنة ممكنة، آثرت وضع محاور تتم من خلالها المقارنة، فقسمت هذه المصادر إلى:

I ـ مصادر تؤرخ لحياة صاعد.
II ـ مصادر متنوعة المعلومات.
III ـ مصاد رتتحدث عن غير الفصوص من مؤلفات صاعد وآثاره.
IV ـ مصادر تؤرخ للفصوص.
V ـ مراجع حديثة.

I ـ مصادر تؤرخ لحياة صاعد :

ويقصد بهذه المصادر كل المؤلفات التي ورد فيها ذكر صاعد، دون تمييز بين ما كان ترجمة أو إشارة عابرة. وميزت في ترتيب هذه المصادر بين ما أفادنا في معرفة بعض ما يتعلق بالمرحلة المشرقية من حياته، وما أفادنا في معرفة المرحلة الثانية من حياته أي مرحلة السفر، وما أفادنا في معرفة المرحلة الثالثة من حياته أي المرحلة الأندلسية، وما أفادنا في معرفة المرحلة الأخيرة من حياته أي المرحلة الصقلية.

1) المرحلة المشرقية :

رغم كثرة الذين ترجموا لصاعد أو تحدثوا عنه، من القدماء والمعاصرين، ظلت أخبار هذه المرحلة من حياة هذا الأديب غير معروفة. ولعل هذا الترتيب الذي أنجزه، يكون سبيلا إلى الوقوف



على بعض النصوص التي تكشف عن مرحلة من حياة صاعد، سكتت عنها جل المصادر.

أ) أهم هذه المصادر كتاب الفصوص نفسه، فالمؤلف يتضمن إشارات متعددة إلى بعض من اتصل بهم صاعد في المشرق. ولعل أهمية كتاب لسان الميزان قبل تحقيق كتاب الفصوص، كانت تتجلى في نقل مقدمة الفصوص التي تحدث فيها صاعد عن أسباب خروجه من بغداد، ونقل الفص الذي ذكر فيه صاعد بعض ما جرى له مع أحد اللغويين المشارقة في مجلس من مجالس عضد الدولة البويهي.

ب) يماثل الفصوص أهمية، من حيث النظر إلى أخبار صاعد في المشرق ثلاثة نصوص مشرقية، اثنان منهما للتوحيدي، والثالث لأبي القاسم الأصفهاني.

- في النص الأول يشير التوحيدي الذي كان معاصرا لصاعد، إلى أن أبا العلاء صاعدا كان من بين ذوي الفضل الذين قدمهم الوزير المهلبي المتوفى سنة 352هـ، ونوه بهم ونبه على فضلهم(185).

- ويرد النص الثاني في المقابسات، وهو يفيد أن دروس المنطق التي كان أبو حيان التوحيدي يحضرها لم تكن غريبة عن أبي العلاء صاعد، فالتوحيدي يذكر في إحدى المقابسات، وهو يتحدث عن درس في المنطق حضره سنة361هـ أن صاعدا دخل على الحاضرين فانقطع الكلام قبل أن ينهي يحيى بن عدي درسه(186).

- أما النص الثالث فيرد في إيضاح المشكل الذي ألفه أبو القاسم الأصفهاني لبهاء الدولة البويهي. وتبدو أهمية هذا النص

185) الإمتاع والمؤانسة 3/212، 213.

186) المقابسات ص: 156، 157.



في إشارته إلى أن صاعدا كان جالسا خلف الوزير المهلبي، قريبا من الشاعر أبي الطيب المتنبي، في المجلس الذي وفد فيه هذا الشاعر[187] على الوزير، وهو المجلس الذي ضم أيضا أبا الفرج الأصفهاني وغيره من ندماء المهلبي، كابن الحجاج وابن سكرة.

ـ بعد الإمتاع، والمقابسات، والإيضاح، نعثر على نص بالغ الأهمية يكمل النصوص السابقة، ويوضح بعض ما غمض فيها، من حيث النظر إلى طبيعة الوسط الأدبي الذي ارتبط به صاعد قبل أن ينتقل إلى الأندلس. وقد ورد هذا النص في فهرسة ابن خير، عند حديث المؤلف عن سنده في رواية شعر ابن الحجاج وابن سكرة:

«شعر ابن حجاج البغدادي في ستة أجزاء، حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر رحمه الله، عن الوزير أبي بكر محمد بن هشام المصحفي قال: سمعته على أبي العلاء صاعد اللغوي، عن قائله ابن حجاج.

شعر ابن سكرة الهاشمي حدثني به الشيخ أبو عبد الله... عن الوزير أبي بكر... عن أبي العلاء صاعد اللغوي عن ابن سكرة.

وكان ابن سكرة هذا وابن حجاج المتقدم الذكر صاحبين لصاعد اللغوي ببغداد أيام حداثتهما»[188]. وتتجلى أهمية النص، فضلا عن إشارته إلى نقل صاعد لشعر ابن حجاج وابن سكرة إلى الأندلس سماعا عنهما، في دلالته الصريحة على صحبة صاعد لزعيمي شعر المجون في المشرق في القرن الرابع، وهي دلالة قد تفيد الباحث في تفسير الموقف الذي وقفه أدباء الأندلس من صاعد.

ـ بعد هذه المصادر تأتي في آخر هذا الترتيب ـــ من حيث أهمية الأخبار المعرفة بالمرحلة المشرقية من حياة صاعد ـ كل

---

187) نقلا عن خزانة الأدب البغدادي 1/385.

188) فهرسة ابن خير ص: 406.



المصادر المشرقية والمغربية الأندلسية التي اكتفت عند الترجمة لصاعد بالإشارة إلى أصله وانتقاله إلى بغداد، وأخذه بالمشرق عن السيرافي والفارسي، ثم الخطابي والقطيعي عند التوسع.

2) مرحلة السفر، أو المرحلة المصرية :

وهي مرحلة سكتت عنها كل المصادر التي ترجمت لصاعد، باستثناء مصدرين هما فهرسة ابن خير ونفح الطيب.

أ) أما الفهرسة، فتكاد تنفرد بأهميتها في الكشف عن بعض أخبار صاعد، في المرحلة التي توسطت خروجه من بغداد، ووصوله إلى الأندلس.

ففي سياق الحديث عن سنده في رواية كتاب المداخل لأبي عمر المطرز الزاهد، يشير ابن خير في السند إلى الوزير أبي بكر المصحفي الذي ذكر أنه كان يقرأ هذا الكتاب على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضر، مشيرا إلى أن صاعدا كان قد «قرأ المداخل بمصر على الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل... المعروف بابن حنزابة، عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز قراءة عليه ببغداد، وكان ابن حنزابة لا يفارق صاعدا يسامره»(189). ولدلالة النص على استقرار صاعد بمصر زمنا كفاه لقراءة كتاب المداخل، وإشباع نهم الوزير إلى السمر، آثرت تسمية هذه المرحلة بالمرحلة المصرية.

ب) ورغم كون النفح، بعد الفهرسة، المصدر الثاني الذي يرد فيه ذكر مصر عند الحديث عن صاعد، لم تتعد إشارة المقري قوله: «وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر»(190). والعبارة كافية للدلالة

---

189) الفهرسة ص: 358، 359.

190) نفح الطيب 4/96.



علـــى أن وصــول صـــاعــد إلى الأندلــس كـــان من مصــر لا من بغــداد.

ج) ولا تتحــدث باقي المصـــادر التي اطلعت عليها، عن حلــول صاعــد بمصر قبل مجيئــه إلى الأندلس. إلا أن قصــة الأبيات التي استنسخها ابن العريف بخط مصــري، وزعم أنه سمعها من بعض البغداديـــيــن بمصــر، قبـــل أن ينســبـــهـــا صاعـــد إلى نفســـه، تــوحي بأن المرحلــة المصريــة مـــن حـيـــاة صاعــد لم تكـــن مجهــولة مــن لـــدن الأنـــدلـــسـيـيـــن، وإن كانـــت المـصــادر قــد سكــتــت عنها.

3) المرحلة الأندلسية :

هي المرحلــة التي اهتمت بها المصـــادر التي ترجمت لصـــاعد. وإذ كانت الأخبـــار المتعلقة بهذه المرحلة تتــردد مشيرة إلى نفس الوقائع والأحــداث، فقد آثرت أن أرتب مصادر هذه المرحلـــة نقديا الترتيب الآتي:

أ) مصادر تكتسب أهميتها من معاصرتها لصاعد.

ب) مصادر تكتسـي أهميتها من وفرة معلوماتها.

أ) يراعي التــرتيب النقدي هنـــا أهمية المصـــادر من حيث النظر إلى معاصرة الروايات لصاعــد، واتصال أصحابها به، أو النظر إلى اتصـــال السنــد بين صـــاعــد ومن انتهت إليهم أخبـــاره عن طــريق الروايــة المتصلة السند. ويتجلى ذلك من خلال التمييــز بين أربعة أنواع من الروايات:

191) نقل ابن الكتاني، الذي كان يضيف صاعدا بمنزله بسرقسطة، بعض أشعار هذا الأديب في كتاب التشبيهات، وسأتعرض لذلك.



ـ النوع الأول :

روايــات تعود إلى عصــر صــاعد، وهــي الروايــات التي اتصل أصحــابهــا بصاعـد عن طـريق الصــداقة أو التلمـذة، وأذكـر من ذلك(191):

- روايــات ابن حزم، الذي كــان أول اتصال لــه بعبـد الملك المظفـر مرتبطـا بالمجلس الــذي مدح فيــه صاعـد هذا الحــاجب، بقصيدة يهنئه فيها بعيــد الفطر سنة 396هــ، وهـي المنــاسبة التي أهدى فيها صاعد ابن حزم القصيدة، بعد أن كتبها له بخطه، عندما رآه يستحسنها ويصغي إليها وهي تنشد(192).

- روايات ابن حيان تلميذ صــاعد، الذي قرأ عليه الفصوص منفردا في داره سنة 399هــ(193).

- روايات تلميذه ابن سيــدة صاحب المخصص، الذي درس عليه مجموعة من المصنفات، ذكرها في أرجوزته(194).

ـ النوع الثاني :

روايات نقلت عمن عرف صاعدا أو تتلمذ له وأقصد:

- روايات البكري تلميذ ابن حيــان تلميذ صاعد، التي وردت في معجم ما استعجم، والتنبيه، والآلي.

— روايــــات الحميــدي التــي نقلهــا في الجـــذوة عن بعض مشايخه، وعن ابن حزم.

ـ النوع الثالث :

مصـــادر نقلت عن المصادر الســابقـة، أي عن الذين نقلـوا عن تلاميذ صاعد، أو عن أصدقائه، وهـي:

192) الجذوة 224.

193) الصلة 238.

194) انظر أرجوزته، وانظر الصلة ص: 417.



ـ الغنية، وترتيب المدارك للقاضي عياض، الذي ذكر(195) أن ابن عتاب تلميذ ابن حيان تلميذ صاعد، أجازه في كتاب الفصوص.

ـ الفهرسة لابن خير، الذي ذكر أن شيخه ابن عتاب المذكور سابقا، حدثه بالفصوص سماعا عن ابن حيان، وكتابة عنه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه(196)، وأن شيخه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر حدثه بكتاب المداخل في اللغة لأبي عمر الزاهد، سماعا عن الوزير أبي بكر المصحفي، الذي كان يقرأ المداخل على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضر(197). كما ذكر أنه ـ أي ابن خير ـ روى شعر ابن حجاج وابن سكرة عن شيخه ابن معمر، سماعا عن الوزير أبي بكر المصحفي، عن صاعد، عن ابن حجاج وابن سكرة. وعن الوزير المصحفي المذكور نقل الخبر الصريح الدلالة على صحبة صاعد لهذين الشاعرين الماجنين(198).

ـ بغية الملتمس للضبي، الذي نقل أخبار صاعد عن غير واحد، عن شريح، عن ابن حزم(199)، الذي يروي ما رآه أو ما أخبر به عن العاصمي مُناظِرٍ صاعدٍ أو عن غيره.

ـ أما النوع الرابع :

فيشمل كل المؤلفات الأخرى التي اكتفت بنقل أخبار صاعد، عن المصنفات المتداولة السابقة لها. وتظل أهميتها النسبية مقترنة بسبق بعضها زمنيا بالقياس إلى بعضها الآخر.

---

195) الغنية ص: 224.

196) الفهرسة ص: 325.

197) الفهرسة ص: 358.

198) فهرسة ابن خير 406.

199) بغية الملتمس 319، 323.



ب) وأما الترتيب النقدي للمصـادر التي نقلت أخبار صاعد في الأنـدلس، من حيث النظـر إلى وفـرة المعلـومات، فيضع أمـامنـا مصدرين اثنين:

الأول: الذخيرة، وتكتسب أهميتها، فضلا عن قربها النسبي من عصر صـاعد، من جمعهـا بين ما ورد في مختلف المصـادر التي تـرجمت لصـاحب الفصـوص، وأخبـار أخـرى لم تـرد في هـذه المصادر. وهـذا ما جعل الأخبـار التي نقلها ابن بسـام في القسم الذي خصصـه للترجمة لصـاعد، أو عند حـديثه عمن ارتبط بهم، تبدو وفيرة(200) وشبه جامعة.

والثاني: نفح الطيب، وهـو مصدر متأخـر بالقيـاس إلى معظم المصادر التي تـرجمت لصاعد، ورغم تأخره، استطـاع المقري أن يجمع من أخبار صاحب الفصوص كـمًّـا وفيرا(201)، شمل ما ورد في المصادر المتقدمة وما لم يرد.

4) المرحلة الصقلية :

تبدو كل المصـادر التي اطلعت عليها عديمة الأهمية، حين يتعلق الأمـر بالتـأريخ للمرحلـة الصقليـة من حيـاة صـاعـد. ولعل هـذا الغموض الذي يكتنف أخبار صاعد بصقلية، يعود إلى انقطاع هذه

---

200) امتدت تـرجمته لصـاعد من ص: 8 إلـى ص: 56 من المجلـد الأول من القسم الرابع، فضلا عن الأخبار الواردة عرضا في القسم الأول، المجلد الأول ص: 30، 71، 72، 128، 129، 130. والقسم الثاني م 1 ص: 27، 216. والقسم الثالث م 1، ص: 390.

201) شغلت ترجمـة صاعد في النفح حـوالي عشرين ص: 4/75 إلى 96 فضلا عن الأخبار الواردة عرضا في 1/400، 580 إلى 582، ثم 2/132، 172، 260، 598، 599.



الأخبار بعد رحيله إليها، وجهل المؤرخين بما آلت إليه أموره فيها. ويقوي هـذا الاحتمال اختلاف المصادر في تحـديد تاريخ وفـاته، رغم الضبط الـزمني الذي كشفت عنـه هذه المصـادر عند تنـاول أخبار المرحلة الأندلسية.

ولا نستبعد أن تكون بعض أخبار صـاعد في صقلية قد وردت في المصادر التي تحـدثت عن العلماء الذين نزلـوا بصقلية، إلا أن ذلك يتطلب بحثا مستقلا، لا يتسع له هذا المدخل.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى أن أبا تمام غالب بن عبد الله بن عامل القيسي، المعـروف بالقطيني الميورقـي، قد روى عن صاعـد في صقلية قبل أن يكمل رحلته إلى المشرق(202).

II ـ مصادر متنوعة المعلومات :

إذا نحن تجاوزنا هذا التصنيف الـذي ينظر إلى أهمية المصادر من حيث النظـر إلى أهيمـة مـا تضمنته مـن أخبار عمـومـا، دون اعتبار المراحل المذكورة، أمكن التمييز بين صنفين من المصادر:

1) مصـادر تفـرَّد بعضُهـا بأخبـارٍ لم تـرِدْ فـي غيـره من المصادر.

2) مصادر تشترك في نقل نفس الأخبار.

1) لكون أهمية مصادر هذا النوع واحدة، لتفرد كل مصدر منها بما لم يرد في الآخر، راعيت في تصنيفها الترتيب الزمني، دون أن يكون لهذا الترتيب أي اعتبار في المفـاضلة بينها، إذ هي متساوية الأهمية:

---

202) الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني ص: 517.



أ) **الإمتاع والمؤانسة:** وقد تفرد بالإشـارة إلى أن صاعدا كان ممن قربهم الوزير المهلبي، المتوفى سنة 352هـ، وهي إشارة تفيد أن صاعدا كان قـد حصل من العلم والمعرفة قبل 352هـ ما جعله أهلا لحضور مجالس هذا الوزير، فضلا عن دلالة النص دلالة غير مباشرة على أن أبا حيان التوحيدي كـان يعرف صاعدا معرفة من عاشره.

ب) **المقابسات** : وقـد تفرد بـالإشارة إلى أن حلقـات دروس المنطق التي كـان يحيى بن عـدي يلقيها سنـة 361هـ، وكـان أبو حيان التوحيدي يحضرها، لم تكن غريبة عن صاعد.

ج) **إيضاح المشكل:** وقد تفـرد بالإشـارة إلى أن صاعـدا كان جالسا بالقـرب من أبي الطيب المتنبي وأبي الفرج الأصفهاني في المجلس الذي وفد فيه أبو الطيب على الوزير المهلبي. ولم يرد في المصادر الأخرى ما يفيد أن صـاعدا وأبا الطيب المتنبي التقيا في مجلس واحد، ولا مـا يفيد أن صاعـدا كان يحضـر نفس المجالس التي كان شيخه أبو الفرج صاحب الأغاني يحضرها.

د) **الذخيرة:** وتفردت بإيـراد بعض رسائله كما تفـردت بإيراد قصيـدة تتضمن الإشارة إلى سنـه عندمـا نظمها، وهي القصيـدة التي أجاب بها صاعد صديقـه الوزير ابن برد عن قصيدة أرسلها إليه.

هـ) **فهرسة ابن خير:** وقد تفـردت بعدة أخبـار هي الإشارة الصريحة إلى أن صاعدا استقر بمصـر فترة مكنته من قراءة كتاب المداخل على الوزيـر ابن حنزابة ومن إمتاع هذا الـوزير بأسماره، ثم الإشـارة الصريحـة إلى أن صاعـدا هـو الذي أدخل شعـر ابن الحجـاج وابن سكرة زعيمي شعـر المجـون في القرن الـرابع إلى الأندلس سمـاعا عنهما. والإشـارة الصريحـة إلى علاقة الصـداقة



والصحبة التي ربطت صاعدا بهذين الشاعرين الماجنين، ثم الإشارة الصريحة إلى أن صاعدا كان يدرس شعر ابن الحجاج وابن سكرة الماجن الغريب عن البيئة الأندلسية، في سرقسطة في وسط علمي ضيق.

و) **نفح الطيب:** وقد تفرد نقلا عن ابن سعيد، بإيراد خبر المجلس الذي ناقض فيه صاعد خصمه ابن العريف النحوي، أمام المنصور العامري بقصيدة ارتجلها، متحديا خصمه الذي كان قد هيأ شعره من قبل، مما جعل ابن أبي عامر يقول لابن العريف بعد استحسانه شعر صاعد: «ما لك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله»(203).

2) تأتي بعد المصادر السابقة كل المصنفات التي تناقلت نفس الأخبار المتعلقة بصاعد، مع تفاوت نسبي من حيث وفرة هذه الأخبار أو قلتها، ومن حيث اطرادها أو ورودها في بعض هذه المصادر دون بعضها الآخر.

III ـ مصادر تتحدث عن غير الفصوص من مؤلفات صاعد وآثاره:

نفرق هنا بين المصادر التي اهتمت بآثاره الشعرية، والمصادر التي اهتمت بغير آثاره الشعرية.

1) مصادر اهتمت بآثاره الشعرية أو سكتت عنها: ونميز في ترتيبها بين المصادر التي نقلت أشعاره دون أخباره، والمصادر التي نقلت أشعاره وأخباره، والمصادر التي سكتت عن شعره.

أ) مصادر نقلت شعره دون أخباره: وهي مصادر قليلة بالقياس إلى ما اهتم بأخباره منها. ومما استطعت الوقوف عليه:

---

203) نفح الطيب 1/582.



- كتـــاب التشبيهات لابن الكتـاني، وقد أورد فيـه المؤلف، في مواضع متفرقة(204)، خمسة وعشرين بيتا مختلفة أغراضها، موزعة على تسع قطع. وتعود أهمية ما نقله ابن الكتاني من شعر صاعد، إلى طبيعة العلاقة التي جمعت المؤلف بالوافد المشرقي، فابن خير يذكـر أن صاعـدا كان ينزل عنـد ابن الكتاني بمنزلـه عند حلـوله بسرقسطة.

- معجم السلفي: نسب المؤلف فيه إلى صـاعد ثلاثة أبيات في الغزل هي (كامل):

1 - ومُـــهـفـهـــفٍ أبهى من القمرِ
قمـــر الفـــؤاد بفـــاتن النظـــر

2 - خـــالسْـتُـه تـفـاحَ وجْنـتـهِ
فأخـــذْتُهـــا منـــه على غَـــرَرِ

3 - فأخافـنـي قومٌ فـقـلـــتُ لهم
لا قطعَ فـي ثَمـــرٍ ولا كَثَـــرِ(205)

ولم تتقدم الإشـارة إلى هذه الأبيات في المصـادر الأولى، وقد وردت في إنباه الرواة والوافي بالوفيات، منسوبة أيضا إلى صاعد، رغم كـون صاعـد قـد صرح في كتـابـه الفصوص بنسبتهـا إلى الوزير ابن يوسف.

- نزهــة الأنام في محاسن الشام للبـدري: أورد المؤلـف فيـه لصاعـد أبياتا في وصف المنثـور ووصف تفاحـة، وهي أبيات لم ترد في غير هذا المصدر.

ب) مصادر نقلت أخباره وأشعاره، ومعظمها أندلسي، وهي:

- المقتبـــس لابن حيـان الذي كانت روايـاته أصـلا لكثير من الأخبار التي نقلتها المصادر المتضمنة لأخبار مؤلف الفصوص.

204) انظر الصفحات: 100، 135، 146، 173، 195، 196، 218، 289.

205) معجم السلفي (تراجم أندلسية من معجم السلفي) ص: 144، 145.



ـ جذوة المقتبس: حيث أورد الحميدي ستة أبيات من القصيدة البائية التي مدح بها صاعد الحاجب عبد الملك المظفر، والأحد عشر بيتا التي أرسلها إلى المنصور مع الأيل الذي أهداه إليه.

ـ الذخيرة: وقد تضمنت حوالي مائة بيت موزعة على قطع مختلفة الطول.

ـ بغية الملتمس: أورد الضبي في كتابه هذا نفس الأبيات التي وردت في جذوة المقتبس.

ـ بدائع البدائه: أورد الأزدي فيه لصاعد ست قطع، تجاوز مجموع أبياتها عشرين بيتا، ورد معظمها في الذخيرة.

ـ شرح مقامات الحريري: أورد الشريشي بعضا من الأشعار التي وردت في الذخيرة.

ـ المعجب: أورد المراكشي أبياتا وردت في المصادر السابقة.

ـ إنباه الرواة: وقد أورد فيه القفطي سبعة عشر بيتا وردت في المصادر السابقة، وثلاثة أبيات منسوبة إلى صاعد، سبق السلفي إلى إيرادها.

ـ معجم الأدباء: حيث نقل الحموي سبعة أبيات مما ورد في المصادر المتقدمة.

ـ الحلة السيراء: وقد نقل فيها ابن الأبار ستة أبيات، من سبعة أبيات أوردها ابن بسام في الذخيرة.

ـ البيان المغرب: وقد أورد فيه ابن عذاري قطعا نوارية بلغت أبياتها ستة وعشرين بيتا، وبيتا واحدا من البيتين اللذين قالهما صاعد في حادثة مقتل الوزير ابن القطاع، وثمانية أبيات من قصيدة مدح بها صاعد المنصور، لم ترد في ما تقدم من المصادر.

ـ الوافي بالوفيات: وينقل فيه الصفدي خمسة نماذج تضمنت خمسة عشر بيتا، ثلاثة أبيات منها لم ترد في المصادر المذكورة.



ـ نفح الطيب: حيث يورد المقري عدة قطع بلغت أبياتها اثنين وستين بيتا، منها قصيدة نقلها عن ابن سعيد لم ترد في المصادر المذكورة.

ج) مصادر سكتت عن شعره مطلقا، أو اكتفت بإيراد البيت الذي رد فيه صاعد على تعريض ابن العريف بسقوط الفصوص في النهر. ومن هذه المصادر التي سكتت عن شعره أذكر: الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، وإيضاح المشكل، ومعجم ما استعجم، والتنبيه، واللآلي، وفهرس ابن عطية، والغنية، وترتيب المدارك، وفهرسة ابن خير، والصلة، ووفيات الأعيان، والعبر، وميزان الاعتدال، والمغني في الضعفاء، والبداية والنهاية، والبلغة، ولسان الميزان، وروضة الإعلام...

2) مصادر اهتمت بآثاره غير الشعرية: ونميز فيها بين المصادر التي نقلت رسائله، والمصادر التي تحدثت عن أدبه القصصي.

أ) مصادر نقلت رسائله: لم تول المصادر التي ترجمت لصاعد رسائله عناية كبيرة، فمن بين كل هذه المصادر لا ترد الإشارة إلى رسائله إلا في مصدر واحد هو الذخيرة، حيث يورد ابن بسام فصولا من ثلاث رسائل لصاعد، الأولى، كتبها لما نكب الوزير ابن مسلمة، إلى الوزير ابن الدب ليشفع للوزير المنكوب عند الخليفة سليمان(206). والثانية، كتبها إلى مجاهد العامري يصف ظهوره على خيران، وأسره لجماعة من الصقلب(207). والثالثة، كتبها إلى علي بن وداعة، يستغيث به لما ساءت حاله وقل ماله أيام الفتنة(208).

---

206) الذخيرة ـ القسم الرابع ـ 1/10، 11.

207) الذخيرة ـ القسم الرابع ـ 1/11، 12.

208) الذخيرة ـ القسم الرابع ـ 1/53.



ب) مصادر تحدثت عن أدبه القصصي: رغم خصوصية الشخصية الأدبية لصاعد، الموزعة بين صورة العالم والنديم، لم تهتم المصادر التي ترجمت له، بما ينتمي إلى أدب السمر من آثاره. فالمصادر التي أشارت إلى هذا النوع من تآليفه قليلة. ومن بين هذه المصادر القليلة نميز بين ما اكتسب أهميته من الإشارة إلى هذه المؤلفات والإخبار عن تداولها، وما اكتفى بذكرها، دون الإشارة إلى تداولها. فيما يخص النوع الأول، نجد المعجب للمراكشي ومعجم الأدباء للحموي. فالمراكشي يشير إلى أن صاعدا ألف للمنصور كتبا، منها كتاب على نحو كتاب الخزرجي «سماه كتاب الهجفجف .. وكتاب آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء»(209). لكنه يضيف إشارة ثانية تفيد أن كتاب الجواس كان في عصر المراكشي ما يزال متداولا: «وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد»(210).

أما ياقوت الحموي فقد اكتفى في معجمه بالإشارة إلى كتاب الجواس وحده. ووصف هذا الكتاب بأنه «كتاب لطيف ممتع جدا، انخرم في الفتن التي كانت بالأندلس، فسقطت منه أوراق لم توجد بعد»(211). والعبارة رغم شبهها بعبارة المراكشي تفيد أن ياقوتا الأديب المشرقي الذي عاصر المراكشي، كان يعرف كتاب الجواس دون كتاب الهجفجف، معرفة من رأى الكتاب. وفي هذا ما يطمئننا إلى أن أدب صاعد القصصي، متمثلا في كتاب الجواس لم يكن غريبا عن المشارقة.

---

209) المعجب ص: 33.

210) المعجب ص: 33.

211) معجم الأدباء 11/284.



ـ وأما المصادر التي اكتفت بالإشارة إلى تأليف كتابي الهجفجف والجواس، دون الإخبار عن تداولهما، فهي جذوة المقتبس، وبغية الملتمس، وإنباه الرواة. واتفقت هذه الكتب الثلاثة على أن المنصور كان مشغوفا بأسمار صاعد، مع وجود بعض التفاوت الظاهر في صياغة الخبر. فبينما ترد عند الحميدي والضبي، عند الحديث عما ألفه صاعد للمنصور، نفس العبارة: «ومما ألف له كتاب الفصوص... وكتابا آخر سماه كتاب الهجفجف... وكتابا آخر في معناه سماه كتاب الجواس... قال لي أبو محمد علي بن أحمد: وهو كتاب مليح جدا. وكان المنصور أبو عامر كثير الشغف بكتاب الجواس، حتى رتب له من يخرجه أمامه في كل ليلة»(212)، نجد القفطي يقول: «وكان يصنف كتبا في أخبار العشاق ويسمي أسماء غريبة لا أصل لها، وينسب إليها كلاما منظوما ومنثورا، يرصعها من قوله وقول غيره، فمنها كتاب الهجفجف وكتاب الجواس، وكان المنصور مغرما بكتاب الجواس، يقرأ عليه كل ليلة شيء منه»(213). وهذه العبارة، إذا لم تكن إشارة إلى غرابة الأسماء الواردة في عنواني الكتابين، ترجح ما ذهبنا إليه من أن أدب صاعد القصصي كان معروفا بالمشرق.

- IV-

مصادر تؤرخ للفصوص: تنوعت المعلومات التي قدمتها المصادر المتحدثة عن الفصوص. ويمكن أن نميز في تصنيف هذه المعلومات بين ما تعلق بمناسبة تأليف الفصوص وإملائه وروايته، وما تعلق بمهاجمة الفصوص أو الدفاع عنه، وما تعلق

212) الجذوة ص: 223، وبغية الملتمس ص: 319، 320.

213) إنباه الرواة 2/86.



بوصفه وصف اطلاع أو نقل، أو وصفا يدل على جهل الواصف بمضمون الكتاب.

1) مناسبة تأليفه: نرتب المصادر التي تحدثت عن مناسبة تأليف الفصوص حسب أهمية المعلومات التي قدمتها، الترتيب الآتي:

أ) ما يشير بتدقيق إلى مناسبة تأليفه: لعل ابن بسام ـ حسب ما اطلعت عليه ـ ينفرد بإشارة يفهم منها أن المنصور كان يرغب في أن يحظى بعالم كأبي علي القالي يؤلف له كتابا كالأمالي يرتبط به اسمه كما ارتبط اسم الخليفة الحكم بالقالي ومؤلفه، وأن صاعدا كان يدرك أن نيل الحظوة عند المنصور مرهون بتأليف مصنف يتحدى به القالي ومؤلفه وتلامذته. فبعد الحديث عن تفوق صاعد على ابن العريف، أمام المنصور، في رواية الأخبار وفك المعمى، يقول ابن بسام: «فازداد المنصور عجبا، ثم أراه كتاب النوادر لأبي علي فقال: إذا أراد المنصور أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته كتابا أرفع منه قدرا وأجل خطرا، لا أدخل فيه خبرا مما أدخله أبو علي. فأذن له المنصور في ذلك»(214). ولم يتردد هذا التدقيق في الحديث عن مناسبة تأليف الفصوص في غير الذخيرة من المصادر. أما ما ورد في نفح الطيب فقد كان تكرارا لكلام ابن بسام.

ب) مصادر تكتفي بالإشارة إلى أنه ألف الفصوص للمنصور: ومنها الجذوة وبغية الملتمس وفهرسة ابن خير والصلة، والمعجب وإنباه الرواة ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، والوافي بالوفيات، والبداية والنهاية، والبلغة. فهذه المصادر كلها، اكتفت بالإشارة المقتضبة إلى أن صاعدا ألف كتاب الفصوص للمنصور، وإن كانت هذه المصادر، عدا فهرسة ابن خير والصلة، قد قيدت العبارة

---

214) الذخيرة ـ القسم الرابع ـ 1/15.



بالإشارة إلى أن صاعدا نحا في فصوصه منحى القالي في نوادره(215) أو أماليه(216).

ج) مصادر لم تهتم بالحديث عن مناسبة تأليف الفصوص: وهي التشبيهات وبدائع البدائه والبيان المغرب، وميزان الاعتدال، والعبر في خبر من غبر والمغني في الضعفاء، وغيرها من المصادر التي تعرضت لصاعد.

2) إملاء الفصوص وروايته: هذا التمييز بين المصادر التي تحدثت عن إملاء الفصوص والمصادر التي تحدثت عن روايته، تمييز بين المعلومات التي تكشف عن الآثار التي أحدثها الفصوص في فترة تأليفه، والآثار التي تركها خلال مختلف المراحل الزمنية اللاحقة.

أ) إملاء الفصوص: رغم شهرة هذا الكتاب وتعدد المصادر التي ذكرته نلاحظ أن المصادر التي تحدثت عن إملاء صاعد لمؤلفه هذا جد قليلة. فالحديث عن هذا الإملاء لم يرد حسب ما استطعت التوصل إليه إلا عند ابن حيان وابن بسام.

- أما المعلومات التي أوردها ابن حيان عن إملاء كتاب الفصوص فتعد أهم مما أورده ابن بسام، لدقتها وصراحة دلالتها. فابن حيان الذي تتلمذ لصاعد يفرق في الخبر الذي ينقله عن إملاء الفصوص تفريقا واضحا بين مرحلة تأليف الكتاب التي استمرت من ربيع الأول من سنة 385هـ إلى رمضان من نفس السنة، ومرحلة إملائه على الناس التي بدأت بعد أن تم التأليف، وأمره المنصور الذي أثابه عليه بمبلغ كبير، إعجابا به، بأن يمليه على الناس في المسجد الجامع «قال ابن حيان: وجمع أبو العلاء

215) ورد ذكر النوادر في الجذوة وبغية الملتمس والمعجب وإنباه الرواة ومعجم الأدباء والبلغة.

216) ورد ذكر الأمالي في وفيات الأعيان والوافي بالوفيات والبداية والنهاية وروضات الجنات.



للمنصور محمد بن أبي عامر كتابا سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار. وكان ابتداؤه له في ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وأكمله في شهر رمضان من العام، وأثابه عليه، بخمسة آلاف درهم، في دفعة واحدة وأمره أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة»(217).

ـ وخلافا لما نجده عند ابن حيان، يورد ابن بسام خبرا يفتقر إلى الوضوح الذي يتضمنه خبر ابن حيان، ففي سياق الحديث عن تأليف الفصوص يقول ابن بسام: «... فقال(218): إذا أراد المنصور أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته كتابا أرفع منه(219) قدرا... فأذن له المنصور في ذلك وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بالفصوص، فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت...»(220).

والنص كما ذكرت من قبل، غير واضح الدلالة على علاقة مرحلة التأليف بمرحلة الإملاء، فقوله: «فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت»، وورود عبارة «جلس» بعد قوله: «فأذن له المنصور في ذلك»، يوحيان بأن صاعدا ألف الفصوص وهو يمليه بجامع مدينة الزاهرة، ويوهمان أن مرحلة التأليف هي نفسها مرحلة الإملاء. لكن تصريح صاعد بأن الإملاء سيكون على مقيدي خدمة المنصور، وكتاب دولته، يمكن أن يكون دليلا على أن إملاء التأليف كان على كتاب المنصور، وأن إملاء التدريس بالجامع، كان على أدباء الوقت. ويقوي هذا الاحتمال أن الواو في قوله

---

217) الصلة لابن بشكوال ص: 237، 238. وورد نفس الخبر عند القفطي مع خلاف جد يسير.

218) المقصود صاعد.

219) المقصود كتاب النوادر للقالي.

220) الذخيرة 4ـ1/15.



«وجلس»، يمكن أن تكون بمعنى «ثم». وإذا نحن استأنسنا بما ورد عند ابن حيان، وبعادة الأدباء في عرض بعض مصنفاتهم على من ألفت لهم من الحكام، قبل إذاعتها، أمكن الاطمئنان إلى أن ابن بسام يقصد بقوله: «فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت...» إكمال إملاء الفصوص في المرحلة الثانية أي مرحلة ما بعد إملاء التأليف الذي كان خاصا بالحاجب المنصور.

ب) روايات الفصوص: يبدو من خلال المعلومات التي تقدمها المصادر القديمة، أن عددا من العلماء الذين عاصروا صاعدا وحضروا المجالس التي أملى فيها فصوصه، كانوا ـ رغم الصورة المشوهة التي رسمها خصوم صاعد للكتاب ـ يروونه ويُرَوُّونه تلامذتهم. كما يتضح من نفس المعلومات أن هذا الكتاب ظل يُروى حتى عصر الحافظ ابن حجر، إن لم يكن قد روي بعد هذا العصر. ولكثرة المصادر التي تحدثت عن روايات الفصوص ـ بالقياس إلى قلة المصادر التي تحدثت عن إملائه، نرتب هذه المصادر(221) حسب أهميتها، مراعين وفرة المعلومات التي تقدمها، ثم قِدَمَ المصدر عند تكافؤ المعلومات:

ـ المقتبس لابن حيان: تعتبر الأخبار التي نقلها ابن حيان عن رواية الفصوص جد هامة، لعلاقة التلمذة التي ربطته بصاعد، ولكشفها بطريقة غير مباشرة عن الطرق التي سلكها تلامذة صاعد في رواية الفصوص. فابن حيان يورد في مقتبسه ما نفهم منه أنه سمع كتاب الفصوص يملى على الأدباء أو على التلاميذ في مجالس كان هو نفسه يحضرها: «قال حيان: أقول قد أنشدنا أبو

221) رغم تعدد المصادر التي نقلت بعض ما روي عن صاعد من روايات وردت في كتاب الفصوص، لم تنص بعض هذه المصادر على ورود الرواية في هذا الكتاب. لذا اقتصرت في هذا الترتيب النقدي على المصادر التي ذكرت كتاب الفصوص صراحة.



العلاء صاعد بن الحسن اللغوي في كتابه المعروف بالفصوص في معنى قول هذا الأعرابي...»(222). وإذا كان هذا النص يفيد أن ابن حيان أخذ الفصوص عن صاعد وهو يمليه في مجالسه العامة، فإن خبرا آخر يورده ابن حيان نفسه، يفيد أن صاحب المقتبس قوى روايته الأولى للفصوص بقراءته الكتاب على شيخه صاعد بمنزله منفردا، سنة 399هـ: «قال ابن حيان: وقرأته عليه منفردا في داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة»(223). وفي جمع ابن حيان هذا، بين رواية السماع من الشيخ، ورواية القراءة عليه ما يفيد أن التجريح الذي تعرض له صاعد وفصوصه بعد إملائه الكتاب في المجالس التي كان يجلسها بجامع الزاهرة، لم يمنع التلاميذ الذين فطنوا إلى سر هذا التجريح المفتعل، من أن يلازموا صاعدا لرواية الفصوص عنه منفردين.

- فهرسة ابن خير: يكتسي هذا المصدر أهميته أولا، من كونه يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الذين لم يصدقوا ما وصف به خصوم صاعد كتاب الفصوص، كانوا يجدون في الرواية المنفردة عنه أو عن تلامذته، ما يعوضهم عن مجالس الإملاء العامة، فابن حيان الذي قرأ الفصوص على صاعد منفردا، يُـرَوِّيه تلميذه ابن عتاب منفردا، ليُـرَوِّيه ابن عتاب هذا، بعد ذلك تلميذه ابن خير منفردا، كما يتضح من قول ابن خير متحدثا عن كتاب الفصوص: «حدثني به الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله، قال: أخبرني به الشيخ المؤرخ صاحب الشرطة أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، وكتب لي بذلك بخطه عن أبي العلاء صاعد مؤلفه، رحمه الله»(224). ويكتسي المصدر أهميته - ثانيا - من دلالته على كون ابن

222) المقتبس 3/14.

223) الصلة ص: 238.

224) فهرسة ابن خير ص: 326.

حيان الـذي أحكم رواية الفصـوص بجمعه بين روايـة السماع في مجلس الإمـلاء، ورواية العـرض على الشيخ بمنزلـه، قد قصـد - لإعجابـه بالفصـوص - إلى جـعل تلميذه ابن عتـاب يحكم رواية الفصـوص، وذلك بتأديتـه الفصـوص عن طـريقين(225): طـريق التحديث مشافهة، وطريق المناولة الخطية، وذلك ليمكن التلميذ من سلاحين يضمنان له التأدية الأمينة للفصوص، سلاح السماع الذي يجنبه زلل التحريف، وسلاح المناولة الذي يجنبه زلل النسيان.

- فهـرس ابن عطية: تعود أهمية هـذا المصدر إلى كونـه أيضا يجعلنا نطمئن إلى مـا ذهبنا إليه من أن ابن حيان كـان يقصد إلى جعل التلميـذ الذي يـروي عنـه كتاب الفصـوص، محكمـا لروايـة الكتاب وقادرا على نقلـه نقل رواية ودراية. فابن عطيـة يشير عند الحديث عن عبد الـرحمن بن محمد بن عتاب المذكـور سابقا، إلى أن ابن حيان أجازه في كتاب الفصوص لصاعد(226). والإجازة التي يتحدث عنها ابن عطية هنا، ليست إجازة المكاتبة التي تمكن التلميذ من أن يروي عن الشيخ دون أن يكون قد لقيه أو سمع منه، وإنما هي إجـازة الاختبـار التي تجعل الشيخ يطمئن إلى أن تلميـذه قـد حفظ ووعى مـا سمعـه منه تمـام الحفظ والـوعي(227). وبإضافة الإجازة إلى السماع والقراءة المنفردة، تصبح الطرق التي حمل بها الفصوص وأدي، ثلاثا.

- معجـم أصحـاب أبـي علي الصدفي لابن الأبـار القضاعي: يكتسب هذا المصـدر أهميته، من حيث النظر إلى المعلـومات التي يقدمها عن روايـات الفصوص، من إشارته شبـه الصريحة إلى أن الفصـوص كان يـؤدى بأكثـر من إسنـاد واحد. ودلالتـه على أن

---

225) إلا أن يكون قد قصد بأخبرني، أخبرني به عن طريق المناولة.

226) فهرس ابن عطية ص: 81.

227) انظر في معنى هذه الإجازة ما قاله ابن خير عن ابن عتاب: الفهرسة ص: 15، 16.



التلاميذ لم يكونوا يكتفون بتحمل الفصوص عن شيخ واحد، رغبة في توثيق روايته عن طريق المقابلة بين ما أخذ وروي عن أكثر من شيخ. ففي سياق الحديث عن ابن العريف الصنهاجي يقول المؤلف: «روى كتاب الفصوص لصاعد، عن أبي محمد الركلي عن أبي مروان بن حيان عنه، ويرويه أيضا عن أبي القاسم بن النخاس عن أبي مروان بن سراج عن ابن حيان، سمعه عليه مع ابنه عمر بن حيان، بقراءة مهاجر بن محمد بن حزم في شعبان سنة 444هـ عن صاعد» (228).

ويكتسي نفس المصدر أهمية ثانية تتجلى في إشارته إلى طريق رابع اعتمد في رواية الفصوص تأدية وتحملا، أقصد طريق العرض والقراءة على الشيخ بحضور السامعين خلافا للقراءة المنفردة التي أشار إليها ابن حيان: «... سمعه عليه مع ابنه عمر بن حيان بقراءة مهاجر بن حزم...» (229). وفي هذه الإشارة إلى القراءة بحضور الجماعة ما يفيد أن مجالس إملاء الفصوص كانت ما تزال تعقد.

ـ لسان الميزان لابن حجر: رغم تأخر هذا المصدر المشرقي عما تقدم، تبدو المعلومات التي يقدمها عن روايات الفصوص هامة، لمعرفة الحافظ ابن حجر بالكتاب معرفة دراية تعود إلى مطالعته له مطالعة نقد وتمحيص، ولإشارته إلى رواية أخرى للفصوص لم تتقدم ـ حسب ما توصلت إليه ـ الإشارة إليها في المصادر التي تحدثت عن رواية الفصوص، وأقصد بذلك رواية أبي محمد بن حزم تلميذ صاعد، التي قرنها ابن حجر برواية ابن حيان وروايات أخرى لم يذكر أصحابها: «وروى عنه من القدماء أبو محمد بن حزم وأبو مروان بن حيان وغيرهما» (230).

228) معجم أصحاب علي الصدفي ص: 16.

229) معجم أصحاب علي الصدفي ص: 16.

230) لسان الميزان 3/163.



ـ الصلة لابن بشكوال: ومـا ورد فيها عن إجازة ابن حيان لأبي محمد عبد الرحمان بن عتاب في الفصوص(231)، يؤكد ما ورد في فهرس ابن عطية عن نفس الإجازة.

ـ الغنية للقـاضـي عياض: وترد فيها الإشـارة إلى أن ابن عتاب قد أجاز القاضي عياضا في كتاب الفصوص(232).

ـ وفيات الأعيان لابن خلكـان: ويعيد الإشارة إلى أن ابن حيان أخذ عن صاعد كتابه المسمى بالفصوص.

3) مصـادر تهاجم الفصـوص أو تدافع عنـه، «القيمة العلميـة للفصـوص»: كان من آثـار تهمة الكـذب التي وصف بهـا صاعـد وفصوصه، أن اختلفت مواقف الأدبـاء من كتابه. وحملت المصادر مظاهر هذه المواقف المختلفة من الفصوص، فمال بعضها إلى نقل مـا يمكن حملـه على أنـه تقليل من شأن الكتـاب، بينمـا تضمنت مصادر أخـرى ما يعتبر دفاعـا عن هذا المصنف الذي تحـدى به صاعد أبا علي القالي وتلامـذته. ولاختلاف هذه المواقف من حيث حدة المهاجمة أو منطق الدفاع، نرتب هذه المصادر الترتيب الآتي:

أ) مصادر تنقل ما يمكن اعتباره مهاجمة شبه صريحة للكتاب: رغم شهـرة تهمة الكذب التـي اتهم بها صـاعد، لا تبـدو المصـادر التي تهاجم أو تنقل ما يجـوز حمله على أنه مهاجمـة، كثيرة. وما عثرت عليه لا يتجاوز المصدرين الآتيين:

ـ كتاب في الرد على صاعـد بن الحسن اللغوي البـغـدادي في مناكيـر كتاب النـوادر والغريب المسمـى بالفصوص لأبـي عثمان سعيد بن عثمـان المعروف بـابن القزاز(233)، الـذي كـان من أجل أصحـاب أبي علي القالي. وإذا كـان ابن بشكـوال قد ذكـر أن ابن

231) الصلة ص: 348، 349.

232) الغنية ص: 224.

233) الصلة ص: 209، 210.



القزاز هذا قد أكثر التحامل في كتابه على أبي العلاء صاعد، فإن في تلمذته وإخلاصه لشيخه القالي ما يفسر هذا التحامل.

- نفح الطيب للمقري: وينقل فيه المؤلف بالمعنى كلاما ينسبه كله إلى ابن بسام - رغم أن ابن بسام نقل بعضه عن ابن حيان - دون أن ينقل كل الكلام الذي ضعف به ابن بسام الخبر القادح في صاعد وفصوصه وكشف من خلاله عن موقفه الخاص من الفصوص، وإن كان قد نقل بعضا من هذا الكلام، فإنه لا يحمل الدلالة المعدلة التي تضمنها القسم غير المنقول: «ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد... قال ابن بسام: ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر عزم المنصور على أن يقفي به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية، فما وجد عنده ما يرتضيه وأعرض عنه أهل العلم وقدحوا في علمه وعقله ودينه ولم يأخذوا عنه شيئا لقلة الثقة به، وكان ألف كتابا سماه كتاب الفصوص فدحضوه ورفضوه ونبذوه في النهر»(234). ورغم نقل المقري لهذا الخبر القادح في الفصوص، لا يظهر من كلامه وإشارته إلى الفصوص، أنه كان يتجاوز النقل إلى تبني هذا القدح، خلافا للموقف الرافض الذي وجدناه عند ابن القزاز.

ب) مصادر تنقل خبر تغريق الفصوص: وهو الخبر الذي يفيد أن المنصور بن أبي عامر أمر بتغريق كتاب الفصوص، وإلقائه في نهر قرطبة لما تبين له بعد الاختبار أن كل ما أتى به كان كذبا وتمويها.

وقد وردت أولى الإشارات إلى أمر المنصور بتغريق الفصوص - في المصادر التي وصلتنا - عند ابن بسام الذي يقول متحدثا عن صاعد: «... فقال له المنصور: أبعد الله مثلك، فما رأيت الذي

234) نفح الطيب 4/ 75، 76.



هو أكذب منك. وأمر بإخراجه وأن يقذف بكتاب الفصوص في النهر. وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر (سريع):

قد غاص في البحر كتاب الفصوصْ
وهكذا كل ثقيل يغوصْ

فجاوبه صاعد بقوله (سريع):

عاد إلى معدنه إنما
توجد في قعر البحار الفصوصْ» (235)

ورغم شهرة هذين البيتين والقصة التي ارتبطت بهما، لا نجد في المصادر الأندلسية(236) التي اهتمت بالترجمة لصاعد أثرا لخبر التغريق؛ وخلافا لذلك، نلاحظ أن هذا الخبر يرد في بعض المصادر المشرقية التي تعتبر بعيدة زمانا ومكانا عن عصر صاعد وبيئته الأندلسية. ومن هذه المصادر أذكر:

- وفيات الأعيان: وينقل فيه ابن خلكان نفس الخبر الذي نقله ابن بسام مع بعض الخلاف في الرواية: «ولما ظهر للمنصور كذبه في النقل وعدم تثبته، رمى كتاب الفصوص في النهر، لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له. فعمل فيه بعض شعراء عصره (سريع):

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد (سريع):

عاد إلى عنصره إنها
تخرج من قعر البحور الفصوصْ(237)

---

235) الذخيرة - القسم الرابع - 1/16.

236) أقصد المصادر التي استطعت الوصول إليها.

237) وفيات الأعيان 2/182.



ولعل عبارة «لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له» التي صاغها ابن خلكان، تدل على عدم اقتناع المؤلف بهذه التهمة القادحة في الفصوص(238).

- الوافي بالوفيات: وينقل الصفدي فيه نفس الخبر(239) الذي ورد في وفيات الأعيان مع خلاف جد يسير.

- كشف الظنون: ويكتفي فيه حاجي خليفة بنقل نفس الخبر(240) الذي ورد في الوفيات والوافي، مع تصرف يسير.

- نفح الطيب: لتأخر زمن تأليف هذا الكتاب عن آخر عصور التاريخ العربي بالأندلس، ولارتباط التأليف نفسه بالمشرق، نعتبر هذا المصدر أقرب إلى المصادر المشرقية منه إلى الأندلسية. وقد اكتفى المقري فيه بنقل الخبر الذي ورد في الذخيرة مع تصرف يسير(241).

- شذرات الذهب: ويكتفي فيه ابن العماد بنقل الخبر(242) الوارد في وفيات الأعيان.

- روضات الجنات: حيث ينقل الخوانساري(243) نفس ما ورد عند ابن خلكان.

ج) مصادر تجرح صاعدا، أو تنقل خبر تجريحه، دون التعرض للفصوص:

إن في سكوت هذه المصادر عن الفصوص - رغم قدحها في صاعد - ما يجعل الكتاب في منأى عن التهمة. ويبدو أن هذه

---

238) وقد نقل ابن خلكان من الفصوص أكثر من خبر.

239) الوافي بالوفيات 16/ 227.

240) كشف الظنون 2/ 1621.

241) نفح الطيب 4/ 78.

242) شذرات الذهب 3/ 207.

243) روضات الجنات 4/ 131.



التهمة التي ترددها هذه المصادر ليست إلا نقلا لما ورد في المصدر الأول. وأذكر من هذه المصادر:

ـ الصلة: وفيها يبدو جليا أن ابن بشكوال كان مقتنعا بصحة خبر تهمة الكذب التي اتهم بها صاعد، رغم تشكيك ابن بسام قبله في ذلك. ويظهر أن قول ابن بشكوال: «قلت: وكان صاعد هذا يتهم بالكذب وقلة الصدق في ما يورده، عفا الله عنه»(244)، قد أصبح مصدرا لكل الذين ذكروا أن صاعدا كان يتهم بالكذب.

ـ ميزان الاعتدال، والعبر في خبر من غبر، والمغني في الضعفاء: وفي هذه الكتب الثلاثة، يعيد الحافظ الذهبي نقل العبارة(245) التي صرح فيها ابن بشكوال بأن صاعدا كان يتهم بالكذب.

لكن ما يجدر التنبيه إليه هنا، أن وصف الحافظ الذهبي، أحد كبار علماء الحديث، لصاعد بالأديب، والإشارة إلى تصنيفه للكتب وروايته عن القطيعي(246)، يوحيان بأن تهمة الكذب التي وصف بها صاعدا، نقلا عن ابن بشكوال، تنصرف إلى سند ما رواه من حديث نبوي شريف.

ـ نفح الطيب: وينقل فيه المقري(247) قولة ابن بشكوال التي اتهم فيها صاعدا بالكذب وقلة الصدق في ما يورده.

ـ شذرات الذهب لابن العماد: حيث(248) يكتفي المصنف بنقل ما أورده الحافظ الذهبي في العبر، مع تصرف يسير.

د) مصادر تتضمن ما يفيد أن رفض الأدباء للفصوص ليس موقفا من الكتاب نفسه: وهي المصادر التي أشارت بصراحة إلى

244) الصلة ص: 238.

245) ميزان الاعتدال 2/287 ـ والعبر 3/124 ـ والمغني 1/302.

246) العبر في خبر من غبر 3/124.

247) نفح الطيب 4/96.

248) شذرات الذهب 3/206.



أن تهمة الكـذب أو كثرة المـزاح اللتين وصف بهما صـاعد، كـانتا السبب في رفض النـاس لكتـابـه. وهي إشارات تـؤكـد أن رفض بعض الأدباء للفصـوص، قد نتج عن حكم قبلي، ارتبط بـالصورة المشوهـة التي رسمها أدبـاء جد متشـددين، لأديب مشرقـي كان يخلط الجد بالهزل، في بعض المجـالس، ليتخلص من المكايد التي يكيدهـا له خصومه، وهـو يعلم أن ذلك سيحمل على الكذب. ومن هذه المصادر:

ـ وفيات الأعيان: حيث يبدو من خلال ما أورده فيه ابن خلكان، نقلا من الفصوص، أن المؤلف كـان مطمئنا إلى صحة ما ورد في كتاب صاعد، رافضا للقدح الذي وجه إليه، وقد بدا هذا الرفض في صياغة عبارته: «لأنه قيل لـه: جميع ما فيه لا صحة له»(249)، عند إيـراده خبـر التغـريق. لـذا نجـده يُـرجع رفـض النـاس لكتـاب الفصوص، إلى ما اتهم به المؤلف من كذب: «وجمع له(250)، كتاب الفصوص، نحا فيه منحى القالي في أمـاليه.... وكان يتهم بالكذب في نقله، فلهذا رفض الناس كتابه»(251).

ـ الوافي بالوفيـات: ويعيد فيه الصفدي نقل نفس(252) ما ورد في وفيات الأعيان.

ـ البدايـة والنهاية: يعترف ابنٍ كثيـر لصاعد بأنـه كان فصيحا بليغا عالما، لكنه لا ينفي عنه تهمـة الكذب. وإلى هذه التهمة يعزو رفض الناس لكتـابه الفصوص: «لكنه كـان مع فصاحته وبـلاغته وعلمه متهما بالكذب، فلهذا رفض الناس كتابه ولم يشتهر»(253).

249) وفيات الأعيان 2/182.

250) المقصود الحاجب المنصور.

251) وفيات الأعيان 2/181.

252) الوافي بالوفيات 16/227.

253) البداية والنهاية 12/21.



ـ لسان الميزان لابن حجر: رغم صرامة هذا الحافظ المتخصص في علوم الحديث، ووصفه لبعض ما أتى به صاعد بالمناكير والمجازفات(254)، لا يتحرج من أن يجعل صاعدا من رواة الحديث النبوي ـ وإن كان قد اتُّهم في اللغة ـ، ويرجع ما اتهم به إلى أنه كان يكتب من حفظه ويتساهل: «صاعد بن الحسن الربعي أبو العلاء الأديب... وهو من الرواة للحديث النبوي، وإنما اتُّهم في اللغة. وقد طالعت كتاب الفصوص له... وأحسن أمره عندي، أنه كان يكتب من حفظه ويتساهل»(255).

هـ) مصادر تدافع عن الفصوص ضمنيا من خلال دفاعها عن صاعد: وهي المصادر التي فصلت بين علم صاعد وما عرف عنه من ميل إلى المزاح، والجواب السريع والخلاعة، معترفة له بفضيلة العلم. وهذه المصادر هي:

ـ جذوة المقتبس: حيث يشير الحميدي، تلميذ ابن حزم الذي تلمذ لصاعد، إلى أن صاعدا هذا، كان سريع الجواب، يبادر إلى شرح ألفاظ موضوعة يضعها خصومه لفضح كذبه. إلا أن الحميدي يحمل هذا التسرع، على ميل صاحب الفصوص إلى المزاح: «وكان أبو العلاء كثيرا ما تُستغرب له الألفاظ، ويُسأل عنها، فيجيب فيها بأسرع جواب، على نحو ما يُحكى عن أبي عمر الزاهد. ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح لما حُمل إلا على التصديق. وقد ظهر صدقه في بعض ما قال:(256).

وبعد نقل خبر حادثة القوالب والزوالب، و«التمركل» لتصوير سرعة جوابه، يعود إلى تأكيد ما وصفه به في أول الترجمة من رسوخ في العلم: «... وله من هذا كثير، ولكنه كان عالما»(257).

254) لسان الميزان 3/162.

255) لسان الميزان 3/163.

256) جذوة المقتبس ص: 224.

257) جذوة المقتبس ص: 225.



ـ بغـــيــة الملتــمس: ويعيــد فيه الضبي نقل نفس(258) ما قاله الحميدي في الجذوة، عن رسوخ علم صاعد وكثرة مزاحه.

ـ المعجـب: ويكرر فيه المـراكشـي القول بـأن كثرة مزحــه هي التي حالت دون حمل كـلامه على الصدق، رغم ظهور صــدقه في بعض ما قــال. ثم يعيد ـ بعـد إيراد مــا حكي عن سرعة جـوابه ـ قولة الحميدي: «وله من هذا كثير، ولكنه مع هذا كان عالما»(259).

ـ إنباه الرواة: ويؤكد فيـه القفطي رسوخ قدم صاعد في العلم، من خلال إشارته إلى أن اختبار الكتب المطـولة في اللغة وغيرها، قد كشف عن حقيقة ما اتهم فيه: «ولولا مزحه وكثرة ما كان يأتي به في تصانيفه ما كان إلا عــالما، وقد اختبرت الكتب المطولة في اللغة، فوجد فيها حقيقة ما اتهم فيـه، وكان صاعد غير صاعد في النحو مقصــرا، وباللغــة قيما، وله يــد طولى في استنبــاط معاني الشعر»(260).

ـ البلغـــة في تاريخ أئمة اللغــة: وقد ترجم فيه الفيـروز آبادي لصاعد، بــاعتباره إماما من أئمةَ اللغة، ثم فســر عزوف الناس عن علمه، بنفورهم من خــلاعته: «وكان خليعا مولعــا بالشراب واللعب، فلم يؤخذ عنه العلم»(261).

ـ بغيـــة الوعــاة: حيث ينقل السيوطي عن ابن مكتــوم، وصفه لصــاعد بكل الصفــات التي يوصف بهــا العالم الــراسخ في العلم، وإشارته إلى السبب الخلقي الــذي جعل أهل الأدب لا يثقون بنقله ولا يستكثرون منــه: «وقال ابن مكتوم: كــان مقدمــا في علم اللغة ومعرفة العويص، وكان أحضر الناس شاهدا وأرواهم لكلمة غريبة،

---

258) بغية الملتمس ص: 321.

259) المعجب ص: 35.

260) إنباه الرواة 2/88.

261) البلغة ص: 98.



وإنما حطه عند أهل الأدب ما غلب عليه من حب الشراب والبطالة وإيثار الفكاهة، فلم يثقوا بنقله ولا استكثروا منه»(262).

- نفح الطيب: حيث يشير المقري إلى قوة بداهة صاعد في ادعاء الباطل، ثم يعقب بعد إيراد خبر حادثة الخنبشار والتمركل، بما يفيد الاعتراف له بفضيلة العلم: «وكان شديد البديهة في ادعاء الباطل... وكان مع ذلك عالما»(263).

- روضات الجنات: ويكتفي الخوانساري فيه(264)، عند ترجمته لصاعد، بنقل نفس ما نقله السيوطي عن ابن مكتوم.

و) مصادر تدافع ضمنيا عن الفصوص، من خلال تجاهلها خبر التغريق: وهي المصادر التي أنكرت خبر حادثة التغريق التي أمر فيها المنصور بإلقاء كتاب الفصوص في النهر، وذلك بإيرادها خبرا آخر يفيد أن هذا الكتاب غرق في نهر قرطبة عندما سقط الغلام الذي كان يحمله في النهر. ويبدو هذا الخبر الثاني.

- بالقياس إلى خبر التغريق - مقبولا لانسجامه مع خبر الحظوة التي ظل صاعد يحظى بها عند المنصور وولي عهده المظفر بعد تأليف الفصوص. وإذا نحن استثنينا البيت الذي نسب في بعض المصادر إلى ابن العريف والبيت الذي أجابه به صاعد، يظل خبر التغريق وخبر الغرق متعارضين كل التعارض. وبسكوت هذه المصادر عن خبر التغريق الذي يبدو متعارضا وخبر الحظوة التي نالها صاعد في بلاط ابن أبي عامر، وإيرادها خبر الغرق، تكون قد تبنت موقف الدفاع الضمني عن القيمة العلمية لكتاب الفصوص، وهذه المصادر هي:

---

262) بغية الوعاة 2/7.

263) نفح الطيب 4/81.

264) روضات الجنات 4/131.



ـ المعجــب للمراكشي: لعل هذا الكتاب أول مصــدر يشير إلى أن كتاب الفصوص غرق عندما سقط الغلام الذي كان يحمله في نهر قرطبة: «وألف له[265] أبو العلاء هذا كتبـا، فمنها كتاب سماه كتاب الفصــوص على نحو كتـاب النوادر لأبي علي القـالي، واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق، أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يـديه، وعبر النهر، نهر قرطبة، فخـانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب، فقـال في ذلك بعض الشعراء ـ وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف ـ بيتا مطبوعا بحضرة المنصور، وهو (سريع):

قد غاص في البحر كتاب الفصوصْ
وهكـذا كـــل ثـــقـــيـــل يـــغـــوصْ

فضحك المنصور والحاضرون. فلم يـرع ذلك صاعدا ولا هاله، وقال مرتجلا مجيبا لابن العريف (سريع):

عـــــاد إلى معـــــدنــــه إنمـــــا
توجد في قعـر البحار الفصوصْ»[266]

ـ معجم الأدباء: وينقـل فيه الحموي[267]، مع بعض التصرف، نفس الخبر الذي أورده المراكشي في المعجب.

ـ البلغة: ويعيد فيه[268] الفيروز آبادي، نقل الخبر الذي ورد في المعجب، مع تصــرف واضح: «وألف له كتـاب الفصوص... ولمـا أوصله إليه أعطاه غلاما لـه، فلما أراد العبور في النهر زلق الغلام، فوقع الكتاب في النهر، فأنشد أبو القاسم ابن العريف:

قد غاص... فضحك الحاضرون، فقال صاعد...»[269].

---

265) المعجب ص: 31، 32.

266) المعجب ص: 31، 32.

267) معجم الأدباء 1/ 283، 284.

268) البلغة ص: 98.

269) البلغة ص: 98.



ز) ما يتضمن دفاعا صريحا عن القيمة العلمية للفصوص: ورد هذا الدفاع الصريح عن الفصوص، في مصدر واحد هو الذخيرة. فابن بسام الأديب الأندلسي الذي عاش في زمن قريب نسبيا من عصر صاعد، وقرأ الفصوص قراءة ناقد، وجد نفسه ـ رغم الأخبار التي نقلها نقل رواية ـ ملزما بالتشكيك في صحة الأخبار المضعفة للفصوص، التي يعارض مضمونها ما يتضمنه هذا الكتاب من علم غزير وافر. ولم يتحرج ابن بسام وهو يدافع عن القيمة العلمية للفصوص، من أن يصرح بما يعتبر طعنا غير مباشر في سعة معارف معاصري صاعد من الأندلسيين. فبعد إيراد خبر حادثة تغريق الفصوص، يقول ابن بسام: «وما أحسب أن أحدا يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف، يضيق عنه التعديل، ويدفع في صدره النقد والتحصيل، لا سيما وصاعد علم أن قرطبة حسب ما ذكرنا، ميدان جياد وبلد جدال وجلاد، ولكنه اشترط غير المشهور، فلم يظفروا منه بكثير، وأعانهم هو على نفسه بما كان ينفق به من تنحله وكذبه. ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير(270) ولا بصر بالنقد مشهور، وإلا فليس يخلو كتاب الفصوص المذكور من غريبة مسموعة ولا من فائدة رائقة بديعة، ولكنه خبر وجدناه فنقلناه»(271)، والعبارة الأخيرة، تدل دلالة واضحة على أن ابن بسام كان يعلم أن قيمة الفصوص العلمية، كانت مختلفة عن الصورة المشوهة التي رسمها خصوم صاعد الكتاب.

بعد هذا الترتيب للمصادر التي تضمنت ما يحمل على أنه قدح في الفصوص أو دفاع عنه، نلاحظ أن المصادر التي هاجمت الفصوص أو نقلت خبر التغريق، أو اتهمت صاعدا بالكذب، تبدو

---

270) قد تكون العبارة تصحيفا لـ: «تحرير ولا بصير بالنقد مشهور».

271) الذخيرة 4ـ 1/ 16.



قليلة بالقياس إلى وفرة المصادر التي دافعت دفاعا ضمنيا أو صريحا عن صاعد وفصوصه، وهي مقارنة تفيد أن معظم المؤرخين كانوا يحملون ما حكي عن صاعد وفصوصه من حكايات على كونها أخبارا ونوادر للتسلية والتسلي.

4) مصادر يشير مؤلفوها إلى الفصوص إشارة معرفة واطلاع: وهي المصادر التي كان أصحابها يعرفون ما ورد في الفصوص معرفة جيدة، عن طريق الرواية أو المطالعة. ومن هذه المصادر:

أ) المقتبس لابن حيان، تلميذ صاعد الذي كان قد أخذ عنه وروى عنه الفصوص عن طريق السماع والقراءة المنفردة.

ب) جذوة المقتبس للحميدي الذي يبدو أنه كان أول من أشار إلى أن الفصوص ألف على نحو كتاب النوادر للقالي(272). ويظهر أن معرفة الحميدي بالفصوص تعود إلى قرب زمنه من عصر صاعد، وإلى تلمذته للعالم المشارك، أبي محمد بن حزم، الذي كان كما ذكر ابن حجر(273) من بين الذين رووا عن صاعد.

ج) الذخيرة: وقد اتضح فيه، من خلال دفاع ابن بسام عن القيمة العلمية لكتاب الفصوص، أنه كان يعرف هذا الكتاب معرفة قارئ وناقد(274).

د) فهرسة ابن خير، الذي وصف الفصوص بأنه كتاب في اللغات والأخبار. وتعود معرفة ابن خير بالفصوص إلى روايته له عن شيخه ابن عتاب، الذي رواه عن ابن حيان، عن صاعد مؤلفه(275).

---

272) الجذوة ص: 223.

273) لسان الميزان 3/163.

274) الذخيرة 4ـ 1/16.

275) فهرسة ابن خير ص: 326.



هـ) وفيات الأعيان: وقد تبين فيه من خلال النقول التي نقلها ابن خلكان من الفصوص، أنه كان يعرف كتاب صاعد معرفة من قرأه وطالعه(276).

و) لسان الميزان: وقد صرح فيه الحافظ ابن حجر بأنه قد قرأ كتاب الفصوص قراءة مستفيد: «... وقد طالعت كتاب الفصوص له، فذكر في أوائله...»(277). وتؤكد النقول المطولة التي نقلها ابن حجر من الفصوص في لسان الميزان، أنه جمع في قراءته لمؤلف صاعد، بين قراءة الاستفادة، وقراءة العالم المحدث الناقد للسند والمتن(278).

ز) روضة الأعلام: حيث ينقل ابن الأزرق عن صاعد عدة أخبار(279) وردت في مواضع متفرقة من الفصوص.

5) مصادر تصف الفصوص وصفا منقولا: وهي المصادر التي اكتفت في وصفها لمؤلف صاعد، بنقل ما ورد في المصادر السابقة، ولا نستبعد أن يكون بعض مؤلفي هذه المصادر قد قرأوا الفصوص، إلا أن العبارة التي يشار فيها إلى خبر تأليف هذا الكتاب، في هذه المصادر، مكررة تكرار نقل. وهذه المصادر هي الصلة، وبغية الملتمس، والمعجب، وإنباه الرواة، ومعجم الأدباء، والوافي بالوفيات، والبلغة، وكشف الظنون، ونفح الطيب، وشذرات الذهب.

6) مصدر يصف الفصوص عن غير معرفة به: وأقصد كتاب البداية والنهاية لابن كثير، فالمؤلف يذكر في هذا الكتاب أن صاعدا سمى الفصوص بهذا الاسم ليشاكل به الصحاح: «قلت كأنه سمى

---

276) وفيات الأعيان: 1/223، 226. 2/109، 110.

277) لسان الميزان 3/160.

278) لسان الميزان 3/160، 163.

279) روضة الأعلام ص: 27، 410، 488.



هـــذا الكتـــاب بهـــذا الاســـم ليـــشـــاكـــل بـــه الصحـــاح للجوهـــري»(280).

وفي هذه المقـارنة بين كتـاب الفصوص ومعجم الصحـاح، ما يفيد أن ابن كثير لم يكن يعرف من كتاب الفصوص إلا الاسم.

V ـ مراجع حديثة :

رغم كثرة المراجع الحديثة التي تـرجمت لصاعد أو أشارت إلى تأليفه الفصوص، لا نجد في هذه المصادر ما يمكن أن يعد إضاءة لبعض الغموض الذي يشـوب الأخبار المتعلقة بصاعـد وفصوصه في المصادر القـديمة. ولعل ذلك يعـود إلى أن هذه التـرجمات أو الإشـارات المقتضبـة إلى الفصـوص، قـد كتبت في غيـاب بعض المصـادر، وغياب كتـاب الفصوص نفســه. ومن بين مـا كتب عن صاعد وفصوصه حديثا، تكتسي أربع مراجع أهمية خاصة، لسبق أولهـا إلى ذكر مخطـوطة الفصـوص، وسبق ثانيهـا إلى محاولـة كتـابة تـرجمة مطـولة لصـاعد وحيـاته العلميـة منذ رحيلـه إلى الأندلس إلى أن تـوفي بصقلية، ولاطـلاع صاحبي المـرجع الثالث والرابع، على بعض ورقات مخطوطة الفصوص.

1) تـذكرة النـوادر من المخطـوطـات: يشير النـدوي في هـذا الكتاب، بعد نقل وصف مقتضب للفصوص، إلى وجود نسخة من كتـاب صاعـد في جـامع القروييـن: «قلت: كتاب جيـد في الأدب، نسخة نادرة في مكتبة جامع القرويين بفاس»(281).

2) الدراسة(282) التي أنجزهـا «بلاشيـر» عن صاعـد البغدادي: رغم قدم تاريخ نشـر هذه المقالة، بالقيـاس إلى كثير من المراجع

280) البداية والنهاية 12/21.

281) تذكرة النوادر: ص: 129، 130.

282) Un pionnier de la culture arabe: SAID DE BAGHDAD

وقد نشرت سنة 1930 بمجلة هيسبيريس: TOME X. FASS. I



الحديثة التي تحدثت عن صاعد، تظل هذه السيرة الممزوجة بكثير من اللمحات النقدية أهم ما كتب عن صاعد حديثا، وإن كانت كثير من التصورات الافتراضية التي أتى بها «بلاشير» تتعارض وما كشفت عنه بعض المصادر التي لم يطلع عليها. وقد اعترف بلاشير، الذي كان يعتقد أن كتاب الفصوص فقد(283)، بأن ضياع هذا الكتاب، قد حجب عنه وعن غيره من الدارسين، حقائق كانت ستذهب بما تعلق بسمعة الفصوص العلمية من غموض. ولعل وضع بلاشير لصاعد في سياقه التاريخي المتمثل في تفاعل الثقافتين المشرقية والأندلسية، كان من الأسباب التي جعلته ينجح في رسم بعض جوانب الشخصية العلمية لهذا الأديب المشرقي، وإن كانت بعض تصوراته تحتاج إلى تصويب.

3) مقدمة تحقيق كتاب المقتبس: وتعود أهميتها إلى تضمنها ما يفيد أن المحقق(284) اطلع اطلاعا لا نعرف نوعه(285) على مخطوطة الفصوص، وإلى دعوته إلى نشر الكتاب للتعريف بذخائره العلمية: «وقد كان من حظي أن اطلعت على هذه المخطوطة(286)، في رحلة إلى المغرب ما بين 14 و30 يوليه سنة 1961، من أجل البحث عن بعض المخطوطات الأندلسية الجديدة... والحقيقة أن الكتاب على الرغم من كل ما اتهم به صاعد ذخيرة بالغة القيمة، ويستحق أن تتضافر الجهود على نشره»(287). وأيا كانت طبيعة اطلاع د. مكي

---

283) SAID DE BAGHDAD. Un pionnier de la culture arabe.
وقد نشرت سنة 1930 بمجلة هيسبيريس Tome X. Fass: 1. p. 24

284) محمود علي مكي.

285) لم أستطع الاطلاع على ما كتبه المحقق عن كتاب الفصوص، في مقالته المنشورة بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد: مجلد 9، 10، سنة 1961، 1962.

286) يقصد مخطوطة الفصوص بالخزانة العامة (النسخة الكتانية).

287) المقتبس: تحقيق محمود علي مكي (مقدمة التحقيق) ص: 58، هامش 2.



على الفصوص، فإن غزارة مادة الكتاب وتشعب فصوصه، يجعلنا نفترض أن التمثل الذي يسمح به اطلاع باحث محقق يبحث عن نوادر المخطوطات، لن يكون عميقا، إذا ما نحن نظرنا إلى كثرة أوراق المخطوطة، وطبيعة مادتها العلمية، وفرة وتنوعا.

4) أبو علي القالي وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس: وتكتسي هذه الدراسة أهميتها بالنسبة للفصوص، من وقوف صاحبها - في القسم الذي خصصه لدراسة أثر كتاب الأمالي في حركة التأليف - على مخطوطة الفصوص في الخزانة العامة، ومحاولته المقارنة بين المادة العلمية للأمالي والمادة العلمية للورقات التي اطلع عليها، وإن كان الدارس قد انساق وراء الأخبار القديمة المتناقلة التي قدحت في الفصوص، متبنيا[288] نفس الموقف المهاجم الذي وقفه بعض علماء الأندلس من صاعد وفصوصه.

نخلص من هذه القراءة المتنوعة في المصادر والمراجع التي تعرضت لصاعد وفصوصه، إلى أن النظر إلى المعلومات التي تنقلها هذه المصادر من زوايا متعددة، قبل الاستعانة بكتاب الفصوص، يمكن الباحث من استثمار هذه المعلومات القليلة، قصد اختراق الحاجز المفتعل الذي جعل من صاعد وفصوصه ثنائيا شبه أسطوري، يقترن في الذهن، حتى عند بعض المتخصصين من الباحثين بحادثة الخنبشار، وقول ابن العريف: قد غاص في النهر كتاب الفصوص.

288) أبو علي القالي ص: 274. وانظر أيضا ص: 275 حيث يشير الدارس إلى كتاب ابن القزاز في الرد على صاعد في مناكير كتابه المسمى بالفصوص.



ـ المدخل الثانـي ـ

مشـروع سيــرة

أولا : صاعد الإنسان :

تقديم :

قد يكون الحديث عن الهوية، والأصل والنسب، في بعض الدراسات أو المقدمات، نوعا من التكرار، إذا تعلق الأمر بعلم من الأعلام الذين لا يحتاجون إلى أن يعرف بهم. إلا أن نفس الحديث يصبح ملحا عندما تقل أخبار الشخصية المعرف بها قلة تجعل الباحثين أنفسهم معرضين لزلة الخلط بينها وبين شخصية تحمل نفس الإسم.(1)

I ـ الهوية والجذور :

لا تبدو المصادر التي ترجمت لصاعد سمحة، عندما يتعلق الأمر بالمعلومات الخاصة باسمه وأصله ونسبه. ورغم قلة هذه المعلومات عموما، تبدو بعض هذه المصادر أضن من أخواتها بهذه المعلومات. فالمصادر التي تشير إليه، غالبا ما تكتفي بالإشارة إلى كنيته واسمه، مع تقييد الإشارة أحيانا بذكر الصفة العلمية التي اشتهر بها. ولا تذهب المصادر التي ترجمت له ترجمة مقصودة لذاتها، بعيدا في التعريف به، فأسمح هذه المصادر لا يتجاوز ذكر اسم جده.

---

1) انظر نموذجا لهذا الخلط في دمية القصر 1/170 حيث يخلط المحقق بين صاعد بن عيسى الكاتب الحلبي وصاعد صاحب الفصوص.



وعندمـا نعود إلى ديباجـة كتاب الفصوص نفسه نجـد العبارة الآتية: «... قال أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي...».(2) وتقتصر معظم المصـادر التي عـاصر أصحـابهـا صـاعـدا أو اتصلـوا بمن عاصره، أو نحا مؤلفوها منحىً موثقاً، على إيراد هذه التسمية التي وردت في الفصوص، فصديقه ابن الكتاني(3) وتلميذه ابن حيان،(4) والحميدي(5) تلميـذ تلميـذه ابن حـزم، يكتفون عنـد الحـديث عنـه بتعريفه بأبي العلاء صاعد بن الحسن، دون ذكر اسم جده. وعلى هــذا التعـريف اقتصــر الضبي،(6) والمـراكشي،(7) والقفطـي،(8) والذهبي،(9) وابن حجـر،(10) وحاجـي خليفة،(11) وابن العمـاد.(12) وبينما وقفت هــذه المصادر السابقة عند اسم أبيـه، نلاحظ ورود اسم جده في مصادر أخرى أندلسية ومشرقية، تميز بعضـها بغنى المعلومات التــي نقلت عن صاعد وبصحتها. وأقـدم هذه المصادر التي تشير إلى اسم جده، الذخيـرة لابن بسام، حيث عرف المؤلف صاعدا بقوله: «هو صاعد بن الحسن بن عيسى..».(13) وأكد صحة هــذا النسب ابن خيـر الإشبيلي الـذي اتصل بصـاعـد عن طـريق روايته الفصــوص عن ابن عتاب، عن ابن حيان، عن صاعـد. فابن

2) الفصوص ص: 12أ.
3) التشبيهات ص: 100 وغيرها.
4) المقتبس: 3/14.
5) جذوة المقتبس ص: 223.
6) بغية الملتمس ص: 319.
7) المعجب ص: 30.
8) إنباه الرواة: 2/85.
9) ميزان الاعتدال: 2/287.
10) لسان الميزان: 3/160.
11) كشف الظنون 2/1271.
12) شذرات الذهب 3/206.
13) الذخيرة 4/1/8.



خير يشير عند ذكره كتاب الفصوص إلى أن هذا المصنف من تأليف (أبي العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى...».(14) ووردت هذه الإشارة إلى جده عند ابن بشكوال، وياقوت، وابن خلكان، والصفدي، وابن كثير، والفيروز آبادي، والمقري، والخوانساري.

وخلافا لهذا، ورد اسم الحسين عوض الحسن عند ذكر أبيه في بعض المصادر أو بعض صفحاتها. والراجح أن ذلك تصحيف لكلمة الحسن.

أما كنيته (أبو العلاء) فقد اتفقت كل المصادر التي ترجمت له على إيرادها. ووردت الإشارة إلى نسبه في ربيعة الذي أشار إليه صاعد في الفصوص، في الجذوة، والذخيرة، وفهرسة ابن خير، والصلة، وبغية الملتمس، والمعجب، وإنباه الرواة، ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، والوافي بالوفيات، وميزان الاعتدال، والبلغة، وشذرات الذهب؛ وانفرد ابن بسام بالنص على أن (الربعي) نسبة إلى ربيعة الفرس دون باقي الربائع: (هو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي تربة، والطبري أصلا، والربعي نسبا، ينتمي في ربيعة الفرس).(15)

وإذا كان كتاب الفصوص قد تضمن الإشارة إلى نسب صاعد دون أصله، فإن الاهتمام بذكر هذا الأصل في المصادر يبدو قليلا، وأول عبارة تضمنت الإشارة إلى أصله، وردت عند الحميدي مقيدة بفعل الظن: (وأظن أصله من ديار الموصل).(16) ورغم كون هذه النسبة إلى ديار الموصل قد قيدت بالظن، مالت المصادر

14) الفهرست 326.

15) الذخيرة 4/1/8.

16) جذوة المقتبس 223.



القليلة التي أعادت ذكر هذا الأصل إلى جعل الخبر قطعيا. فالقفطي مثلا يقول في ترجمته لصاعد:(17) (صاعد بن الحسن الربعي اللغوي، أبو العلاء، من بلاد الموصل). ونفس الجزم(18) بأصله الموصلي يرد عند ياقوت والفيروز آبادي والمقري والخوانساري، وهو جزم يفتقر إلى القدم الذي يقويه. فهذه المصادر الخمسة التي جزمت بكون أصله من الموصل تعود إلى زمن متأخر عن تاريخ تأليف كل المصادر السابقة التي ترجمت لصاعد، دون أن تذكر أصله الموصلي. ويضعف هذا الجزم أيضا أن الحميدي الذي كان أول من ذكر هذا الأصل، لم يصغ العبارة الصياغة التي تجعل مضمونها خبرا مقطوعا بصحته. ويفوق هذا الخبر ضعفا، الخبر الذي يذكر فيه ابن الأثير(19) أن صاعدا رحل من الموصل إلى الأندلس.

وخلافا لما ورد عند الحميدي ومن سايره من المتأخرين من جهة، ولسكوت معظم المصادر عن ذكر هذا الأصل، انفرد ابن بسام بوصفه بالطبري.(20) وإذا كانت هذه الإشارة على غرابتها تفيد انتساب صاعد إلى طبرية دون طبرستان، فإن في ذكر هذا الأصل ما يدفعنا إلى التساؤل عن علاقة اسم صاعد بن الحسن الربعي صاحب الفصوص، باسم شاعر شامي عاش في نفس الفترة الزمنية، بعد رحيله من الشام إلى بغداد، مادحا نفس الحكام الذين اتصل بهم صاعد البغدادي؛ هذا الشاعر الشامي الذي سكتت عنه المصادر القديمة هو (صاعد بن الحسن الدمشقي)(21) الذي (قدم بغداد ومدح بها الوزير

---

17) إنباه الرواة 2/85.

18) اكتفى صاحب المعجب بنقل عبارة الحميدي: (أن أصله من ديار الموصل).

19) الكامل في التاريخ 9/113.

20) الذخيرة 4/1/8.

21) الوافي بالوفيات 16/230.



أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وزير عضد الدولة).(22)

ويطرد وصفه بصاعد البغدادي في كثير من المصادر. ولعل هذه النسبة تعود إلى ارتباطه ببغداد قبل رحيله إلى الأندلس. ورغم خلو الفصوص من إضافة هذه النسبة إلى اسمه، وخلوه من ذكر أصله الموصلي، درجت معظم المصادر على تعريف صاعد بالبغدادي دون الموصلي، لدلالة بغداد على الوسط العلمي الذي منح صاعدا مكانته العلمية في الأندلس، كما منحها أباعلي القالي البغدادي قبله. فتسميته بالبغدادي وردت عند صديقه ابن الكتاني الطبيب، كما وردت عند ابن بسام، وابن خير، وابن بشكوال، وياقوت، وابن خلكان، وابن عذاري، والصفدي، والفيروز آبادي، والمقري، وابن العماد.

أما الحميدي فقد اكتفى عند ترجمته لصاعد بقوله: (ودخل بغداد). وجمع المراكشي بين إيراد هذه العبارة ووصفه صاعدا بالبغدادي. ورغم إقامته بالأندلس، لم أعثُر على نعته بالأندلسي، حسب ما اطلعت عليه، إلا في مصدر واحد هو نهاية الأرب، حيث يقول النويري وهو يتحدث عن وصف الشعراء للورد:(23) (فقال أبو العلاء صاعد الأندلسي...).

نخلص مما تقدم إلى أن اسم (أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي) هو الإسم الذي كان صاحب الفصوص يعرف به نفسه. وإذا ما نحن استأنسنا بما ورد في بعض المصادر، فإن اسمه الكامل سيكون هو: «أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي». أما نسبته إلى الموصل فتبدو غير مشهورة،

---

22) الوافي بالوفيات 230/16.

23) نهاية الأرب 189/11.



بالقياس إلى ما تضمنتـه مختلف المصادر التي ترجمت له. ورغم ذلك نستأنس بنسبـه في ربيعـة الفـرس، لنفتـرض أنـه نشأ في المجال البدوي الذي كانت بعض القبائل العربية تتحرك فيه شمال العراق والجزيـرة وشرق الشام، وهو الوسط الـذي كانت الموصل عاصمة له.

II ـ المولد والنشأة :

لم تقدم المصادر أية إشارة تتعلق بتاريخ ميلاده ونشأته. ولم تتعد الأخبـار المتعلقة بسنه الإشـارة إلى أنه مات عن سن عـالية سنة 410هـ أو 417هـ إلا أن سكـوت المصادر عن ذكـر تـاريخ ميلاده، لا يمنعنـا مـن الاستعانة بإشارة وردت عرضا في قصيدة له، قصـد الـوصـول إلى معـرفـة تاريـخ تقـريبي لمـيلاده.

فمما نقله صاحب الـذخيرة من آثار الكاتب الشـاعر أبي حفص بن بـرد، قصيـدة يخـاطب بهـا أبـا العـلاء صـاعـد بن الحسن اللغوي.(24) وفي سيـاق إيـراد هـذه القصيـدة، أتى ابن بسـام بالقصيدة التي أجاب بها صاعد صديقه الوزير أبا حفص بن برد. وكان مما تضمنته هذه القصيدة قول صاعـد(25) (بسيط):

1 ــ لبّيك أَلْفـاً أبا حفصٍ إجـابـةَ مَنْ
يُـدلـي إليك بـودٍّ غيـرِ مـأشـوب

2 ــ أبـعـد خمـسٍ وسبعيـن التحقْتُ بهـا
حتى قـرعت لهذا الـدهـر ظُـنْـبُوبي

فالأبيات تشير إشـارة صريحـة إلى أن صاعـدا حين نظم هذه القصيدة كان قد بلغ الخامسة والسبعين. ووضع هذه السنين بين

24) الذخيرة 1/1/129.

25) الذخيرة 1/1/130.



تاريخ وفاة صاعد وتاريخ وفاة ابن برد 414هـ يوصلنا إلى النتيجة التقريبية الآتية:

إذا افترضنا صحة الأخبار التي ذهبت إلى أن صاعدا توفي سنة 410، وافترضنا أن هذه القصيدة قد نظمت سنة وفاته، سيكون تاريخ ميلاده بعد 335هـ. أما إذا افترضنا أنه لم يتوف إلا سنة 417هـ كما ذكر تلميذه ابن حزم، فإن تاريخ ميلاده بالنظر إلى أن وفاة ابن برد كانت سنة 414هـ، لن يكون إلا بعد سنة 339هـ. غير أن المعلومات التي أمدنا بها ابن بسام عن تاريخ خروجه الأول من قرطبة، وإشارته الصريحة إلى أنه عجل بالخروج مرة ثانية من قرطبة متوجها إلى صقلية، في أول خلافة المستعين الثانية، أخبار تساعدنا على الوصول إلى تحديد تاريخ تقريبي لميلاده. فابن بسام يذكر أن صاعدا غادر قرطبة المرة الأولى سنة 403هـ أيام خلافة هشام المؤيد، ويذكر أنه عاد إليها عندما تولى سليمان المستعين الخلافة للمرة الثانية طمعا في كرمه، وأنه غادرها بعد ذلك نهائيا بعد يأسه من كرمه. وخلافة سليمان هذا امتدت من سنة 403هـ إلى أن قتل سنة 407هـ. وإذا كان صاعد قد غادر قرطبة معجلا بالرحيل، فإن خروجه منها سيكون سنة 404 أو بعدها بقليل، وبافتراضنا أن القصيدة التي أجاب بها صاعد أبا حفص بن برد لم تقل قبل سنة 404هـ، نصل إلى أن تاريخ ميلاد صاعد محصور بين 329 و330هـ.

أما إذا افترضنا أن تاريخ وفاته هو 417، كما أوردت ذلك بعض المصادر، فإن تاريخ ميلاده قياسا إلى تاريخ وفاة ابن برد سيكون سنة 339هـ أو ما قبلها. والراجح أن ميلاده كان قريبا من سنة 335هـ، بافتراض أن القصيدة قيلت قبل تاريخ وفاة أبي حفص بن برد بسنوات.

أما نشأته فلا تمدنا المصادر عنها بما يمكن أن يكون نواة لصياغة أخبار دقيقة عن طفولته. وما نجده في هذه المصادر هو إشارة القفطي إلى أن صاعدا قرأ في الموصل على مشايخها قبل أن ينتقل إلى بغداد(26). ولا تبدو هذه الإشارة عند القفطي إلا استثمارا للعبارة التي افترض فيها الحميدي أن أصل صاعد من ديار الموصل.

III ـ صاعد في بغداد : مرحلة الشهرة :

وسواء كان صاعد قد عاش مرحلة من حياته في الموصل، أم في الديار القريبة منها قبل انتقاله إلى بغداد، تفيدنا الأخبار القليلة التي عثرنا عليها في بعض المصادر المشرقية، والأخبار التي وردت في كتاب الفصوص نفسه، أن ارتباط صاعد بالمجالس العلمية في بغداد كان في وقت مبكر من حياته. فالخبر الذي ينقل فيه التوحيدي عن ابن سورين قوله بأن آخر من شوهد(27) «ممن عرف الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتنم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابا، والتهب في عشق الثناء التهابا، أبو محمد المهلبي. فإنه قدّم قوما، ونوّه بهم، ونبه على فضلهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين... وأبو العلاء صاعد...». وإذ كان المهلبي هذا الذي وزر لمعز الدولة ابن بويه قد توفي سنة 352هـ فإن ارتباط صاعد بهذا الوسط العلمي سيكون قد تم سنة 352هـ أو قبلها، أي في حدود العشر من عمره. ويؤكد هذا الاتصالَ المبكر بالمجالس العلمية في قصور كبار الحكام ببغداد، الخبرُ الذي يشير فيه

26) إنباه الرواة 2/85.

27) الإمتاع والمؤانسة 3/212و213.



صاحب إيضاح المشكل إلى أن صاعدا كان من بين الجالسين مع الوزير المهلبي عندما وفد عليه أبو الطيب المتنبي.(28)

وقد أكد صاعد نفسه في فصوصه أنه دخل مرحلة الشهرة في بغداد سنة 364هـ، وهو ما يزال في حداثة عمره، بالقياس إلى سن شيوخه: «ولما ورد أبو الفتح بن العميد الوزير بغداد... عقد مجلسا لأهل العلم، فاستحضر من ذُكر له فضْلُه وتقدّمُه، وأحب أن يعرف علماء بغداد فضله وبراعته. وبعث حاجبه إلى القاضي أبي سعيد السيرافي رحمه الله وأصحابه، وإلى أبي الحسن علي بن عيسى الرماني رحمه الله، فأتياه في أصحابهما، وكان معنا أبو محمد ولد القاضي أبي سعيد. وأحب الوزير أن يسمع شيئا من أصحاب أبي سعيد، فقال لي القاضي: سل أبا محمد، يعني ولده، عن شيء، فخجلت، إذ لم يكن لي بمجلس السلطان عهد، فاستعفيت من السؤال. فحتم عليَّ وقال: إن لم تَسأل سُئلتَ. وأمر أبا الحسن العطار، وهو وجيه بين أصحابه، أن يسألني. فسألني عن قول علقمة... فلم أجد من الجواب بدا، وقد رمقتني الأبصار تنتظر ما أفوه به. فقلت: نبتدئ بما في البيت من اختلاف الرواية، ثم نرجع إلى تفسيره ومعناه... فتعجب الوزير من ذكري جميع ذلك على صغر سني».(29) ويبدو أن المكانة التي أصبح يحتلها في بغداد، رغم صغر سنه، كانت من بين الأسباب التي جعلته يرفض الإقامة مع الوزير في الري، رغم تمسكه به بعد أن اصطحبه معه إلى الري إعجابا به وبفصاحته.(30)

---

28) نقلا عن خزانة الأدب 1/385.

29) الفصوص ص: 42أ ـ 42ب.

30) الفصوص ص: 43أ.



ولم يكن غـريبا ـ بعـد هذه الشهـرة التي اكتسبها صـاعد في حداثته ـ وصوله إلى بلاط فناخسرو عضد الدولة الذي كان يكبر علمه.(31) والراجح أن اتصاله بعضد الدولـة، كان كاتصال معاصره الشاعـر السلامي بـه، عن طريق الوزيـر الكاتب أبي القـاسم عبد العزيز يوسف الذي وجد فيه عالما قادرا على الإشراف على خزانة كتبه، كما يتضح من قول صـاعد نفسه: «... حتى استظهرت كتب اللغة المتعاورة... فأزلفني ذلك إلى الملوك، حتى ولاني الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف تغمد الله خطاياه خزانة كتبه...».(32) وأبو القاسم هذا الذي ولى صـاعدا شؤون خزانته من سنة 367هـ إلى سنة 371هـ كما يذكر ذلك صاعد،(33) كان وزيرا لعضد الدولة البويهي. وقـد وزر هذا الوزير أيضـا لصمصام الدولـة بن عضد الـدولـة، كما وزر لبهـاء الـدولـة. هـذا الارتباط بحيـاة القصـور ومجالسها العلميـة في بغداد، يجعلنا نطمئن إلى أن صـاعدا الذي استطاع في حداثته أن يحظى بإعجاب كبار الحكام في بغداد، وأن يتوج حياته العلميـة فيها بتوليه شؤون خزانة الوزيـر عبد العزيز بن يوسف، كـان يعيش في بغداد حيـاة لينة لم يعكر صفـوها إلا الأحداث السياسية التي حدثت بعد وفاة عضد الدولة. وفي كل هذا ما يجعل ظروف سفـره من بغداد إلى قرطبة مختلفـة عن ظروف سفر سلفه أبي علـي القالي، الذي كانت رحلته إلـى الأندلس رحلة بحـث عـن الشهـــرة والمجـد، وهو ما سنحـاول توضيحـه فيـما بعـد.

---

31) انظر الفصوص ص: 67ب. حيث يشير صاعد إلى تهلل وجـه عضد الدولة أمام العلماء بالموصل إعجابـا بما أجاب به صاعد مناظره قـرموطة الشيرازي. وانظر ص: 63 ب حيث يـذكر صاعـد أن عضد الـدولة أمـره بأن ينقل له بخطـه كتب الأصمعي وأبي زيد من خط الفارسي.

32) الفصوص ص : 1ب.

33) الفصوص ص : 51ب.



IV ـ الخروج من بغداد والرحلة إلى الأندلس :

1) بحث عن الشهرة أم فرار منها؟:

يذكر القفطي أن صاعدا خرج من بغداد إلى الأندلس لما بلغه أن اللغة بها مطلوبة.(34) ومثل هذا التفسير الذي يجعل رحلة صاعد إلى الأندلس رحلة عالم يبحث عن المجد والشهرة، يفرض على الباحث أن يسلم بأن حياة صاعد في بغداد كانت حياة عالم مغمور آثر أن يظل مغمورا أكثر من ثلاثين سنة قبل أن يقرر الرحيل، رحيل البحث عن الشهرة والمجد. لكن الأخبار التي تمدنا بها المصادر المشرقية ـ رغم قلتها ـ، والأخبار الصريحة التي أخبر بها صاعد عن نفسه في الفصوص، تؤكد أن صاعدا عاش أكثر من ثلاثين سنة من حياة الشهرة العلمية في بغداد، قبل أن ينتقل إلى الأندلس، وهذا ما يجعلنا نرجح أن رحلته من بغداد، كانت رحلة فرار لا رحلة بحث عن الشهرة. ونستأنس في ترجيحنا هذا، بالأخبار التي تتحدث عن بعض الأحداث والفتن التي عرفتها العراق وبغداد بصفة خاصة بعد موت الملك البويهي عضد الدولة. وقد صرح صاعد نفسه في ديباجة الفصوص، بأن خروجه من بغداد كان خروجا مفاجئا وفرار خوف من شر الحادثة التي كانت سببا في فقدانه لكتبه: «ورزئتُ كتبي في الحادثة التي نشأت بين الوزير وصاحب بغداد، فخرجت عنها ولم تُقلّني أرض، حتى رميت بأجلادي إلى ملك من حمير...».(35) والعبارة صريحة الدلالة على أن خروج صاعد من بغداد كان خروج فرار وخوف، بل إن في إشارته إلى أن المنصور أعاضه أهلاً بأهلٍ وإخوانا بإخوانٍ، ووصفه لبلاد المنصور بأنها أرض

---

34) إنباه الرواة 2/85.

35) الفصوص ص: 2أ.



الدين والكلمة الواحدة،(36) ما يؤكد أن صاعدا ما كان ليخرج من بغداد لو لم ترغمه الفتن على ذلك.

ولا تشير المصادر ولا الفصوص إلى تاريخ خروجه من بغداد، لكننا نستطيع مقاربة هذا التاريخ، من خلال حصر تاريخ الخروج من بغداد بين بعض التواريخ التي ذكرها صاعد، أو ذكرها بعض من أرخ له من القدماء. فالمصادر التي أشارت إلى تاريخ وفوده على المنصور، ذكرت أنه وفد عليه سنة 380هـ، أو في حدود هذه السنة. ويعني هذا أن خروجه من بغداد كان قبل هذا التاريخ. وفي فص تحدث فيه صاعد عن تخطئته لشيخه أبي علي الفارسي في غيبته، أمام عضد الدولة البويهي، ذكر صاعد أنه خرج من بغداد وشيخه أبو علي مستوحش منه،(37) لما بلغه عنه؛ وإذا كان أبو علي الفارسي قد توفي في ربيع الأول من سنة 377هـ، وكان صاعد تلميذه قد ترك بغداد والشيخ مستوحش منه، فإن تاريخ خروجه من بغداد، يجب أن يكون قبل ربيع الأول من سنة 377هـ. ويذكر صاعد في فص آخر أنه تولى شؤون خزانة كتب الوزير عبد العزيز بن يوسف من سنة 367هـ إلى 371هـ. وبذكر هذا التاريخ، يكون خروجه من بغداد محصورا بين 371هـ و377هـ.

وإذا كان صاعد قد أشار في ديباجة الفصوص إلى أنه رُزِئَ كتبه في الحادثة التي نشأت بين الوزير وصاحب بغداد، وكانت «الـ» في كلمة «الوزير» عهدية، فإن الوزير المقصود سيكون هو نفسه الوزير أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف الذي ولاه خزانة كتبه، وقد وزر هذا الكاتب الشاعر للملك صمصام الدولة بن عضد الدولة الذي يشير إليه صاعد في النص السابق بصاحب بغداد. ولعل الحادثة التي يشير إليها هي التي ارتبطت بشغب الأتراك

36) الفصوص ص: 2أ.

37) الفصوص ص: 63ب .



ببغداد سنة 374هـ، وكانت ستؤدي إلى هلاك الوزير ابن يوسف.

يقول أبو شجاع في ذيل تجارب الأمم ما يفيد (أن الأتراك شغبوا ببغداد، وبرزوا متوجهين إلى شيراز، بعد أن كانت طائفة منهم قد سارت قبلهم ولحقت بفارس. فركب زياد بن شهراكويه في أثر هؤلاء، ورد أكثرهم؛ وأخذ أبا منصور بن الحسن الناظر، وكان قد خرج هاربا، وولدُه مع شرف الدولة لم يقبض عليه. فرُدّ بعد أن جرح، لأنه مانع عن نفسه واعتُقل، وكان خالَ ولد أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف؛ فلما عرف عبد العزيز هربه من الليل، خاف أن يسعى أبو عبد الله بن سعدان به إلى صمصام الدولة ويوغر صدره عليه، وتنسب به إليه، فرأى أن يسبق إلى صمصام الدولة بإظهار إبراء الساحة قبل أن ينتهز عدوه الفرصة، فاستأذن على صمصام الدولة فأذن له. فلما حضر، قبل الأرض بين يديه، وبكى بكاءً شديداً، واعتذر له، وأنه ما عنده خبر بهرب أبي منصور ولا علم...».(38)

وسواء كانت الحادثة المذكورة هي التي يشير إليها صاعد في ديباجة الفصوص أو كانت حادثة غيرها، فإن تاريخ خروجه من بغداد يجب أن يكون قبل وفاة شيخه الفارسي سنة 377هـ وبعد سنة 371هـ. إلا أن ظروف خروجه من بغداد، حسب ما ذكر في كتابه، تظل صريحة الدلالة على أنه فَرَّناجيا بنفسه من الفتنة. ولعل القفطي(39) كان يقيس رحيل صاعد إلى الأندلس على رحيل أبي علي القالي، لكن مقارنة بسيطة بين الظروف التي رحل فيها كل من الرجلين تجعلنا نقتنع بأن صاعدا لم يغادر بغداد إلا ناجيا بنفسه:

---

38) نقلا عن الكامل في التاريخ ج 7، ص: 123 (هامش) (الطبعة المنيرية).

39) ذكر أن صاعدا رحل إلى الأندلس لما بلغه أن اللغة فيها مرغوب فيها.



أ) غادر القالي بغداد بعد أن قضى فيها ثلاثة وعشرين عاما، وسار نحو قرطبة وهو في الأربعين، بعد أن يئس من أن يصبح عالما مشهورا في المشرق، بينما غادرها صاعد بعد أن قضى فيها أكثر من ثلاثين سنة مقربا إلى الملوك والوزراء.

ب) غادر القالي بغداد بعد أن تأدب بها ورأى أنه لاحظ له بالعراق، فقصد بلاد المغرب.(40) بينما غادرها صاعد بعد أن أوصله علمه إلى الملوك، وجعله يتولى شؤون خزانة الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الكاتب الشاعر والسياسي الداهية.

ج) رحل القالي إلى الأندلس بعد أن كان قد هيأ نفسه للسفر وأعد الكتب والدواوين التي سيحملها معه.(41) بينما وصل صاعد إلى قرطبة وهو لا يحمل معه إلا ما حفظه في قلبه من مضامين كتبه النفيسة التي رزئها في بغداد. ولو كان صاعد قد تهيأ للسفر ولم يخرج من بغداد مستعجلا، لكان قد حصل من الوراقين ـ وهو الخبير بالكتب ـ على مصنفات يحملها معه إلى الأندلس عوض كتبه التي فقدها.

د) قصد القالي الأندلس بحثا عن الشهرة والمال بعد أن بلغه أن خليفتها سيكون مشتري بضاعته التي بارت في بغداد، وبعد أن عرضها فلم تجد لها مشتريا، كما يذكر هو نفسه في مقدمة أماليه، بينما قصدها صاعد وهو متحسر على مجالس الدرس والأنس التي استمتع بها وأمتع بحضورها مجالس من علماء المشرق، كما يتضح جليا من شكره للمنصور بن أبي عامر الذي أعاضه أهلا بأهل وإخوانا بإخوان.(42)

---

40) معجم الأدباء 7/28.

41) انظر عن هذه الكتب والدواوين (أبو علي القالي) ص: 436 ـ 486.

42) الفصوص ص: 12أ.



هـذه المقـارنـة بين الظروف التـي غادر فيهـا القـالي بغـداد، والظـروف التي غادرهـا فيها صـاعد، مضـافة إلى الأسبـاب التي ذكرهـا صاعد نفســه، تجعل رحلة صاحب الفصــوص مختلفة عن رحلة صاحب الأمـالي، إنها رحلة أديب مكّنه علمـه وذكاؤه من أن يجـالس المهلبي وابن العميـد والوزيـر ابن يـوسف والملك عضـد الدولة. وأجبرته الفتن على أن يغـادر بغداد، بعد أن بنى بها مجدا لم يكن القالي قبله قد بناه بها عندما غادرها.

2) السفر، أو المرحلة المصرية :

لا تشير المصـادر كما ذكـرت، إلى تاريـخ خروج صاعـد من بغداد، وإن كانت قد أشارت إلى أنه قد وفد على المنصور بن أبي عامر فـي حدود سنة 380هـ. إلا أننـا نفترض استئنـاسا ببعض الأخبـار أنه وصل الأنـدلس قبل هـذا التاريخ. فصـاعد يـورد في فصوصه خبر المناظرة التي جرت بينه وبين العالم الأندلسي أبي بكر الزبيدي.(43) وقد أكدت جل المصادر أن الـزبيدي كان من بين العلماء الذين اختبـروا صاعدا أمام المنصور ونـاظروه. وإذا كانت المصـادر تذكر أن الـزبيدي توفي سنة 379هـ فإن اعتبار 380هـ سنة وفود صـاعد على المنصـور سيكون سببـا في جعل الزبيدي بعد موتـه مناظرا لصاعـد. وقد انتبه الحميدي إلـى هذا التعارض، فآثر أن يجعل تـاريخ وفاة الزبيدي قـريبا من سنة 380هـ: (مات الـزبيـدي بإشبيليــة في جمــادى الأولى سنــة تسع وسبعين وثلاثمائة ، كذا ذكر ابن بشكوال... قـال الحميدي: توفي قريبا من ثمانين وثلاثمائة).(44)

---

43) الفصوص ص: 25أ.

44) معجم الأدباء 18/180.



ومراعـاة لتاريخ وفاة الزبيـدي، وترجيحا لكون تـاريخ خروج صاعد من بغـداد قد كان سنة 374هـ، فإن الزمن الذي استغرقته رحلتـه من بغداد إلى الأنـدلس سيكون خمس سنـوات. وقد تفيـد العبارة التي وردت في مقـدمة الفصوص، عنـد حديث صـاعد عن فضل المنصور عليه: (... ولم تقلني أرض...) أنـه خرج من بغداد قـاصدا قـرطبة، دون أن يفكـر في الإقـامة بأرض أخـرى؛ إلا أن مفهوم نفس العبارة يـوحي بأنه حاول الإقامـة في البلاد التي مر بها فلم تطب لـه، إلى أن ألقى رحله في أرض المنصـور. والغريب أن كل المصادر باستثنـاء فهرسة ابن خير والنفح، تذكـر أنه وفد على ابن أبي عامـر بالأندلس، دون أن تشير إلى حلـوله ببلدة من البلاد الفاصلـة بين العراق والأندلس، ولا إلى الطريـق الذي سلكه منذ خروجـه من بغداد إلى أن وصل إلى قرطبـة، رغم أن صـاعدا أقام مدة قـد تكون خمس سنوات بمصر، قبل أن يستأنـف الرحلة إلى الأندلس. وقد اكتفى المقري بالإشارة المقتضبة إلى أن صـاعدا (قدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة 380هـ).(45) وخلافا لذلك انفرد ابن خير بنقله خبرا مسهبا، يدل دلالة واضحة على أن صـاعـدا أقام مدة طويلة بمصر، قبل وصوله إلى الأندلس. وقد ورد هـذا الخبر عرضـا، عند حديث ابن خير عن سند رواية كتاب المـداخل في اللغة لأبي عمر الزاهد: (كنت أقرأ المداخـل على ابن خشخاش وصاعد اللغـوي حاضر... وكان صاعد قرأ المداخل بمصر على الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل... المعروف بابن حنزابة، عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز... وكـان ابـن حنـزابـة لا يـفـارق صـاعـدا يسامـره...).(46)

45) نفح الطيب 4/ 96.

46) فهرسة ابن خير (358 ـ 359).

وإذا كان الخبر يفيد أن صاعدا قرأ كتاب المداخل في مصر على الوزير ابن حنزابة الأديب المحدث الذي راسل السيرافي والدارقطني، فإن هذه القراءة نفسها لا تهمنا في حد ذاتها الآن، وإنما يهمنا منها دلالتها على أن صاعدا أقام بمصر الزمن الكافي لقراءة المداخل، والاستفادة من علم الوزير ابن حنزابة. أما مسامرة صاعد للوزير فستكون دليلا على أن ابن حنزابة قد تعلق بصاعد وأسماره... وإذا كانت الأسمار مما يرتاح إليه رجال السياسة في مجالسهم الخاصة، فإن من المفروض أن يكون صاعد قد أقام بمصر زمنا كافيا، لإشباع نهم ابن حنزابة إلى السمر. وقد يجوز لنا أن نتساءل عن دلالة إقامة صاعد في مصر، أكانت رغبة من صاعد في الاستقرار بها، أم أن تعلق الوزير به هو الذي جعله يطيل الإقامة بها؟ إننا لا نستطيع أن نجيب إجابة دقيقة عن هذا التساؤل، مادام الاستقرار بالأندلس قد تم بعد الإقامة بمصر؛ ورغم ذلك نستطيع الاطمئنان إلى أن صاعدا عندما خرج من بغداد ناجيا بنفسه، لم يكن يقصد الاستقرار عند المنصور دون غيره من كبار رجال السياسة في عصره، وإن كانت عصا الترحال قد ألقيت في بلاطه.

3) الوصول إلى الأندلس وقسوة المواجهة :

لعل ابن الخطيب ينفرد بجعله صاعدا من الشعراء الذين رافقوا المنصور في غزواته لبلاد الإفرنج سنة 374هـ:(47) «والذي صح أنه حضر ذلك أبو عبد الله محمد بن الحسين الطبني، أبو القاسم الحسين بن الوليد المعروف بابن العريف، أبو الوضاح بن شهيد عبد الرحمان بن أحمد، أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي... قال المؤرخ: هؤلاء من حفظته منهم».

47) الإحاطة 2/ 106 و107.



وإذا كان صاعد كما يذكر ابن الخطيب قد رافق المنصور في هذه الغزوات، فإن تاريخ وصوله إلى الأندلس يجب أن يكون سابقا لسنة 374هـ، وهو استنتاج يضعفه أن كل المصادر التي ترجمت لصاعد تشير إلى أن وفوده على المنصور كان في حدود 380هـ. إلا أن هذا التاريخ الذي تذكره المصادر يظل مقيدا بتاريخ وفاة أبي بكر الزبيدي في جمادى الأولى سنة 379هـ، اعتبارا لكون الزبيدي قد ناظر صاعدا أمام المنصور، عند وفوده عليه، كما تذكر المصادر، وكما يذكر صاعد نفسه في الفصوص.

وإذا كانت المصادر التي تحدثت عن وصول أبي علي القالي إلى الأندلس، قد أشارت إلى الحفاوة التي قوبل بها هذا الوافد المشرقي، وإلى الموكب الفخم الذي رافقه حتى وفوده على الخليفة الناصر، تنفيذا لأمر هذا الخليفة الذي كان ينتظر وصول ضيفه الأديب، فإن المصادر التي تحدثت عن دخول صاعد إلى الأندلس، لا تشير إلى أي استقبال يمكن أن يكون صاعد قد خُص به عند وصوله إليها. ولا يفسر هذا إلا بكونه قد دخل الأندلس دون أن يكون أهلها ينتظرون وصوله، خلافا لوصول القالي الذي كان منتظرا. وسكوت المصادر على الظروف التي وصل فيها صاعد إلى الأندلس، يجعلنا نفترض أنه لم يتصل بالحاجب المنصور إلا بعد أن اتصل ببعض الوزراء وكبار الحكام في الأندلس. وقد ذكر ابن بسام أن صاعدا اتصل أول دخوله الأندلس بالوزير عبد الله بن مسلمة،(48) وكان ابن مسلمة هذا المسؤول عن أرزاق الشعراء ورواتبهم في بلاط المنصور، فلا يستبعد أن يكون اتصال صاعد بهذا الوزير، عند دخوله الأندلس، قد كان من أجل الوصول إلى بلاط الحاجب. إلا أن المنصور - وإن لم يكن قد احتفل بوصول صاعد علنا، لعدم علمه بوصوله - قد خصه

48) الذخيرة 4 - 1/10.



بحفاوة وعناية بالغتين، عندما وفد عليه، فأكرمه «وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه»،(49) إعجابا بعلمه وظرفه. لكن هذا الإكرام لم يجنب صاعدا شر المواجهة التي واجهه بها أدباء قرطبة، الذين كانوا يعتبرون تلمذتهم لأبي علي القالي، إجازة علمية تغنيهم عن غيره من علماء المشرق، بل وتجعلهم أندادا لهم. كان على صاعد أن يثبت للمنصور وأدباء مجالسه أنه عالم لا ممخرق. وقد نقل ابن بسام عن ابن حيان إشارته إلى هذه المواجهة التي واجه بها علماء قرطبة العالم المشرقي الوافد، فقال: «وقد أجرى ابن حيان ذكره فقال: ولما دخل قرطبة دفعوه بالجملة عن العلم باللغة، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه، ولذلك ما رضيه أحد من أهلها أيام دخوله إليها، ولا رأوه أهلا للأخذ عنه والاقتداء به».(50) ورغم اختلاف المصادر، في صياغة(51) خبر هذه المواجهة، تنبئ كل الأخبار التي توردها، عن الموقف المعادي الذي وقفه أدباء الأندلس من هذا العالم المشرقي الوافد: «اجتمع عند المنصور بن أبي عامر أعيان الأوان كالزبيدي والعاصمي وابن العريف ومن سواهم، فقال لهم المنصور: هذا الرجل الوافد علينا صاعد، يزعم أنه متقدم في هذه الآداب التي أنتم سرجها الضاحية، وأهلتها السارية، وأحب أن يمتحن ما عنده، فوجه إليه ودخل والمجلس قد احتفل فخجل، فرفع المنصور مجلسه وآنسه، وسأله عن أبي سعيد السيرافي فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه. فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره فيها من جواب، واعتذر أن النحو ليس جل بضاعته ولا رأس صناعته، فقال له الزبيدي: فما تحسن أيها الشيخ، قال: حفظ الغريب. قال: فما

49) جذوة المقتبس ص: 223.

50) الذخيرة 4 ـ 1/9.

51) انظر مثلا ما أورده الحميدي مسندا إلى العاصمي الذي كان من بين من امتحنوا صاعدا عند وفوده على المنصور: الجذوة: ص: 225.



وزن أولق؟ فضحك صاعد وقال: أمثلي يسأل عن هذا؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب. قال الزبيدي: قد سألناك ولا نَشُك أنك تجهله. فتغير لونه وقال: أفعل. قال الزبيدي: صاحبكم ممخرق...».(52) وقد أرخ صاعد نفسه لهذه المواجهة التي استمرت طويلا، في فصين من فصوصه، أورد فيها نموذجا للتحدي العلمي الذي كان تلامذة القالي يواجهون به صاعدا: «ولما وردت حضرة مولانا المنصور أبي عامر أطال الله بقاءه، وراقه ما افْتَرَهَ من علمي، أحب أن يعرضني على علماء مصره ليعلمهم أن اصطناعه صادف مكانه، وأن إحسانه حل مَعَانَه، فاستحضر أيده الله الزبيدي والعاصمي وأبا عمرو البصير، وغيرهم من جهابذة العلم. ونازعني الكلام أبو بكر الزبيدي إلى أن سألني عن وزن أيل... ثم سألني عن تصريفه في وجوه اللغة فقلت...».(53) ويقول صاعد في الفص الآخر: «وسألني أبو بكر الزبيدي رحمه الله بحضرة مولانا المنصور أيده الله عن قول الراعي: كدخان مرتجل، وعنده الوزير سلمة وأبو عمرو البصير النحوي وعدة من أهل الفهم، فسبقني أبو عمرو إلى الجواب وقال: المرتجل الذي يجمع رجلا من جراد، فقلت عندي زيادة... ثم قلت للزبيدي ما تذكر في الرجل؟ فذكر ما حضر ذكره، فقلت: عندي زيادات، فقال مولانا أيده الله: ليأخذ كل واحد منكما شيئا من الرق وليكتب ما يعرفه».(54) لقد كانت المقابلة التي قوبل بها صاعد، طبيعية في بيئة يحس علماؤها فيها، بأنهم مُغنُّو حَيٍّ لا يُطربون. وقد شهد على هذا التضايق من وفود المشارقة، العبارة التي علق بها ابن رفاعة الأندلسي على خطأ القالي في رواية بيت عبدة بن الطبيب، قائلا: «مع هذا يوفد على

52) الذخيرة 4ـ 1/ 14 ـ 15.

53) الفصوص ص: 25أ.

54) الفصوص ص: 42ب.



أمير المؤمنين، وتتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط الصبيان فيه».(55) لكن يبدو أن مزاج صاعد المائل إلى التحدي وإظهار التفوق، كان سببا في إذكاء نار هذه المواجهة. فإذا كان القالي قد استطاع أن يخفف من حدة عداء علماء الأندلس له، بتواضعه أمامهم، وتجنبه مناظرتهم، واعترافه لهم بأن علمه علم رواية لا دراية،(56) فإن صاعدا ـ خلافا لما فعله القالي ـ كان يجعل من المجالس العلمية مناسبة لإظهار نبوغه وسعة علمه وتفوقه على غيره، دون أن يراعي الأثر الذي يخلفه هذا التباهي بسعة العلم في نفوس الحاضرين من العلماء، وفي نفوس خصومه، كما يدل على ذلك تحديه للزبيدي في الخبر المتقدم. وقد نقل صاعد نفسه في فصوصه، ما يفيد أن شيخه كان قد لامه على مبالغته في إظهار العلم والمعرفة مبالغة جعلت الوزير ابن العميد يظهر بمظهر العاجز عن إفحام غلام ناشئ: «... فقال الوزير: أتراني أرى هذا الغلام في الحلم... ثم قال: كم الولادة؟ فقلت: ولادتان... فأطرق مستوحشا من جوابي كأنه أراد أن يعيبني... وندم على سؤالي. فلما قمنا، لامني أبو سعيد رحمه الله على جوابي له عما سأل وقال: هلا تجاهلت له لتسرَّه بقصورك عما سألك».(57)

ويبدو أن لوم السيرافي لصاعد على مبالغته في إظهار علمه، كان خوفا على تلميذه، وتحذيرا له من أن يصبح علمه سببا في إكثار حاسديه، وقد كان الوزير ابن العميد، هذا الذي أغضبه صاعد بالإجابة عن كل ما سأله عنه: «أحسد الناس لمن خط

55) نفح الطيب 4/70.

56) انظر ما أورده ابن بسام عن إعجاب القالي بذكاء أهل الأندلس: الذخيرة 1 ـ 1/4.

57) الفصوص ص: 42ب ـ 43أ.



بالقلم، أو بلغ بـاللسان، أو فلج في المنـاظرة، أو فكه بـالنادرة، أو أغرب في جواب...»،(58) كما يصفه أبو حيان التوحيدي.

كان صاعد ـ إذن ـ عند وصوله إلى قرطبة، يقابل معاداة كبار علمـاء المنصور لـه بالتحـدي المفحم، مستفيـدا من خبرتـه التي اكتسبها من حضور مجالس المناظرة والجدال. ولم يكن تغربه ولا تفرده أمـام علماء الأندلس ليضعفـاه أو يرغمـاه على الاستسلام، فقد ظل صـاعد يواجـه مكايـد خصومه بـالتحدي العلمي، إلى أن استطاع أن يجعل مواجهتـه لخصومه تحديـا لعصر علمي بأكمله، أقصد تحديه لمدرسة أبي علي القالـي وتلامذته وأماليه، من خلال استئذانه المنصور في أن يملي الفصوص.

٧ ـ الحياة الجديدة بالأندلس :

1) ما بعد الامتحان: كان على صـاعد، رغم إكرام المنصور له، أن يتحمل نتائج المكـايد التي كادهـا له خصومه، قبل أن تتـاح له الفرصة التي مكنته من أن يثبت للحاجب أنه فوق التهم التي اتهمه بها خصومـه. وقد سنحت هذه الفرصة، عنـدما أوهم ابن العريف الحـاجب المنصور، أن البيتين اللـذين قـالهمـا صاعـد في وصف وردة لم تستكمل تفتحهـا مسروقـان من مقطـوعة لشـاعر آخـر: «وأدخل على المنصور يـوما وردة في غير أيـامها، لم تستتم فتح كمامها، فقال فيها صاعـد على الارتجال: .... فسر بذلك المنصور، وكان ابن العـريف حاضـرا، فحسده وجـرى إلى مناقضتـه، وقال لابن أبي عـامر: إن هـذين البيتين لغيـره، وقـد أنشدنيهمـا بعض البغداديين بمصر لنفسه وهما عنـدي على ظهر كتاب بخطه. فقال لـه المنصور: أرنيـه، فخرج ابن العـريف وركب وجعل يحث حتى أتى مجلس ابن بدر، وكان أحسن أهل وقته بـديهة، فوصف له ما

58) الإمتاع والمؤانسة 1/66 ـ 67.



جرى فقال: .... فطـار ابن العريف بها،(59) وعلقها على ظهر كتاب بخط مصــري، وورى وتحيل بمــداد أشقــر، ودخل بهــا على المنصور، فلما رآها اشتد غيظا على صـاعد، قال: غدا أمتحنه، فإن فضحه الامتحـان، لم يبق في موضع لي فيه سلطـان. فلما أصبح وجه عنـه بمجلس حفل، وقـد أعد طبقـا فيه سقائف مـن ضروب النـواويـر... فلما دخل صـاعـد مثل الطبق بين يـديـه، فقـال لـه المنصور: إن هذا يوم إمـا أن تسعد فيه معنا، وإما بالضـد عندنا، لأنه قـد زعم قوم أن كل مـا تأتي به دعوى، وقـد وقعت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق ما تـوهمت أنه مثل بين يدي ملك قبلي في شكله، فصفه بجميع مـا فيه، فقال صاعد بديهة.... فـاستغربت له يومئذ تلك البديهة، وكتبها المنصور بخطه، وكان إلى ناحية سقيفة فيهـا جاريـة تجـذف بمجـاذف ذهب لم يرهـا صـاعـد، فقال لـه المنصور: أجدت إلا أنك لـم تصف هذه الجارية، فقال.... فـأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثـوب... وأجرى عليه المراتب من ذلك اليوم ثلاثين دينارا، وألحق في ديوان الندماء...».(60)

والنص صـريح الدلالـة على أن صـاعدا لـم يصبح من ندمـاء المنصور إلا بعد مدة غير قصيـرة، اقتنع المنصور خلالها بأن ما اتهم به علماء مجالسه صاعدا، كـان كذبا. ولعل هذه الحادثة التي جعلته يلحق بالندماء ذوي الرواتب الجارية، كانت إعلانا عن فشل خصومه في الكيد له، وملء صدر المنصـور عليه، وبداية لمرحلة جديدة من حياة صـاعد في الأندلس مرحلة الشاعـر النديم العالم. وقد ترجم هـذا النجاح، بعد أكثر من خمس سنـوات من المواجهة بينـه وبين خصومـه، ببدايـة إملاء الفصـوص بأمر من الحـاجب المنصور، في ربيع الأول من سنة 385هـ. ويشاء الحظ لصاعد ـ

59) أي الأبيات التي كتبها ابن بدر.

60) الذخيرة 4ـ1/ 17 ـ 18.



إذ يبدو أنه كان محظوظا ـ أن تقترن هدية أهداها إلى المنصور، بانتصار الحاجب في بعض غزواته في ربيع الثاني(61) من سنة 385هـ، أي بعد البدء في إملاء الفصوص بشهر، وبأسره لعدوه «غرسية» الذي سمي الأيل المقيد الذي أهداه صاعد إليه باسمه، وكانت هذه الحادثة سببا في أن المنصور وهو تحت نشوة الانتصار، آمن بصفاء سريرة صاعد وحسن نيته، رغم ما وسمه به خصومه. فقد حكي أن المنصور قال بعد انتصاره: «إنه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلا لحسن نيته وسريرته وصفاء باطنه».(62) وكان هذا سببا في أن الحاجب رفع قدره «من ذلك اليوم فوق ما كان ...»(63). ويشاء الحظ لصاعد أيضا أن تصبح هذه الحادثة من العجائب التي تتحدث عنها المصادر.(64)

وقد ظلت حياة صاعد طيلة أيام حكم المنصور، حياة الشاعر المقدم، والنديم المصطفى، والعالم المقرب. ولم تكن الدسائس التي استمر الخصوم يحوكونها ـــ رغم ما حكي عنه من نوادر مسلية ـ لتقلل من حظوته لدى الحاجب. بل إن المنصور كان يجد في تفوق صاعد على خصومه أمامه، مدافعا عن نفسه ومتحديا، مناسبة للتسلي، كما يظهر من قول المنصور للشاعر ابن العريف، عندما تفوق عليه صاعد في وصف قصر الزاهرة: «... مالك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله...»(65).

2) موت المنصور وبداية النهاية: كان موت المنصور سنة 392هـ، بالنسبة لصاعد، نهاية لحياة استمرت 12 سنة تحت حماية ملك أكرمه وحماه ووقاه شر حاسديه وخصومه. ويبدو أن هذا

---

61) يجعل ابن بسام هذا الانتصار في ربيع الأول.

62) النفح 4/81 ـ 82.

63) النفح 4/81 ـ 82.

64) انظر مثلا الكامل في التاريخ 9/113.

65) نفح الطيب 1/582.



الإحساس بقرب نهاية المجد، بعد موت المنصور كان قويا في نفس صاعد. وقد تجلى عمق هذا التوجس، في اعتذاره للحاجب الجديد عبد الملك المظفر، عن حضور المجالس التي كان يعقدها. وهي مجالس، تكشف ـ كما يتضح من الأخبار التي تحكيها المصادر ـ عن أن عبد الملك المظفر كان ميالا إلى المجون مولعا بالشراب،(66) زاهدا في أهل العلم. ولا نعلم بالتدقيق السبب المباشر الذي جعل صاعدا يعتذر عن حضور هذه المجالس الماجنة، التي تعود حضورها في بغداد، وأيام حكم المنصور. غير أن هذا لا يمنعنا من أن نرجع اعتذاره للمظفر عن حضور مجالسه اللاهية، إلى الأسباب المحتملة الآتية:

أ) شيخوخته: يرجع أن صاعدا كان قد تجاوز الستين عندما تولى المظفر الحجابة، وإذا كانت هذه السن لم تمنعه من الاستمرار في حضور مجالس الحاجب المنصور قرينه الذي توفي وعمره 64 سنة، فإن حضور مجالس الحاجب الجديد الذي لم يكن عند توليه الحجابة قد جاوز الثامنة والعشرين، كان سيجعله ضحكة أمام ملك شاب، يقوى في مجونه ولهوه على ما لا يقوى عليه الشيوخ. ولا نستبعد أن مرض الشيخوخة قد تمكن مبكرا، من صاعد الذي ظل يلهو دون أن يجد في شراب الأندلس ومجالس اللهو بها، ما يعوضه عن خمور بغداد وأديرتها.(67) وقد تحدثت المصادر عن هذا المرض الذي أصاب صاعدا، وذكرت أنه كان العذر الذي اعتذر به النديم الشيخ عن حضور مجالس عبد الملك المظفر: «... وقال: إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولي الأمور بعده من ولده، وادعى وجعا

66) يؤكد هذا أنه قتل وزيره ابن القطاع في مجلس شراب.

67) انظر تعريض ابن شهيد به، وبملاهي بغداد التي كان صاعد يفتخر بها في الأندلس، الذخيرة 4ـ 1/26ـ 27.



لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ به على عصا، ويعتذر به في التخلف عن الحضور...» (68).

ب) حزنه على المنصور الذي آمنه وحماه، وخوفُه من أن يتغير عليه الملك الجديد الذي لم يكن حسب ما يحكى عنه، كثير التعلق بالعلماء والشعراء. والراجح أن صاعدا كان يخشى أن يجد كيد خصومه سبيلا إلى قلب الحاجب الجديد، فيفتك به، «وقد كان عبد الملك كثير التأثر بالوشاية سريع التقلب والغدر»،(69) كما يتضح من تغيره على فتاه طرفة، وأمين بلاطه عبد الملك الجزيري، ووزيره ووزير أبيه قبله ابن القطاع، وفتكه بهم.(70) وقد أكدت الأخبار التي تضمنتها بعض المصادر أن صاعدا ظل يعاني من بغض حاسديه له، طوال وجوده بالأندلس؛ فمما خاطب به الوزير ابن برد صاعدا قوله ذاكرا حساده: (بسيط)

1 ـ أبا االعلاء استمعْ تعريضَ ذِي مِقَةٍ
أهدي لك الودَّ محضاً غير مَقْطُوبِ

2 ـ أولاك محمدةً من بعد تجربة
لا يصلح الحمدُ إلَّا بعد تجريبِ

3 ـ تحصيلُ فضلِك للحساد معجزةٌ
وكُنْهُ علمكَ شيءٌ غيرُ محسوبِ (71)

ج) محاسبة للنفس، نبهها فيه موت ولي نعمته المنصور، فكانت سببا في توبته وزهده في مجالس اللهو التي شغف بها الحاجب الجديد. وقد عبر صاعد عن زهده في ما لا يليق

---

68) بغية الملتمس ص: 320.
69) دولة الإسلام في الأندلس ص: 564.
70) دولة الإسلام في الأندلس ص: 564.
71) الذخيرة 1 ـ 1/129.



بالشيب، في قوله لصديقه الوزير أبي حفص بن برد (بسيط):

يامن يُرَقِّع بالآمال ما خَرَقَتْ

يدَا الليالي قبيح صبوةُ الشِّيبِ (72)

هذه الأسباب، مضافة إلى وفائه لذكرى المنصور، جعلته يمتنع عن حضور مجالس الأنس مع عبد الملك المظفر. وقد أكد ابن حزم أن شيخه صاعدا «لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولي الأمور بعده من ولده».(73) غير أن اعتذاره عن حضور مجالس اللهو والشراب مع المظفر، لم يمنعه من أن يظل شاعره المادح، يهنئه في الأعياد،(74) ويسارع ـ خوفا على نفسه ـ إلى الدفاع عن جرائمه وتحسينها، كما يتضح من البيتين اللذين قالهما عند فتك المظفر بوزيره عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع الذي كان ممن انقطع إليهم صاعد: «وأمر(75) برفع رأس عيسى بباب الزاهرة... وأعظم الناس قتل عيسى لجلالة قدره، وسار منهم إلى الزاهرة خلق عظيم ينظرون إلى رأسه... وكان أبو العلاء، صاعد بن الحسن اللغوي منقطعا إلى عيسى، فكان أول من أنشد عبد الملك على سبيله من سرعة الانقلاب، شعرا يقول فيه: (بسيط)

1 ـ فتلك هامتُه في الجوّ ناطقةٌ

تحدّث الناس من آياتها عِبَرا

2 ـ مكتوبَةَ الوجه بالهنديّ يقرؤه

من ليس يقرأ مكتوبا ولا سطرا(76)

---

72) الذخيرة 1 ـ 1/130.

73) بغية الملتمس صفحة 320.

74) انظر بائيته في تهنئة المظفر بعيد الفطر، جذوة المقتبس ص: 224.

75) أي عبد الملك المظفر.

76) ابن حيان عن الذخيرة 1/1/128. وانظر بيتا من القصيدة أورده صاحب البيان المغرب 3/35.



وأظن أن سرعة الانقلاب التي وصف بها صاعد في الخبر تبدو مناقضة لما عرف عنه من طيب أخلاق، لكنه الخوف الذي أرغم كثيرا من معاصريه على إظهار غير ما يبطنونه في فترة رخصت فيها الأرواح، وأصاب الناس الأذى فيها من المقربين إليهم؛ ومع خوف صاعد هذا لم يتضمن شعره في ابن القطاع الحقد الذي تضمنته أبيات ابن دراج وهو يتحدث عن نفس الحادثة.(77)

ولعل هذا التحول في حياة صاعد، كان بداية لمرحلة رغب فيها صاعد في أن يتخلص من شخصية النديم ليصبح الشاعر المادح، والشيخ العالم المتفرغ لتدريس تلامذته الذين قدر لهم أن يصبحوا من كبار العلماء. ولا نعلم أكان صاعد في هذه المرحلة من حياته قد مال إلى العزلة رغبة فيها، أم هروبا من صخب المجالس، أم أن الناس هم الذين رغبوا عنه. ولكننا نعلم، أيّا كان الجواب، أن تلميذه ابن حيان قرأ عليه الفصوص متفردا في داره سنة 399هـ، وهي السنة التي انتهى فيها ملك المظفر بوفاته أو اغتياله، الذي كان بداية المرحلة التي أرغمت صاعدا على أن يدرك مستسلما أن المجد الذي بناه في بغداد ثم في الأندلس متحديا قد قوض.

3) أفول نجم :

كان تولي (شنجُول) الحجابة مكان أخيه المتوفى أو المغتال، واستصداره ولاية عهد الخلافة من الخليفة المحجوب هشام المؤيد، تحولا في تاريخ الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس. وكان هذا التحول شؤما أصاب صناعة الأدب، فأرغم المتأدبين على عرض بضاعتهم لدى حكام طارئين أعجموا من فرط بخلهم فصحاء الفصحاء. وإذا كان صاعد قد غادر بغداد هروبا من شر الفتن، فإن القدر يشاء لصاعد مرة ثانية أن يعيش

77) ديوان ابن دراج ص: 29.



شر الفتنة في بلـد كان اغترابه فيه هـروبا من الفتن. ولعل أول ما اكتوى به صاعد من شر الفتنة سقوط مجد ولي نعمته الوزير ابن مسلمة الذي كان قد أوصله إلى المنصـور، فقد سلم الوزير مدينة الـزاهرة معقل بني عـامـر إلى جيوش الثـائر على عبـد الرحمـان (شنجـول) محمـد بن هشـام بن عبـد الجبار بن عبـد الـرحمـان الناصر، الذي دخل قرطبة في غيـاب الحاجب عبد الرحمان، ليخلع الخليفة هشـاما المؤيد ويعلن نفســه خليفة، متلقبا بالمهـدي سنة 399هـ، ويعلن بعد ذلك موت الخليفـة المخلوع هشام، بعد أن قتل حاجبه عبد الرحمان مأسورا. ولم يكن على صاعد وهو الذي تعود التحدي أن يتجرع مرارة زوال نعمة صديقه الوزير ابن مسلمة، بل كان عليه أيضا أن يحمي نفسه متقربـا إلى الخليفة الجديد بمدائح تغنى فيها على مضـض بالجرائم التي ارتكبهـا هذا الخليفـة الذي جعل لـرؤوس أعـدائه ثمنا، ثم غـرس من هـذه الـرؤوس حديقـة اشتغلت بها النظارة (وذكـرها شعراؤه)(78)؛ وكان مما قالـه صاعد في أول هذا المديح (وافر):

جلاء العين مبهجة النفوسِ   حدائق أطلعت ثمر الرؤوسِ(79)

وشهد صـاعد وهـو في قرطبة كل أحـداث الفتنة الـدامية التي عرفتهـا سنة 400هــ، شهـد تـولي سليمـــان بن الحكم بن عبـد الرحمـان الناصر الخـلافة، وتلقبـه بالمستعين، بعد فـرار الخليفة المهـدي الذي حـاول قبل أن يفـر بنفســه إفشـال خطة سليمـان، بإظهاره الخليفـة المخلوع هشامـاً المؤيـد، بعد أن كان قـد أخفاه وزعم موته.

وشهد عودة المهـدي المخلوع من جديد إلى الخـلافة، مسترداً قرطبـة بمساعدة النصارى في ذي القعـدة سنة 400هـ، بعد فرار

78) الذخيرة 2/1/27.

79) الذخيرة 1/1/27.



سلميان. كما شهد ظهور حاجب جديد للخلافة، هو الفتى العامري واضح، الذي كان قد أعلن ولاءه دون باقي الفتيان العامريين للمهدي بعد مقتل عبد الرحمان (شنجُول). وتنتهي سنة الفتنة هذه (400هـ) بتآمر الفتى واضح مع بعض الفتيان العامريين على الخليفة المهدي، فقد أخرج هؤلاء الفتيان الخليفة هشاما من محبسه وأجلسوه خليفة من جديد، وأتوا بالمهدي في ذي الحجة من نفس السنة فقتل أمامه؛ وتولى واضح الحجابة للخليفة هشام المؤيد. لكن هذا الخليفة الذي كان منذ حجبه المنصور عن الناس، لا يخرج من قصره إلا متخفيا، وجد في هذه الأحداث فرصة مكنته من أن يتخلص من وصاية الحاجب، ويخرج إلى الناس، ويظهر في شوارع قرطبة(80).

وتضطرب الأحوال في عهد هشام المؤيد وحاجبه واضح، ويقتل القائد علي بن وداعة الحاجب واضحا، ويتولى أمر الشرطة محاولا بحزمه وشدته القضاء على الفتن التي عرفتها قرطبة سنة (401هـ).

ولا يتوقع أن تكون أحوال صاعد وهو يعيش وسط هذه الفتن حسنة؛ فبعد الغنى الذي اكتسبه أيام المنصور وخلفه، نجد حاله وقد تجاوز السبعين، تسوء بعد أن عصفت الفتن بكل ما كان يملكه. وتزداد أحواله سوءا إلى أن يصبح عاجزا عن أداء الديون التي تراكمت عليه. ورغم ما انتهت إليه أموره والسن التي بلغها، لم يكن صاعد يحبس نفسه على أن يطلب المعونة لدى أغتام أصعَدتْهم حظوظُهم أيام الفتن، فحلوا محل الفضلاء الذين كانواً ملاذ صاعد ومغنيه عن مد اليد. لذا ظل صاعد رغم فقره يتعفف، إلى أن استولى القائد العربي أبو حسن علي بن وداعة على الأمور، فكان أملا ونورا لاح لصاعد وهو يرزح تحت ثقل الدين. فكتب إليه

80) دولة الإسلام في الأندلس 596.



يستغيثه، دون أن يفوته تنبيه القائد إلى أنه ما كان ليطلب عونه لو لم يكن من ذوي الفضل: «وكان صاعد قد طولب في أخريات تلك الدولة، وانتهت به الحال إلى أن أغرم في خبر طويل مائة مثقال. فاستغاث علي بن وداعة أحد الفرسان الأبطال ونبهاء الدولة... وكتب إليه رقعة قال فيها: إني على وهني، وما أخذه الدهر مني، ونحته من قدحي، لأربأ بالفضل أن ينحط إلا في مصابه، ويحل رحله في غير معانه؛ فلم أحوِّم على أحد طير رجائي، ولا رمقت بأملي إلا من نوه الله باسمه... فسبحان من جعل سنانك عدل لسانك... خبيئة أذاعها الله منك، وذخيرة أبرزها الدهر بك»(81).

ولم يقتصر صاعد على مراسلته، بل صاغ فيه مديحا توسل به، وبالقرابة التي تربط ربيعة بسليم، إلى الممدوح مستغيثا به، مستجيرا إياه(82) (وافر):

1 ـ أبا حسنٍ ربيعةُ من سُلَيْمٍ
سنانٌ زانَ عاليةَ الرماح

2 ـ وإني عائذٌ بك من هَنَاتٍ
نحتْن دعائمي نحْتَ القداحِ

3 ـ فكِرَّ على ابن عمك وانتشلْهُ
فليس حِمَى ابن عمك بالمُباح

4 ـ فإنَّ الجارَ عندك بين جنبيْ
عُقابِ الدُّجْنِ كاسرةِ الجَناح

وكان مما وصف به القفطي صاعدا أنه كان: «حسن الطريقة في استخراج ما في أيدي الناس من الأموال، جميل التوصل إلى ذلك»،(83) لكن يبدو أن روحه المرحة التي كانت تحرك أريحية

81) الذخيرة 4/1/53ـ 54.
82) الذخيرة 4/1/54.
83) إنباه الرواة 2/86.



الفضلاء قد اختفت، لتترك المكان ليأس وسوداوية بدأت تغزو قلبه منذ توفي الحاجب المنصور بن أبي عامر، إلى أن تمكنت منه بحلول الفتنة. فرسالته إلى ابن وداعة ومديحه فيه ذهبا سدى:(84) «فما انتفع بعلي بن وداعة، ولا كانت له فيه شفاعة». ولا ننفي أن يكون بخل من قصدهم صاعد أيام الفتنة مستغيثا، قد كان وراء خيبة آماله فيهم. ولم تكن حال صاعد أحسن مع الخليفة هشام المؤيد الذي تجبر بعد أن تخلص من حجابه، فلم يكتف بأن منع عطاءه عن صاعد، بل تجاوز ذلك إلى أن منعه من السفر والخروج من الأندلس، مما جعل خلال الفقر والمكروه تجتمع على العالم المشرقي الشيخ، إلى أن افتضح في أهله وولده(85) «... وتناصرت خلال المكروه فيما بعد على صاعد بارتجاج الفتنة، غلاء سِعْرٍ ورِخَصَ شِعْرٍ، حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله. وبخل هشام على ذلك كله بتسريحه والإذن له في الانطلاق عن الأندلس فرقا من خبث لسانه. فخرج مستخفيا وجاز بشلطيش...». ولعل صاعدا كان يقصد إلى هذا العنت الذي لقيه من الخليفة هشام، عندما لمح في رسالته إلى ابن وداعة، إلى تخوفه من مكايد يكيدها له خصومه في قرطبة: «وفي البلد من وترني فاستقاد منه لساني، وظلمني فانتصر لي حماةُ كلماتي، فأرسلتها فيه شُعْثاً قِبَاحاً، موروثةً في الأعقاب، خالدة على الأحقاب، أشْرَدَ من نعامة، وألْزَمَ له من طوق الحمامة؛ فهو يبغيني الغوائل، ويبث لي الحبائل».(86)

فلا يستبعد إذن أن يكون الخليفة هشام قد نقم عليه، بإغراء من الخصوم الذين وجدوا في عصر الفتنة فرصة صالحة للانتقام

84) الذخيرة (4/1/54).

85) الذخيرة (4/1/55).

86) الذخيرة (4/1/54).



من صــاعد، بعـد أن ذاقـوا من سخريتـه ولســانه الكثيـر. وانتهت مأساة صــاعد أيام هشام المـؤيد بفراره من قرطبـة مستخفيا في أوائل سنة 403هـ، تاركـا بعض أهله وولده، وتوجهـه إلى صقلية حيث اتصل بصاحبها. وهناك فـارق بعض البؤس، واستعاد بعض النعمة، حسب ما يتضح من أسفاره الـلاحقة، لا مما ورد في قول ابن بســام: «فخرج مستخفيـا، وجـاز بشلطيش على يد أبي زبيـد البكري رئيسها سنـة ثلاث وأربع مائة. فاتصل بصــاحب صقلية، وفارق البؤس، وراجع النعمة»(87).

ولم تطل إقامة صاعد في صقليـة على ما يبدو، فقد عاد العالم الشيخ إلى قـرطبة، بعد تغلـب سليمان المستعين عليها فــي شوال سنة 403هـ، وقـتـــلـه للخليفة هشام، وجلوسه من جـديد خليفة على الأندلس. وقـد ذكر ابن بسام أن صاعدا عـاد من صقلية إلى الأندلس ليستخرج «من تخلف بها من أهله وولده»(88)، لكن طمعه في عطـاء الخليفة الجـديـد سليمـان المستعين، يوحي بـأنه كـان متعلقا بقرطبة وفضلائها، وإن كان كثير منهم قد نكبوا.

وقد نقل ابن بسام رسالة لصاعـد بعثها إلى الوزير أبي جعفر بن الدب، ليشفع للوزير المنكوب عند الخليفة الجديد سليمان. وقد أشرت من قبل، إلى أن الـوزير ابن مسلمة الذي كـان مشرفا على رواتب الشعراء والنـدماء وشؤونهم في بلاط المنصـور، هو الذي أوصل صاعدا إلى الحاجب، عندما وصل إلى الأندلس سنة 379هـ قـادما من المشـرق. فهل كـان صاعـد يرجـو من عـودة الوزيـر المنكوب إلــى الوزارة عـودة مجده وثرائه فــي قرطبـة؟ لا نستبعد ذلك، فصاعد قد حاول أن ينوه بكل خصال الرئاسة التي اتسم بها الـوزير، ليقنع الشفيع بـالشفاعـة لـه لدى الخليفـة سليمان، كمـا

87) الذخيرة (4/1/55).

88) الذخيرة (4/1/55).



يتضح من الرسالة التي كتبها إلى ابن الدب، يقول ابن بسام: «اتصل أول دخوله للأندلس، بالوزير عبدالله بن مسلمة. فلما نكب استعطف له الوزير أبا جعفر بن الدب ليشفع له عند الخليفة سليمان، وخاطبه في ذلك بعدة رسائل... منها فصل يقول فيه: «لما جمع الله طوائفَ الفضل عليك، وأذْلق بك الألسنَ، ونُفِضتْ إليك علائق الرِّحال، لم أجد لابن مسلمة حين عضَّه الثقافُ، وضاق به الخناقُ، وانقطع به الرجاء، وكبا به الدهر ملجأً غيرك. فعطْفكَ على والهٍ نبَّهه النحسُ من سِنَةِ السعد، وأيقظته الآفاتُ من رقدة الغفلة، ورشقته سهامُ الزمان بصنوف الامتهان، حتى لقَّب المنية أمنيةً، وسمى الموت فوتا.... فحنَانَك عليه وعليَّ فيه، واذْكُرْ تعلقَ الآمال به، وتعلقَ أمِله بك، وحاجةَ الرؤساء إليه، وحاجته إليك» (89).

وإشارة صاعد إلى تعلق آماله بابن مسلمة، وتعلق أمل ابن مسلمة بالوزير الشفيع، يؤكد أنه كان ينتظر من عودة ولي نعمته الأول الوزير ابن مسلمة إلى الرئاسة عودة نعيمه وثرائه، لكنه كان متخوفا من أن تكون الرسالة التي بعثها إلى ابن الدب متشفعا عاجزة عن إقناعه، لذا نجده يخاطبه في خاتمة الرسالة قائلا: «فإن خبتُ من طِلاَبك نَثْراً، قلت نظاما (كامل):

1 ـ يَاأحمدُ بنَ سعيدٍ الْعَلَمَ الذي
أَوْفَى فللحدثان عنه زَلِيلُ

2 ـ أَخذ العقابَ من ابن مسلمةَ الذي
حكمَ القضاءُ به وغالتْ غولُ

3 ـ لم تبقَ غيرُ حُشَاشَةٍ إن أُدْرِكَتْ
خلصتْ وإن أَسْلَمْتَ فَهْوَ قتيلُ

---

89) الذخيرة 10/1/4.



4 ـ بيديك بعد الله فَكُّ إسارِه
وعليك في استنقاذه التعويلُ

5 ـ فارحم أنينَ أبي بناتٍ لم يُصَبْ
لدموعهن على الخدود مَثِيلُ

6 ـ فاجعلْه في عينيْ يديك فإنها
سورٌ تَحُوطُ المستجيرَ وغِيلُ

7 ـ ما ذَنْبُه إلا الزمانَ فإنّه
رِخْوُ اليدين بمن يُحبّ ملولُ(90)

ولم يكن تخوف صاعد من أن يرد ابن الدب شفاعته وهماً، فقد كانت هذه الرسائل كما قال ابن بسام «رُقًى لم تنفع، ووسائل لم تنجع».(91)

ولم تكن حاله مع الخليفة سليمان المستعين بأحسن منها مع الوزير ابن الدب، فقد «تعرض أيضا لمديح سليمان، فما نجح معه ولا أفلح؛ وقد كان استطرف أول دولته قَرَئِمَه رِئْمَان العَلُوقِ، ولم يَقْرِه قَرْضاً، لاستحالته عن فِعل الجميلِ جُملة».(92) لقد وجد صاعد نفسه وقد خاب ظنه في سليمان مرغما على أن يرحل من جديد عن قرطبة، إلا أن رحيله هذا لم يكن رحيل فرار، كما فعل أيام هشام، لكنه رحيل أديب يئس، كما يئس من مكث في قرطبة من الأدباء، من نوال خليفة تشهّى المديح وخاف من صلة المادح، فكانت فترة ولايته فترة احتضار الأدب، في مدينة نبغ فيها أكبر أدباء الأندلس: «لما استوسق الأمرُ بقرطبة لسليمان... تعرض لمدحه من كان ثوى بقرطبة يومئذ من بقية الشعراء العامريين، رجاءً في ثَمَدِ نواله، فصاغوا في مديحه أشعارا حسنة، استذموا

90) الذخيرة 4/1/11.
91) الذخيرة 4/1/10.
92) الذخيرة 4/1/54.



فيها إلى الدين والمروءة، وأنشدها أكثرهم في مجلس حفله علانية؛ فأصغى وهشَّ ثم غل المديح، فما بلَّ ولا رشَّ. وتم لذلك تقويضُ الجماعة عن حضرة قرطبة، وتخلى الكثيرُ منهم عن ولايته، فامَّحى لذلك ررسْمُ الأدب بها، وغلب عليها العجمة، وانقلب أهلها من الإنسانية المتعارفة إلى العامية الصريحة».(93)

رحل صاعد إذن عن قرطبة للمرة الثانية، فكان رحيله عنها شاهدا على تقوض الصرح العلمي والأدبي الشامخ الذي بناه الناصر والحكم والحاجب المنصور، وهو الصرح الذي لم يجد من بين كل رجال السياسة اللاحقين من يستطيع إعادة بنائه.

3) الهجرة الجديدة والبحث عن المجد الضائع :

أ) في بلاط مجاهد العامري :

ذكر ابن بسام أن صاعدا عجل الانكفاء إلى صقلية،(94) بعد يأسه من ثمد سليمان المستعين. والتاريخ يذكر أن سليمان المستعين تولى الخلافة للمرة الثانية من شوال سنة 403هـ، إلى أن بويع علي بن حمود بالخلافة في محرم سنة 407هـ. والراجح أنه ـ اعتمادا على إشارة ابن بسام، إلى معاودة صاعد للنعمة ـ سيكون قد غادر قرطبة سنة (404هـ أو 405هـ). لكن وجهته لم تكن نحو صقلية، كما قال ابن بسام، فبعض الأخبار التي تتضمنها مصادر قريبة من عصر صاعد، تفيد أنه وفد على مجاهد العامري الذي استقل بدانية، ثم على منذر بن يحيى التجيبي، قبل أن تنقطع أخباره. وإذا كنا قد رجحنا أنه غادر قرطبة سنة (404 أو 405هـ)، فإن ذلك يعود إلى موضوع رسالة بعثها إلى مجاهد العامري يهنئه بالانتصار على خيران، الذي استقل بالمرية سنة 405هـ.

---

93) الذخيرة 1/1/67.

94) الذخيرة 4/1/55.



فإذا كان صاعد قد كتب هذه الرسالة، ليتقرب إلى مجاهد تمهيدا للوفود عليه، فإنه سيكون قد مكث في قرطبة إلى ما بعد سنة 405هـ، وهي السنة التي تولى فيها خيران الحكم بالمرية. وإذا كان قد كتب هذه الرسالة وهو بدانية عند مجاهد، فإنه من المحتمل أن يكون قد غادر قرطبة سنة 404هـ إلى دانية، حيث أقام إلى ما بعد تأسيس خيران لإمارته سنة 405هـ. وأيّا كان تاريخ الخروج من قرطبة، فإن صاعدا غادرها متجها نحو دانية، لا نحو صقلية. ويبدو أن بلاط مجاهد العامري الذي أصبح بعد استقلاله بدانية غاصا بأهل العلم والأدب أمثال ابن سيده، قد جذب إليه صاعدا، وأغراه باستعادة مجده الضائع. وكما استثقل أدباء قرطبة وفود صاعد على المنصور، استثقل بعض أدباء بلاط مجاهد العامري وفود هذا الضيف المشرقي على أميرهم، فابن خلكان يذكر أن صاعدا «لما دخل مدينة دانية، وحضر مجلس الموفق مجاهد بن عبد الله العامري أمير البلد، كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفق: دعني أعبث بصاعد. فقال له مجاهد: لا تتعرض إليه فإنه سريع الجواب. فأبى إلا مشاكلته. فقال له بشار ـ وكان أعمى ـ: ياأبا العلاء. فقال: لبيك، فقال: ما الجرنفل في كلام العرب؟ فعرف أبو العلاء أنه قد وضع هذه الكلمة، وليس لها أصل في اللغة. فقال له بعد أن أطرق ساعة: هو الذي يفعل بنساء العميان، ولا يفعل بغيرهن، ولا يكون الجرنفل جرنفلا حتى لا يتعداهن إلى غيرهن. وهو في ذلك كله يصرح ولايكني. قال: فخجل بشار وانكسر، وضحك من كان حاضرا. فقال له الموفق: قلت لك لا تفعل، فلم تقبل».(95) ولا نعلم بالتدقيق كيف كانت علاقة صاعد بمجاهد وأدباء دانية، ولكننا نطمئن إلى أنه مكث بها إلى ما بعد 408هـ، وهي السنة التي ظهرت فيها إمارة التجيبيين في

95) وفيات الأعيان 2/182.



سرقسطة. ولعل هذه الإقامة الطويلة نسبيا في دانية، كانت فرصة مكنت صاعـدا من استئناف إملاء دروسه على الـراغبين في الأخذ عنه، من الأدبـاء والتلاميذ. ففي دانيـة روى ابن سيده عن صـاعد كما سنـرى. ولا نعلم أيضا السبب الذي جعل صـاحب الفصوص يترك دانيـة بعد استقراره بهـا، لكن ما يـروى عن مبالغة مجـاهد الـذي كـان من أكثر ملـوك الطـوائف علمـا وأدبا في نقـد أشعـار مـادحيه وتصحيـح أخطائهم، يمكن أن تكـون السبب الـذي جعل صاعدا يترك دانية.

ب) في بلاط منذر بن يحيى التجيبي :

استقر هذا الأمير بسرقسطة سنة 408هـ، وقصده ابن دراج في هذه السنـة نفسها، وأقـام عنده وعند ابنـه من بعده حـوالي عشر سنوات، خرج بعدها مـن سرقسطة ليظهر سنة 419هـ بدانية في بـلاط مجاهـد العامـري. ويهمنا من ابن دراج ونحن نتحـدث عن خروج صـاعد من دانية، أنـه نظم مدحـة في منذر بن يحيى هنأه فيها بـوفود صاعد البغـدادي عليه، كما يتضح من الـديوان، ومن قـول ابن بسام وهـو يتحـدث عن قصـائد ابن دراج: «ولـه مـن أخـرى في منـذر بن يحيى حيـن قـدم عليـه صاعـد اللغـوي: (طويل)

1 ـ عَـلاَ فَحَوَى مِيـرَاثَ عادٍ وتُـبَّـعٍ
بِهِمَّتِـهِ الْعُلْيَـا ونِسْبَتِـهِ الـدُّنْيَـا

2 ـ وأهْـدَتْ له بغـدادُ ديوانَ عِلْمِهـا
هـديَّةَ مَنْ وَالَى وتُحْفَـةَ مَنْ حَيَّى[96]

96) الذخيرة 71/1/1، وانظر ديوان ابن دراج 143.



واعتبارا لكون التاريخ المحتمل لوفاة صاعد هو 417هـ، كما يذكر ابن حزم، وكون ابن دراج قد وصل إلى سرقسطة سنة 408هـ، يجب أن يكون تاريخ وفود صاعد على منذر غير متأخر عن 417هـ، ولا سابق على 408هـ. ومراعاة لكون القطيني الذي رحل إلى صقلية سنة 414هـ(97) قد روى عن صاعد بها قبل أن يستأنف رحلته إلى المشرق، يجب أن يكون تاريخ وفوده على منذر بسرقسطة قبل سنة 414هـ، وبعد سنة 408هـ. وإذا نحن قابلنا هذا التحديد بكون ابن سيدة قد أخذ عن صاعد وهو في دانية مقر حكم مجاهد العامري، وبكون صاعد قد أملى شعر ابن حجاج وابن سكرة وهو بسرقسطة، أمكن التوصل إلى تاريخ تقريبي لخروج صاعد من دانية ووفوده على منذر بسرقسطة.

تشير المصادر إلى أن ابن سيدة توفي سنة 458هـ، وقد بلغ الستين، وهي إشارة تجعل تاريخ ميلاده ضمنيا قريبا من 398هـ، أي قبيل الفتنة القرطبية. فإذا نحن نظرنا إلى نوع الكتب التي صرح ابن سيده بأنه رواها عن شيخه صاعد وهي: الصفات والأسماء، والغريب المصنف، وإصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ، وكتب المجاز، وافترضنا أن ابن سيده قد أنهى أخذه عن صاعد وهو في الرابعة عشرة من عمره بعد انتهائه من حفظ القرآن، ودراسة علومه وروايته الموطأ والبخاري ثم كتاب سيبويه، فإن خروج صاعد من دانية سيكون سنة 412هـ، أي بعد انتهاء ابن سيده من الأخذ عنه، وبعد سنة 410هـ التي أشار إليها بعض المؤرخين باعتبارها تاريخ وفاة صاعد بصقلية.

97) الذيل والتكملة القسم الخامس ـ السفر 2 ـ صفحة 518.

خرج صاعد إذن من دانية سنة 412هـ، قاصدا منذر بن يحيى أميرسرقسطة؛ ويبدو أنه قصد هذا الأمير تلبية لرغبته. وكان هذا الأمير الذي حصل بعض العلم معروفا بعنايته بالعلماء والشعراء. ويؤكد هذا الاحتمال أن ابن دراج جعل من وفود صاعد على منذر، مناسبة لتهنئته بأن ضم إلى مجالسه خير ديوان علم أهدته بغداد إلى الأندلس.(98)

ولا نعلم بدقة، المدة التي قضاها صاعد بسرقسطة، لكن خبرا قيما ينقله ابن خير، يفيد أن صاعدا كان يقيم مكرما بهذه الحاضرة، وهو ضيف على ابني غصن خالي الوزير ابن أرزاق، وعلى صديقه ابن الكتاني صاحب التشبيهات، الذي كان صاعد قد عرفه في بلاط العامريين في قرطبة، أيام خدمته للمنصور وابنه المظفر، وقبل أن ينتقل إلى سرقسطة ليستقر بها. ولعل الاطمئنان الذي أحس به صاعد وهو بسرقسطة، هو الذي جعله رغم كبر سنه يعود إلى مرحه، مؤثرا أن يملي على صبيانها والراغبين في الأخذ عنه من الأدباء، شعر ابن حجاج على ما فيه من مجون: «قال أبو بكر المصحفي: وفي شعر ابن حجاج المذكور مجون كثير، وكان يسمعه معنا عليه شيخ من بني مفرج... وإدريس بن اليمان الشاعر، وكان صاعد يطيب فيهم من أجل شيخهم ويقول لي أمامهم: ألا ترى أي صبيان يقرؤون علي شعر ابن حجاج. وكان سماعي له بقراءة ابني غصن خالي الوزير أبي عمر ابن أرزاق؛ وكان صاعد ينزل عليهما، وعلى الشيخ الحكيم أبي عبد الله ابن الكتاني شيخي رحمه الله بمدينة سرقسطة، فصادفتهما يقرآن عليه الشعر المذكور فسمعته بقراءتهما».(99) والعبارة الأخيرة في النص، تفيد أن أبا بكر المصحفي ـ الذي كان قد قرأ المداخل على

---

98) انظر القصيدة في الديوان ص: 134.

99) فهرسة ابن خير ص: 406.



ابن خشخاش بحضور صاعد، لأن صغر سنه كان يمنعه من أن يقرأ عليه مباشرة ـ قد وجد في إقامة صاعد بسرقسطة ما بين 412هـ و414هـ مناسبة للرواية عنه مشافهة في سن التحمل، كما روى عنه والده أبو الوليد المصحفي من قبل.

ج) غربة النهاية :

تتفق جل المصادر التي ترجمت لصاعد على أنه خرج من الأندلس قاصدا صقلية، حيث كانت وفاته. وانفرد ابن بسام من بين كل المؤرخين، بالإشارة إلى أنه خرج من الأندلس إلى صقلية سنة 403هـ، مستخفيا خوفا من الخليفة هشام المؤيد، وأنه عاد إلى قرطبة في أول خلافة سليمان الثانية، ليصطحب من كان قد تخلف وراءه من أهله وولده. وجعل وفاته ككل المؤرخين بصقلية. وإذا كان صاعد قد قصد صقلية وتوفي بها، فإن حياته بهذه الجزيرة تظل مجهولة، فالمصادر لا تمدنا بالأخبار التي يمكن أن تعرفنا بنوع الحياة التي عاشها صاعد في صقلية، ونستثني من ذلك إشارة عابرة ذكر فيها ابن بسام أن صاعدا فارق البؤس، وراجع النعمة بصقلية في رحلته الأولى إليها، وإشارة ثانية ذكر فيها صاحب الذيل والتكملة أن القطيني «رحل إلى صقلية سنة أربع عشرة وأربع مائة، فأخذ بها عن أبي العلاء صاعد بن الحسن...».(100) ونستأنس بما ورد في هذه الإشارة الثانية عن تلمذة القطيني لصاعد في صقلية، لنرجح أن صاحب الفصوص قد تفرغ في السنين الأربع الأخيرة من حياته بعد رحيله إلى صقلية،

---

100) الذيل والتكملة ـ القسم الخامس ـ 2/518.



إلى إملاء مروياته على من يحل بهذه الجزيرة من الأندلسيين، قبل إتمام الرحلة إلى المشرق.

وإذا كانت جل المصادر قد اتفقت على أن وفاته كانت بصقلية، فإن نفس المصادر قد اختلفت في ذكر تاريخ وفاته. فالحميدي وابن بسام وعبد الواحد المراكشي والقفطي يجعلون وفاته سنة 410هـ، بينما ينقل ابن بشكوال إشارة ابن حزم إلى أن وفاته كانت سنة 417هـ،(101) وإلى هذا التاريخ ذهب الضبي وياقوت وابن خلكان والصفدي والذهبي وابن حجر وابن العماد والخوانساري. ورغم ورود سنة 410هـ عند الحميدي وابن بسام، باعتبارها سنة وفاة صاعد، يظل التاريخ الذي ذكره تلميذه ابن حزم، أقرب إلى الصحة، لأن القطيني لم يرو عن صاعد بصقلية إلا عند رحلته إليها سنة 414هـ، كما ورد في الذيل والتكملة.

مات صاعد خارج الأندلس بعد أن خلد اسمه فيها، ولا نعلم أكان صاعد قد أحس بأن طول مقامه بالأندلس قد أخلق ديباجتيه فاغترب من جديد ليتجدد، أم كان قد فكر في أن يجعل الحلول بصقلية تمهيدا للعودة إلى بغداد؟ لكننا نعلم أنه مات غريبا، بعد أن شرف اسمه مجالس البويهيين والعامريين.

101) ورد في إنباه الرواة، رواية عن ابن حزم، أن صاعدا توفي سنة تسع عشرة وأربعمائة، والراجح أن تسع عشرة تصحيف لسبع عشرة.



ثانيا : صاعد الأديب :

I ـ تصحيح وهم :

لم تختلف معظم المصادر التي ذكرت صاعدا في وصفه بأنه كان عالما باللغة والآداب والأخبار، ورغم اعتراف المؤرخين له بفضيلة العلم، اعتبر بعضهم القصة التي تحدثت عن تعجيز العاصمي والزبيدي للوافد المشرقي في بعض مسائل النحو والصرف،(102) شاهدا على أنه كان مقصرا في هذين الفنين، وكان القفطي ممن آمنوا بأن صاعدا كان مقصرا في النحو غير صاعد؛(103) ولعل هذا التصور استقر عند بعض المحدثين. وعندما نقف على الخبر الذي يفيد أن صاعدا عجز عن أن يجيب عن مسائل من كتاب سيبويه سأله عنها العاصمي،(104) نجد الخبر لا يذكر المسائل النحوية الغامضة التي قصر فيها، رغم أن الأخبار التي نقلت عنه، تضمنت معلومات لا أهمية لها من حيث دلالتها على شخصية صاعد العلمية.

أما المسألة الصرفية التي ظهر فيها قصور صاعد ـ حسب ما ترويه المصادر ـ فهي وزنه «أولق» على «أفعل». وقد نقلت الرواية أن الزبيدي اعتبر صاعدا ممخرقا، لما وزن «أولق» على «أفعل». ومفهوم كلام الزبيدي أن وزن هذه الكلمة هو «فوعل» لأن المادة المعجمية هي «ألق». إلا أن الوزن «أفعل» الذي جعله صاعد مقابلا «لأولق»، لم يكن غريبا عن العلماء في المشرق، ففي مادة (ألق) نجد في اللسان «قال الجوهري: وإن شئت جعلت الأولق أفعل».(105) وفي مادة «ولق» نجد: «والأولق كالأفكل، الجنون،

102) انظر الخبر في الذخيرة 4 ـ 1/14.

103) إنباه الرواة 2/88: «وكان صاعد غير صاعد في النحو مقصرا».

104) الذخيرة 4 ـ 1/14.

105) لسان العرب: مادة ألق.



وقيل: الخفة من النشاط كالجنون، أجاز الفارسي أن يكون أفعل من الولق الذي هو السرعة، وقد ذكر بالهمز... قال ابن بري: قول الجوهري وهو أفعل لأنهم قالوا ألق الرجل، سهو منه وصوا به وهو فوعل، لأن همزته أصلية بدليل ألق ومألوق، وإنما يكون أولق، أفعل، فيمن جعله من ولق يلق إذا أسرع. فأما إذا كان من ألق إذا جن فهو فوعل لا غير».(106) فالوزن «أفعل» الذي جعله صاعد مقابلا لأولق، لم يكن خطأ ولا تقصيراً عن معرفة فوعل، لكنه كان اختيارا لما أجازه شيخه أبو علي الفارسي ومعاصره الجوهري. وهو اختيار يدل على التطور الذي عرفته المدرسة البغدادية، في النصف الثاني من القرن الرابع، متجاوزة(107) المدرسة الأندلسية التي وقف العلم فيها لدى تلامذة القالي عند المعارف التي نقلها إليهم شيخهم. أما صاعد فقد نقل في فصوصه عن هذا الاختبار في علم الصرف، ما يخالف(108) الخبر الذي نقلته المصادر.

II ـ صاعد التلميذ :

1) التلمذة الأولى :

لا تمدنا المصادر بأي خبر يمكن أن يساعدنا على معرفة الوسط العلمي الأول الذي استمد منه صاعد معارفه الأولية، ونستثني من ذلك خبرا واحدا يشير فيه القفطي إلى أن صاحب الفصوص قرأ ببلاده الموصل اللغة على مشايخها، وحفظ منها الكثير، وتفنن في فنون من الأدب.(109) وإذا كان من الصعب الجزم

106) لسان العرب: مادة ولق.

107) ألف أبو العلاء المعري، رسالة بأكملها هي رسالة الملائكة، لتتبع مثل هذا الخلاف الصرفي.

108) انظر الخبر في الفصوص ص: 292 ـ 295.

109) إنباه الرواة 2/85.



بأن ارتباط صاعد بالبيئة العلمية في الموصل يعود إلى نشأته بهذا البلد، فإن افتراضنا نشأته في إحدى المناطق القريبة من الموصل سيكون مفسرا للعلاقة التي ربطته بمشايخها بعد انتقاله إليها للتحصيل المنظم. ولم تكن العلوم والآداب في ديار الموصل، بل وفي باقي أقاليم الدولة العربية الإسلامية بالمشرق، بأقل ازدهارا منها في بغداد. فالموصل كانت البيئة العلمية التي أمدت بلاط بني حمدان بكثير من العلماء والأدباء؛ ويكفي أن نذكر من الأعلام الذين نبغوا في هذا البلد، بعض من ذكرهم الثعالبي في يتيمته.(110) واستئناسا بما كان رائجا في الموصل من معارف وعلوم، يمكن الاطمئنان إلى أن صاعدا لم يغادر هذا البلد إلى بغداد أو غيرها، إلا بعد أن كان قد حصل في مجالسها العلمية المعارف الأولى التي تعود التلاميذ والمتأدبون تحصيلها، وأقصد دراسة علوم القرآن والحديث واللغة والقصص والأخبار، ورواية أشعار القدماء، فضلا عن رواية أشعار المحدثين. وسيتبين من خلال دراستنا المقتضبة للفصوص، أن قسما غير قليل من المادة العلمية التي كونت الفصوص، يعود إلى ما حصله صاعد في هذه البيئة العلمية المائلة إلى التبدي.

2) مجالس العلم في بغداد :

لم تذكر المصادر السبب الذي جعل صاعدا ينتقل إلى بغداد، ولا تاريخ دخوله إليها؛ وبينما تظل إشارة عز الدين بن الأثير إلى أنه رحل إلى الأندلس قادما من الموصل، افتراضا يؤكد جهل هذا المؤرخ لأخبار صاعد، تظل عبارة: «ودخل بغداد» التي ترد في المصادر الأخرى، عاجزة عن أن تكون دليلا على إحاطة باقي

110) انظر يتيمة الدهر 2/117.

المؤرخين بالأخبار الدقيقة المتعلقة بالمراحل الأولى لحياة صاعد في المشرق.

وإذا كانت أسماء المراكز العلمية التي يشير صاعد في فصوصه إلى أخذه بها، تمنعنا من أن نجزم بكونه وصل إلى بغداد قادما من الموصل، دون أن يعرج على أي بلد آخر، فإن ما يصرح به صاعد نفسه في ديباجة الفصوص، يفيد أنه حل ببغداد ليتتلمذ على شيوخ العلم بها، وهو ما يزال في سن التحصيل: «وإني غيسان صباي». (111)

ولا تنفي هذه المعارف التي يشير صاعد إلى أنه حصلها في بغداد، كونه قد حصل بعضها في الموصل، فدراسته في بغداد كانت دراسة تعمق وتخصص واستكمال تحصيل. وقد أشار ياقوت إلى ما عرف عن بغداد من أن من يطيل الإقامة بها يزداد سعة في عقله، (112) وأظن أن الزيادة في العقل التي كان المنتقل إلى بغداد يشعر بها، لم تكن إلا تعبيرا عن الكفاءة التي توافرت لعلماء بغداد وشيوخها في عصور ازدهارها. إن صاعدا يذكر في ديباجة الفصوص أنه لزم القاضي أبا سعيد السيرافي، وأبا علي الفارسي، حتى استظهر كتب اللغة المتعاورة الأمهات الثلاث: الغريب المصنف، وإصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ؛ واستظهر كتب الأصمعي، وأبي زيد، وابن الأعرابي، ودواوين الجاهلية (113)... فهل كان تحصيله في بغداد مقصورا على ما ذكره في الديباجة. إن المصادر الكثيرة التي ينقل عنها صاعد في فصوصه، تؤكد أن ما حصله كان غزيرا. وغزارة ما حصله تجعلنا نقتنع بأن دراسة المصنفات القليلة التي يشير إليها في مقدمة كتابه، ليست إلا

111) الفصوص ص: 1ب.

112) معجم البلدان: مادة موصل.

113) انظر الفصوص ص: 1ب.



دراسة تخصص وتعمق وتهيؤ لغزو مجالس الأنس والدرس في قصور بغداد.

إن شخصية صاعد العلمية، التي يكشف عنها كتابه الفصوص، وتكشف عنها رسائله وأشعاره، تفيد أن مجالس بغداد العلمية والأدبية المتنوعة بعددها وتخصصها، قد ساهمت في تكوين صاعد العالم الأديب. وما المشاركة التي عرف بها كثير من علماء بغداد كالسيرافي مثلا، إلا نموذج للغاية العلمية التي سعى إليها جل العلماء الذين قصدوا مجالس الدرس في هذه الحاضرة العلمية.

3) التحصيل خارج بغداد :

لم تكن مجالس الدرس ببغداد رغم شهرة شيوخها وعلمائها، لتمنع صاعدا من السفر إلى غيرها من المراكز العلمية قصد الأخذ عن غير شيوخ بغداد من العلماء والأدباء. ورغم أن المصادر التي ترجمت له، لا تشير مطلقا، إلى أية سفرة من سفراته، عدا رحلته إلى الأندلس ورحلته إلى صقلية، يمدنا صاعد نفسه من خلال أسانيده، ومن خلال ذكر المكان الذي سمع به عن الشيخ، بما يؤكد أنه كان يسافر كثيرا طلبا للعلم، أو مصاحبة لبعض الحكام. ومن المراكز العلمية غير القليلة التي سمع بها صاعد، أذكر:

أ) **البصرة**: وقد روى بها عن أبي الحسن الأزدي، كما يتضح من قوله: «حدثني أبو الحسن بالبصرة، قال...»(114) ووردت الإشارة إلى سماعه بها أيضا، عن ابن سابط: «وأنشدني ابن سابط بالبصرة قال...».(115)

114) الفصوص ص: 88ب.

115) الفصوص ص: 104أ.



ب) **الموصل**: يورد صاعد في الفصوص شعرا أنشده إياه بالموصل أبو عثمان الخالدي: «وأنشدني أبو عثمان الخالدي بالموصل لبعضهم..».(116) ويورد في فص آخر ما أنشده أبو الحسن السميساطي بالموصل أيضا: «وأنشدني أبو الحسن السميساطي بالموصل للجمل المصري...».(117)

ج) **واسط**: ترد الإشارة إلى سماعه بها في قوله: «حدثني أبو يعقوب الأهوازي الضرير بواسط، قال...».(118)

د) **الرقة**: يشير إلى سماعه بها في قوله: «أنشدني أبو المقداد الكلبي بالرقة لنهشل...».(119)

هـ) **الأبلة**: يشير إلى سماعه بها من أبي العباس بن نصير المحدث: «وحدثنا أبو العباس بن نصير المحدث، بالأبلة قال...».(120)

و) **الأهواز**: وقد وردت الإشارة إلى سماعه بها في قوله: «وحدثني الخصيبي بالأهواز، قال...».(121)

ز) **دمشق**: وردت الإشارة الصريحة إلى سماعه بها في قوله: «حدثني علي بن حمزة العلوي بدمشق قال...».(122)

ح) **زبالة**: وهي منزل بالبادية على طريق مكة من الكوفة، وقد أشار صاعد إلى سماعه بها عن شيخ من خفاجة: «أنشدني شيخ من خفاجة على ماء زبالة، يقال له أبو جندب، وكان من فصحاء العرب وفرسانهم، واستنشدته شيئا آخذه عنه، فأنشدني...».(123)

---

116) الفصوص ص: 67أ.
117) الفصوص ص: 91ب.
118) الفصوص ص: 78أ.
119) الفصوص ص: 77أ.
120) الفصوص ص: 78أ.
121) الفصوص ص: 32أ.
122) الفصوص ص: 60ب.
123) الفصوص ص: 92ب.



ط) **فيد**: وهي بلدة في نصف الطـريق بين مكة والكوفـة، وقد سمع بها صاعد ما أخبره به أبو ماعز القرمطي: «قال لي أبو ماعز بفيد: سمعنا...».(124)

ي) **اليمن (الجريب، زبيد)**: وردت الإشارة إلى سماعه باليمن، دون تحديـد البلدة، وإن كان قد وصف الـذي حدثه بأنـه صاحب الجريب والخـوقع والكلائح: «وسمعت بـاليمن الأحر، أبـا حميضة شرحبيل بن سلامان الإباضي صـاحب الجريب والخوقع والكلائح عن فرعان...».(125) كما وردت الإشارة الصريحة إلى سماعه بزبيد، في قـوله: «أنشـدني يوسف بن الضحـاك في مسجد الأشعـريين بزبيـد، وكان قاضيا، لعليـة بنت المهدي...».(126) وورد ذكر زبيـد مرة ثانية في قوله، في فص آخر: «قال صاعد: قال همام بن غالب الضرير بزبيد... قال لي أبو بكر بن دريد».(127)

والمقارنة البسيطة بين مواقع هذه المراكز العلمية والمنازل التي سمع بها صـاعد، تفيـد أنه كان يتحـرك طلبا للعلم والـرواية، بين الشام والعراق واليمن وشـرق فارس، وشمال الجزيـرة، غير مبال ببعد المسافة بين هذه المناطق. وقـد يكون ورود ذكر زبالة وفيد الواقعتين في طـريق مكة من الكـوفة، شـاهدا على أنـه سمع بهما وهـو في طريقـه إلى الحج، لأن المصـادر لم تشر إلى مـا يتعلق بأدائه فريضة الحج. إلا أن وصفه للشيخ الخفاجي الذي سمع منه بزبالة بأنه كان من فصحاء العرب،(128) وإشارته إلى أن أبا ماعز الذي لقيه بفيد كان من القرامطة ـ والقرامطـة كانـوا بدوا، ـ ومنهم

124) الفصوص ص: 92ب.
125) الفصوص ص: 77أ.
126) الفصوص ص: 16ب.
127) الفصوص ص: 31ب.
128) الفصوص ص: 92ب.



اكتسب الأزهري فصاحته، يجعلاننا نعتقد أن سماعه بزبالة وفيد، كان بحثا عن مرويات الأعراب البداة. ولم يكن هذا غريبا في عصر تعود فيه العلماء أن يخرجوا إلى البوادي للبحث عن اللغة الفصيحة السليمة.(129) وقد صرح صاعد نفسه في الفصوص بما يفيد أنه كان يعتبر مرويات الأعراب البداة أقوى مما يرويه علماء الحواضر: «وأنشدني(130) أيضا له،(131) وكنا قد قرأناه على أبي سعيد رحمه الله فيما رواه عن أبي عبيدة لعبيد بن أيوب، ورواية شرحبيل آثر في نفسي، لأن العرب أعرف بأشعار العرب من الحاضرة...».(132) وعندما يورد صاعد ما في معنى «خال مال» من الاستعمالات اللغوية غير المشهورة، يحتجّ لما أورده بأنه سمعه من الأعراب الفصحاء: «... وإنه لزر مال وحبل مال.... هذا سماعي من أبي الشيخ العقلي، وكان من فصحاء عقيل...».(133)

وترجيحه لرواية شرحبيل على رواية شيخه أبي سعيد السيرافي ترجيحا لرواية الأعرابي على الحضري، يؤكد أن خروجه إلى اليمن - وسماعه من شرحبيل كان باليمن - كان طلبا للفصاحة عند البدو الصرحاء، بعيدا عن الحواضر التي أفسد الاختلاط بين الأجناس فيها اللسان العربي، وأشاع فيها اللحن والعجمة. وإذا كانت أسانيد صاعد في فصوصه، قد جعلتنا نتأكد من أن تحصيل صاعد لم يكن مقصورا على الأخذ والسماع ببغداد وحدها، فإن تحديد التاريخ الدقيق لسماعه ممن روى عنهم خارج بغداد، يظل غير متأت. فإشارته مثلا إلى أنه روى شعر فرعان

---

129) انظر مثلا الأخبار المتعلقة بخروج أبي الطيب إلى البادية، وأسر القرامطة للأزهري.

130) المقصود شرحبيل.

131) المقصود فرعان.

132) الفصوص ص: 77ب.

133) الفصوص ص: 25أ.



عن شرحبيل، بعد أن كان قرأه على أبي سعيد السيرافي ببغداد منسوبا إلى عبيد بن أيوب، يفيد أنه لم يخرج من بغداد إلى البادية - في أضعف الاحتمالات - إلا بعد أن استكمل تحصيله ببغداد. أما عن تاريخ أو تواريخ عودته إلى الموصل التي سمع بها قبل رحلته إلى بغداد، فلا نعرف إلا التاريخ الذي رافق فيه الملك البويهي عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو، إلى هذه البلاد عندما ضمها إلى ملكه في ذي القعدة سنة 367هـ، وأقام بها مطيلا الإقامة حتى ذي القعدة سنة 368هـ. وقد أشار صاعد ضمنيا إلى هذا التاريخ التقريبي، أي ما بين ذي القعدة 367هـ وذي القعدة 368هـ، في سياق حديثه عن المناظرة التي جرت بينه وبين قرموطة الشيرازي بحضرة عضد الدولة: «وكنت بحضرة أبي شجاع فناخسرو بالموصل، وكان معي قرموطة الذي تقدم ذكره... فقال لي أبو شجاع: كم تذكر من لغة في المهذار...».(134)

أما روايته بدمشق،(135) عن علي بن حمزة، صديق أبي الطيب المتنبي المتوفى سنة 375هـ، فتظل حافزا - إذا ما ثبت أنها مبكرة - على التساؤل مرة أخرى عن علاقة صاعد بالشاعر صاعد الدمشقي الذي وفد على الوزير ابن يوسف مادحا، كما ورد عند الصفدي،(136) وذلك بعد أن كنا تساءلنا عن علاقة صاعد الدمشقي هذا، بنسبة «الطبري» التي وردت في ترجمة ابن بسام لصاعد صاحب الفصوص.

ونخلص من هذا إلى أن تلمذة صاعد لشيوخ العلم، لم تكن مقصورة على شيوخ بغداد وعلمائها، فشيوخ باقي الحواضر الإسلامية وشعراؤها وأعراب البادية، قد ساهموا كلهم في رسم

134) الفصوص ص: 67ب.

135) الفصوص ص: 60ب.

136) الوافي بالوفيات 16/230.



صـورة الشخصيـة العلمية لصـاعـد، قبل أن ينتقل إلى الأنـدلس ويؤلف الفصوص.

4) تحصيل المناظرات :

وهـو تحصيل خـاص يتم في مجـالس المنـاظـرة أو من أجل مجالس المنـاظرة، وأقصـد المناظرات الخـاصة التي كـانت تجري أمام كبار الحكام من الملوك والوزراء. فـالتنافس الذي كان يحدث بين المتناظـرين في هذه المجـالس، كان يـرغم العالم الـراغب في التفوق على خصمه، على أن يظهر من معـارفه وعلمه، ما انفرد أو كاد بتحصيله لعـزته. وعند ظهور هذه المعارف العـزيزة، في هذه المجالس الخـاصة، يستفيـد الحاضـرون من العلماء، ممـا يظهره أصحابه من العلم المضنون به مضطـرين. وقد أورد صاعد نفسه في فصوصه خبر المجلس الذي اختبـره فيه الوزير أبو الفتح ابن العميـد، واضطـره إلى أن يظهر من العلـم ما أجبـر ممتحنـه على التسليم له بفضل العلم.(137) كما أورد خبـر المجلس الـذي تفوق فيه أمام عضد الدولة البـويهي على قرموطة الشيرازي، مظهرا من العلم ما جعل الملك البويهي يفتخر به.(138) ومثل هذا التفوق على الخصوم في هذه المجالس كـان يفرض على العالم أن يهيئ نفسه لهذه المناظرات المحتملة، بأن يحصل من العلم ما كان العلماء قبله قـد استطاعـوا بـه التفـوق على مناظـريهم. فـالأخبـار تذكـر عن الأصمعي في حكايـة مشهورة، أنـه أثبت في أحد المجـالس سعة علمه، بأن قام إلـى فرس وسمى كل عضو من أعضائهـا؛ وصاعد يورد في الفصوص ما يفيد أنـه اعتمد على نفس المحفوظ اللغوي الـذي مكن الأصمعي قبلـه من التفـوق، ليتفوق على منـاظـره في

---

137) الفصوص ص: 42ب ـ 43أ.

138) الفصوص ص: 67ب ـ 68أ.



مجلس من المجالس، يحضره عضد الدولة أبو شجاع: «وكاثرني في الحفظ ذات يوم بحضرة فناخسرو أبي شجاع ببغداد، رجل يعرف بقرموطة، وكان حفظة للغة؛ وكان بين يديه في النوبة فرس، فقلت: أحفظنا للغة من قام إلى هذا الفرس فجعل أصبعه على كل عضو منه ومفصل، فسماه من أسفله إلى أعلاه. وسمته ذلك، فجبأ عنه. فأمرني أبو شجاع بتسميته، ففعلت ذلك، فازددت عنده حظوة في منزلة، وزيادة في رزق».(139) والشبه واضح، بين القصة التي حكيت عن الأصمعي، وما حكاه صاعد عن نفسه، ولهذا الشبه، اعتبر الحافظ ابن حجر هذه الحكاية من المناكير التي أتى بها صاعد في كتابه الفصوص: «ومن مناكير ما أتى فيه أنه قال: كابرني في الحفظ... قلت: وهذه الحكاية مشهورة للأصمعي...».(140) وحكم الحافظ هذا، يعود إلى أنه كان يعتقد أن صاعدا انتحل الحكاية ونسب الحادثة إلى نفسه؛ والراجح أن صاعدا لم يقصد إلى انتحال هذه الحكاية، إذ مما يمكن أن يفسر به هذا التشابه، أن صاحب الفصوص كان قد هيأ نفسه من قبل لمثل هذا المجلس العلمي الذي جلسه الأصمعي، بأن حفظ نفس المعجم الذي مكن الأصمعي من أن يبرهن على غزارة علمه.

وعندما سنحت الفرصة لصاعد، في مجلس عضد الدولة، بوجود الفرس، دفع منافسه قرموطة الذي كان يكاثره في الحفظ، إلى التنافس في تسمية أعضاء الفرس، وهو يعلم من قبل أنه سيتفوق عليه باستظهار نفس المعجم الذي كان قد حصله وحفظه، وهو يقرأ خبر الأصمعي. وليس يمنع اقتران خبر ما، بعالم ما، العالم المتأخر من أن يعيد خلق المناسبة التي تمكنه ـ رغبة في إظهار تفوقه وقصور منافسه ـ من الاستفادة من نفس

139) الفصوص ص: 11ب.

140) الفصوص ص: 11ب، ولسان الميزان 161/3.

المحفـوظ اللغوي الـذي مكن العـالم السابـق من التفوق. فإعـادة استظهار معجـم لغوي مـا، ليس انتحالا، وإنمـا هو إظهـار لكثرة المحفوظ، والمحفوظ اللغوي محصل مسموع غير مبتكر. وما كان صاعـد الذي زاده تفوقه على قـرموطة، حظوة لـدى الملك ورزقا، ليتفوق لـو لم يك قد وجه نفسه من قبل نحـو تحصيل معارف لا تظهر فـائدتها، ولا تجفى ثمراتهـا، إلا في مجالس المناظـرة، أمام أولي الأمر، حيث لا ينفع العالم إلا سعة محفوظه. وقد أخبر صاعد عن نفسه في الفصوص، بعدة حكايات تؤكد أنه كان يجر منافسه إلى استظهار المحفوظ، في موضوعـات كان قد تهيأ لها من قبل؛ وكان هـذا التحصيل الخاص بـالمناظـرات سبيله إلى التفـوق على خصـومه من علمـاء الأندلس. ففي سيـاق الحديث مـرةً عن وزن «أيل» أمـام الزبيـدي، يصوغ صاعـد العبارة صيـاغة ينتهـي فيها الكلام بشرح الْأَيِّل بالقيم على المال، وهو الشرح الذي أوحى إلى خصمه الزبيـدي بأن يسأله ـ لاختباره وتعجيزه ـ عمـا كان هو ـ أي صاعـد ـ يـهـدف إلى أن يسـأل عـنـه: «ولما وردتُ حضرة مولانا المنصور أبي عامـر... أَحَبَّ أن يعرضني على علماء مصره، ليعلمهم أن اصطنـاعـه صـادف مكـانه... فـاستحضـر الـزبيـدي والعاصمي وأبا عمرو البصير وغيرهم من جهابذة العلم. ونازعني الكلام أبـو بكر الزبيـدي، إلى أن سـألني عن وزن أَيِّل فقلت: وزنه فَعِّل... ثم سـألني عن تصـريفـه في وجـوه اللغـة، فقلت: الأيل من الـوحش... ويقـال فلان أيل مـال على وزن سيـد، إذا كـان حسن الإيالـة وهي السياسة. ثم قـال أبو بكر: إن أبـا علي إسماعيل بن القاسم البغدادي رحمه الله، ذكـر في هذا عدة أسـماء ـ يعني في القيم على المال ـ فمـا الذي تحـفـظ فيه؟ فعددت لـه ثمانية عشر اسماً. فأقبل أبو بكر على مولانا المنصور أبقاه الله فقال: يامولانا لم أعلم أني رأيت الذي رأيت، وإن أبـا علي نفض كتب المستنصر



رضي الله عنه، على تأليفه، فلم يورد في هذا المعنى إلا سبعة أسماء أو ثمانية، وقد عد هذا علي ثمانية عشر اسما، إن هذا لحفظ عظيم». (141)

وينقل صاعد في فصوصه ما يفيد أنه كان يستفيد مما مكنه من التفوق في مجالس العلم ببغداد، للتفوق في مجالس المناظرة بالأندلس، كما يتضح من خبر المناظرة التي جرت بينه وبين خصمه أبي بكر الزبيدي أمام المنصور بن أبي عامر: «... ثم قلت للزبيدي: ما تذكر في الرجل؟ فذكر ما حضر ذكره. فقلت: عندي زيادات. فقال مولانا أيده الله: ليأخذ كل واحد منكما شيئا من الرق، وليكتب ما يعرفه. فأخذت الرق وكتبت هذا الفصل كله... غير الحكاية(142) التي دارت لي بحضرة ابن العميد ببغداد، وهي تأتي في هذا الفصل إن شاء الله». (143)

وكما حصل صاعد من العلم ما هيأه للتفوق في مجالس المناظرة، حصل من نفس المجالس علما أفاده من غيره من العلماء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس، بل إن بعض ما استفاده من العلم في هذه المجالس، كان مما أغنى كتابه الفصوص، وزاده طرافة: «وكنت يوما عند أبي الفضل بن العميد بالري، فدخل إليه حاجبه يعرفه أن أبا علي بن البيع تولى في هذ اليوم النظر في العرافة، والحسبة، والتفتيش، والربع، والمصادرة، والإشراف على دار الضرب. فضحك من ذلك، وقال: أترى يعزلنا عن الوزارة ويلي مكاننا؟ وأطرق ساعة ثم قال: هل فيكم من يجمع ولاياته كلها في بيت واحد؟ قلنا: وكيف يمكن ذلك؟ قال: نعم، أقول (متقارب):

تَوَلَّى الْعَيَارِيفَ والْحِسْفَتِيش وَرُبْعَشُمُصَادَ وَشَرْفَضَرَبْ

---

141) الفصوص ص: 25أ.

142) انظر الحكاية في الفصوص ص: 42ب ـ 43أ.

143) الفصوص ص: 41 ب.



وأخذنا طيب يومنا على ذلك، وَلُحِّنَ وغُنِّي به في العود، على طريق الهزء والنادرة».(144)

إن مجالس المناظرات التي جعلته يزداد حظوة ورزقا، بفضل ما كان حصله من العلم، جعلته أيضا يزداد علما ومعرفة وهو يسمع ما يصدر في نفس المجالس عن غيره من شيوخ العلم المتنافسين، مستظهرين ومجادلين.

5) تحصيل المضنون به على غير أهله :

ذكر صاعد في مقدمة الفصوص أن ما حصله من المعارف كان سببا في وصوله إلى قصور الملوك، وتوليه شؤون خزانة الوزير عبد العزيز بن يوسف.(145) وقد ذكر في أحد الفصوص، وهو يتحدث عن كتبه التي فقدها في المشرق عند نشوب الحادثة بين الوزير وصاحب بغداد، أنه تولى الإشراف على هذه الخزانة أربع سنوات: «وذلك عند ولايتي خزانة كتب الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف في أيام أبي شجاع فناخسرو، وذلك من سنة سبع وستين إلى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة».(146) وما يعنينا من خبر ولايته شؤون هذه الخزانة، ارتباطها بمجموعة من المعارف، لم تكن متداولة بين الناس، ومصنفات قيمة خطتها أيدي مؤلفيها أنفسهم. هذه المعارف وهذه المصنفات النادرة، كانت جوهر المادة العلمية التي تحدى بها صاعد تلامذة القالي العالم المشرقي الوافد من نفس البيئة العلمية التي وفد منها صاعد. ولا نعلم أكان وصول صاعد إلى هذه الخزانة قد حدث دون أن يكون عالما بما حوته من النفائس، أم أنه سعى إلى الوصول إليها بعد

144) الفصوص ص: 103أ.

145) الفصوص ص: 2أ.

146) الفصوص ص: 51ب.



علمه بعـزة ما فيهـا من المصنفات. وأيـا كان الجواب، يظـل تولي صاعد شؤون هذه الخزانة العلمية، شاهدا على مرحلة تجاوز فيها صـاحب الفصـوص تحصيل مـا هـو متـداول بين العلمـاء، إلى تحصيل ما كـان كبار شيوخ العلم قبله قد خصـوا به أنفسـهم، أو خصوا به كبار الحكام. وقد افتخر صاعد غير ما مرة بأنه نقل من هذه الخزانة، وحفظ من مصنفاتهـا كنوزا كانت قد حفظت في دار الخليفة المقتدر قبل أن تنهب. وما يميـز هذه الكنوز، كونها خطت بخطوط كبار علمـاء القرن الثاني والثالث الـذين ظلوا حجة كل من يحاج ويحتج من علماء القرن الرابع. ومما زاد هذه المصنفات التي خطتها أيدي مـؤلفيها أهمية ـ لـدى صاعد ـ أنهـا حوت من العلم مضنونا بـه على غير أهله، كان أصحابه يـؤثرون به أنفسـهم: «... حتى ولاني الوزيـر أبو القاسم عبـد العزيز بن يوسف تغمـد الله خطايـاه خزانة كتبـه، فأصبت فيها خطوط العلمـاء وأصولهم التي استأثـروا بهـا لأنفسهم دون الناس، إذ لابـد لكل عـالم من أثيـرة مجمـوعة لخـاصتـه، غير مـا يـذيعه للطلبـة... ووجـدت في كتب الخلافة التي خرجت في نهب دار المقتدر بخط الأصمعي، والفراء، وأبي زيـد، وابن السكيت، وابن الأعـرابي، وإسحـاق بن إبـراهيم الموصلي، وأبـوي العباس: المبرد وثعلب وغيرهم، عيـونا من علم العـرب لم تصنف فـي شيء من الكتب، ضنـا بهـا، واختصـاصـا بحسنها، فنقلت منها بخطي موفيا على ثلاثة آلاف ورقة، وحفظت أكثرها اغتباطا بها وإعجابا ببديعتها».(147) ولم يخف صاعد أسفه على ضياع مـا كان نقلـه من هذه النفـائس، إذ لم يغنه محفـوظه الغزير منها، عما كان قد نقله منها: «فهذا الذي صح لي من الجزء الـواحد من خط الأصمعي، ثم حيـل بيني وبينه. ونقلت من خطـه بعـد ذلك شيئا كثيـرا، .... وقـد نقلت من خط الفـراء، وسيبويـه،

147) الفصوص ص: 2أ.



والأخفش، والمفضل بن سلمة، وثعلب، والمبرد، وابن الأنباري، وابن دريد، وقطرب، وابن السكيت، والمشاهير من أصحابهم... أشياء تقع في نحو من أربعة آلاف ورقة رزئتها. ولو سلمت لي، لأخرجت للناس بدائع لم تطرق سمعا قط، وذلك عند ولايتي خزانة كتب الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف». (148)

والملاحظ أن أمثال هذه المصنفات والمعارف النادرة كانت قد أصبحت تسترعي اهتمام المحصلين والعلماء في القرن الرابع الهجري، وتدعوهم إلى التباهي بتحصيلها؛ وقد أكثر الثعالبي معاصر صاعد في يتيمته من التنبيه إلى ما وقع إليه مما ليس في يد غيره من العلماء. (149)

ويبدو أن الوزير عبد العزيز بن يوسف الذي ولى صاعدا على خزانته كان شغوفا ـ وهو الكاتب الشاعر ـ بضم النفائس التي توجد في خزائن غيره من الأعيان، إلى خزانته؛ وكان صاعد ينبه في فصوصه إلى ما حمل من هذه الخزائن إلى خزانة الوزير، عندما ينقل منه: «ونقلت من خط ابن سعدان في قبيل ضبة من كتب الخلافة...». (150) بل يبدو أن صاعدا هو الذي كان يتولى انتقاء الكتب النفيسة التي تستحق أن تنقل إلى خزانة الوزير: «ووجدتُ في الكتب التي نقلتها من خزانة القاضي أبي الحسن محمد بن صالح الهاشمي رحمه الله، إلى خزانة الوزير، كتابا بخط ابن المعتز كتبه إلى أبي العباس ثعلب: باسم الله الرحمان الرحيم ياسيدي ورئيسي وأستاذي.... (151)

---

148) الفصوص ص: 51ب .

149) انظر يتيمة الدهر 2ـ 118ـ 119 و3/200.

150) الفصوص ص: 44أ.

151) الفصوص ص: 97أ.



لم يكن غريبا إذن، أن يكـون صاعد قد استطـاع تحدي العلماء في مجالس قرطبة، بعد أن حصل من العلم المضنون به على عامة العلماء ـ وهو على خزانة الوزير ـ مـا جعله يواجه مناظريه بما لم يكن لهم به علم، وإن كان هذا العلم الغـزير قد جعله في الأندلس يتهم بالكذب والوضع.

وإذا كـان صـاعد قـد تمكن في المشـرق من تجـاوز تحصيل العلوم المتـداولة بين العلماء إلى تحصيـل ما عز ونـدر، مما جعل شخصيته العلمية تكتمل قبل أن يترك بغـداد، فإن هذا الاكتمال لم يمنعه من أن يجعل رحلته نحو الأندلس نفسهـا فرصة للأخذ عن عالم كبيـر نزل عنده وهـو في طريقه إلى قـرطبة، أقصد الـوزير العالم ابن حنزابة، الذي أقرأ صاعدا كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد كما يذكر ابن خير في فهرسته.(152)

6) الشيوخ :

نقصد بالشيـوخ هنا، كل الـذين أخذ عنهم صـاعد، سـواء كان أخذه عنهم أخـذ تلمذة وملازمة، أو أخـذا عن القرين. ويتضح من وفرة أسمـاء الأعلام الذين يسند إليهـم صاعد في فصوصـه، أنه كان طيلة المرحلة التي عاشها بـالمشرق وهو عالم مرموق، ينتقل بين مجـالس العلم في بغداد وبيـن الحواضـر والبوادي بحثـا عن الشوارد والنـوادر والطرف والملح، دون تفـريق بين ما كـان نظما ومـا كان نثـرا مرسـلا. ولا تذكـر المصـادر التي ترجمت لـه من شيوخـه إلا أبا سعيـد السيرافي، وأبا علي الفـارسي، ثم القطيعي والخطـابي. ولعل الحـافظ ابن حجـر انفـرد بـالإشـارة إلى بعض شيوخـه، معتمدا على بعض أسانيـد صاعد في كتابـه الفصوص: «وجدت في هـذا الكتاب عن أبي بكر بن إبـراهيم بن شاذان، وأبي

152) فهرسة ابن خير: ص: 30أ.



بكر بن مـالك القطيعي وأبي عمر بن محمـد الأزرق، والحسين بن المنذر الأصبهاني قاضي حصن مهدي، وأبي الفتح المراغي، وأبي جعفر محمد بن عيسى الترجماني المقرئ بالكرخ وغيرهم».(153)

ويبـدو من كثـرة الأعـلام الـذين حـدثوا صـاعـدا أو أَقْـرأوه، وأنشدوه، ومن تنوع المادة العلمية التـي كان ينقلها عنهم أنه كان ككثير من علماء القرن الرابع يميل إلى اكتسـاب معارف موسوعية تـرفعـه إلى درجـة العالم المشـارك. فهـو يـروي عن المقـرئين، والمحدثين، وفقهاء المذاهب، وعلماء العقائد، والصوفية، واللغويين، والنحاة، والمتأدبين، والشعراء، وفصحـاء البادية. ولوفـرة شيوخه الذين قـاربوا المـائة شيخ أقتصر في حديثي عنهـم، على من كان لهم أثر قـوي في توجيـه ثقافتـه، وعلى من بلغوا من الشهـرة ما يلزمنا بالإشارة إليهم.

أ) شيوخ التلمذة الأولى: السيرافي والفارسي :

يـذكر القفطي أن صـاعـدا قـرأ اللغة في بـلاده المـوصل على مشايخها. ورغم غياب أسماء هـؤلاء المشايخ، نفترض أن الأهمية العلميـة للمـوصل في القـرن الـرابع قـد جعلتـه يكتسب معـارف أساسية هامة، قبل أن ينتقل إلى بغداد. إلا أن التوجيه العلمي الذي طبع شخصيته العلمية، كما صرح بذلك هو نفسه، ارتبط بدراسته على شيخين من أكبر شيـوخ العلم في القرن الرابع، همـا القاضـي أبـو سعيد السيـرافي النحـوي المتوفى سنـة 368هـ، وأبـو علي الفارسي المتـوفى سنة 377هـ. وقد تجلى تأثيـر هذين الشيخين الكبيـرين العلمي، في صـاعد وتـأثره بهمـا، في تعمـده أن يجعل انتسابه العلمي إلى هذين العالميـن، دون غيرهما من العلماء الذين

153) لسان الميزان 3/160؛ وورد في الفصوص (البرجمالي) عوض (الترجماني).



تتلمذ عليهم. ففي ديباجة الفصوص يرد صاعد أهم المعارف التي اكتسبها ـ وهي المعارف التي كان علماء عصره يتباهون بتحصيلها ـ إلى ما أخذه عنهما: «وإني غيسان صباي وحميا حداثتي، لزمت القاضي أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، وأبا علي الحسن بن أحمد النحوي، حتى استظهرت كتب اللغة المتعاورة الأمهات الثلاث: الغريب المصنف، والإصلاح، والألفاظ».(154) ورغم إمكان حمل هذا الانتساب العلمي إلى السيرافيّ والفارسي على كونه تنبيها إلى أهمية المادة العلمية التي سيتضمنها مصنفه الفصوص، تظل الروايات المتعددة التي يرويها عن شيخيه هذين في مؤلفه الكبير، شاهدا على أنه أفاد منهما علما واسعا. ولا يبدو ذلك كثيرا بالقياس إلى الزمن الذي قضاه في صحبتهما، فهو يشير إلى أنه لزمهما وهو ما يزال في سن صغيرة.

ويشير صاعد إلى ما يفيد ضمنيا أن ملازمته الطويلة للسيرافي، قد جعلته يجد من وقت شيخه، ما سمح له بأن يقوي رواية السماع برواية العرض والقراءة. فهو يذكر في فص من فصوصه ما يؤكد أنه قرأ على شيخه أبي سعيد ما كان قد سمعه منه من شعر لثعلبة «وقرأ علينا أبو سعيد رحمه الله وقرأنا أيضا عليه لثعلبة بن عمير الحنفي...».(155) وإذا كان صاعد قد نبه في ديباجة الفصوص إلى أن أخذه عن السيرافي والفارسي هو الذي أوصله إلى الملوك، فإنه في أحد الفصوص يصرح بما يجعلنا نطمئن إلى أن السيرافي هو الذي مكنه من أن يصبح من العلماء الذين يحضرون مجالس كبار الحكام؛(156) ففي المجلس الذي

154) الفصوص ص: 1ب ـ 2أ.

155) الفصوص ص: 109أ.

156) الفصوص ص: 42ب ـ 43أ، حيث يشير صاعد إلى إعجاب ابن العميد به، وإلى افتخار السيرافي بأنه هو الذي علمه ورباه.



عقده ابن العميد ببغداد للقاء شيـوخها، اصطحب السيرافي تلميذه صاعـدا معه إلى هـذا المجلس، ومكنه مـن إظهار علمه بـأن جعله يجيب عن أسئلة سئلهـا، مفتخرا بـه أمام ابن العميـد الذي أعجب بالغلام التلميذ صاعد، وإن كـان السيرافي قد لام تلميذه على عدم تجاهله أمام الـوزير. ويبدو من خلال هذا اللـوم أن أبا سعيد كان مضطـرا بعد اطمئنـانه إلى غـزارة علم تلميذه، إلى أن يعلمـه آداب مجالسة الملوك التي تفرض على العـالم أن يتظاهر أمامهم ببعض الجهل، بعـد أن يظهر لهم علمـه. ولعل إعجـاب السيرافي بتلميـذه النجيب كـان سببـا في خصـه إيـاه ببعض العلم المضنـون بـه، فصاعـد يبني أحد الفصوص على التعـاليق العلمية الخـاصة التي كتبها السيرافي لنفسه لا لتلامـذته: «وقرأت على أبي سعيد رحمه الله في إحدى تعاليقه لنفسه: ذكر ابن الكلبي... إلخ».(157)

وكمـا أفـاد السيرافي صـاعـدا، أفـاده شيخه الثـاني أبـو علي الفارسي. ويفهم مما ورد في أحد الفصوص أن أبا علي أصبح في مرحلة مـا، يأنس من تلميذه القدرة على الأخذ عنه بـواسطة كتبه، دون حاجة إلى السمـاع: «هذا ما أملى علينا أبـو علي رحمه الله... فكتبت جميع ذلك من خطه، وعرضته عليه قراءة، فأجازه لي».(158) وهذه الإجـازة التي شهد بها أبو علي لصـاعد، باستيعابـه ما ورد في الكتاب الـذي استعاره التلميذ من الشيخ، تـدل على أن أبا علي كان قـد سمح لتلميذه بأن تكون تلمـذته له تلمذة مستمـرة، تنوب فيها قراءة مخطوطة الشيخ عن السمـاع منه، عندما ينفض مجلس الدرس. ويظهر أن صاعدا رغم علمه بالمنافسة التي كانت بين أبي سعيد وأبي علي، كان يفضل الإفادة منهما جميعا، دون أن يختص بأحدهمـا دون الثاني، كمـا يتضح من الخبر الـذي يورده صـاعد

157) الفصوص ص: 65ب.

158) الفصوص ص: 81أ.



نفسه في أحد الفصوص: «وكنت يوما عند شيخنا أبي علي رحمه الله، وعنده في أصحابه أبو محمد بن حمود الزبيدي الأندلسي؛ وكان أبو محمد من أصحاب أبي سعيد القاضي السيرافي رحمه الله وجيها في أهل العلم، فلما مات أبو سعيد انتقل إلى أبي علي الفارسي، وابتدأ بقراءة كتاب سيبويه عليه حتى أكمله، فقرأ على أبي علي (رجز):

يالك عينا خذلت مصاعهْ

وفيها (رجز):

ابن يزيد وَهُوَ ذو براعهْ

فأخذ الشيخ يتولى إنشاد الأبيات فأنشد (رجز):

ابن يزيد وَهْوَ ذو براعهْ

فقال أبو محمد رحمه الله: أيها الشيخ، أليس الواجب أن يكون (رجز):

أين يزيد وهو ذو براعهْ

حتى يجيء كاشفا قناعهْ

كأنه يستغيث به، كما يقول الإنسان عند المكروه: أين فلان وفلان، مناديا أنصاره. فأنف الشيخ من اعتراضه عليه في إنشاده، ونكره ذلك. ثم أقبل علي فقال لي: ياأبا العلاء، كيف تحفظ هذا؟. قلت: ما حفظته إلا كما أنشد الشيخ، وقد نقلته هكذا من خط أبي موسى الحامض. وقد كنت قرأت هكذا على أبي سعيد أيضا، غير أني لم أقل له قرأت كذا على أبي سعيد، لئلا ينكر استشهادي بأبي سعيد، إذ هو نظيره، وكانت بينهما منافسة. فقال: الحمد لله، ما كذبنا ولا كذبنا، وهكذا سمعته من فَلْقِ فِي ابن دريد. قال صاعد: وهو صادق في ذلك، لم يرو أحد إلا: ابن يزيد...».(159)

---

159) الفصوص ص: 171أ.



ولعل هـذه اللباقـة التي جعلت التلميـذ يتجنب إغضاب شيخـه الفارسي بـالاستشهاد بشيخـه الآخر السيـرافي، بالقيـاس إلى ما واجه به الـزبيدي أبا علي، كانت مما استطاع بـه صاعد أن يكسب ود العلمـاء الذين روى عنهم، والحكـام الذين قـربوه في المشـرق وفي الأندلس، رغم المكايد التي كادها له بعض علمائها.

وإذ كان الفارسي قـد ظل حيا إلى سنة 377هـ، فإننا نفترض أن صاعدا ظل يتتلمذ له، إلى أن اضطـرته الحادثة التي أشار إليها في مقدمـة الفصوص إلى الخـروج من بغداد. وقد أرخ هـو نفسه لأحـد الأمـالي المتأخـرة التي سمعهـا من شيخـه أبي علي: «أملى علينا أبو علـي الفارسي النحوي رحمه الله ببغـداد، وهو في داره على الشط... سنة إحـدى وسبعين وثلاث مـائة فقال: اعلم أن من خفف الهمزة في قول الله عز وجل أحسن أثاثا ورئيا...».(160)

فلا نستغرب إذن بعـد معرفتنا طبيعة هـذه العلاقة التي ربطت صاعدا بشيخه السيرافي والفارسي مدة طويلة، أن تكون كثير من الفصوص في مصنفه مبنية على ما رواه عن شيخيه هذين.

ب) شيوخ مشهورون :

المقصود بـالشهـرة هنـا الشهــرة العلميـة للشيخ، التي تجعل الرواية عنه مسندا علميـا لكل من يأخذ عنه من التلاميذ. ولعل من حظ صـاحب الفصوص، أن القـرن الرابع الهجـري عرف ازدهـارا علميا كبيـرا، جعل عدد شيوخ العلم بـالمشرق أكثر من أن يـؤخذ عنهم كلهم؛ ويكفي صـاعدا أن يكـون أدرك أو عـاصر أمثـال أبي الطيب المتنبي، وابن فارس، وابن النـديم، والعسكري، وأبي العلاء المعـري، وأبي الفضل بن العميد، وابنـه أبي الفتح، والصـاحب بن

---

160) الفصوص ص: 55ب.



عباد، وأبي حيان التوحيدي، والقاضي عبد الجبار، والرماني، والخطابي، والقطيعي والخالديين، وأبي الفرج الأصبهاني، وابن سينا، ويحيى بن عدي، والأزهري، والجوهري، وغيرهم من أعلام القرن الرابع، ليكون قد انتسب إلى أكثر عصور الثقافة العربية ازدهارا.

ومن بين لأعلام الذين حظي صاعد بالتلمذة لهم :

- **الرماني**: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الإخشيدي الوراق، تلميذ ابن السراج وابن دريد المتوفى سنة 384هـ. كان إماما في العربية والأدب في طبقة أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي.(161) وقد ذكر صاعد في فص أورد فيه قصة تضمنت أرجوزة من 52 بيتا، أن الرماني حدثه هو وأصحابه ببغداد في داره: «حدثنا أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي ببغداد في داره في درب ابن محجل قال...».(162)

- **الآمدي**: الحسن بن بشر بن يحيى أبو القاسم المتوفى سنة 370هـ. كان شاعرا عالما راوية. أخذ عن الأخفش، والزجاج، وأبي موسى الحامض، وابن السراج، وابن دريد، ونفطويه؛ ألف كتاب الرباب وغيره.(163) ولعل ما رواه صاعد عن الآمدي، من كتاب الرباب الذي ذكره الآمدي نفسه في كتابه المؤتلف والمختلف، فصاعد يروي عنه ما أنشده من شعر أبي فرعون العدوي، من عدِيّ الرِّباب: «أنشدنا أبو القاسم الآمدي لأبي فرعون المكدي...».(164)

161) ألف في إعجاز القرآن وشرح أصول ابن السراج وكتاب سيبويه...

162) الفصوص ص: 39أ ـ 39ب.

163) من مؤلفاته: المؤتلف والمختلف والموازنة وشرح ديوان المسيب بن علس والأمالي (بغية الوعاة 1/500) وذكر في المؤتلف والمختلف 19 أن له «شعر الرباب» وفي 135 ذكر أن له «كتاب الرباب».

164) الفصوص ص: 64أ.



ـ **أبو الفرج الأصفهاني**: علي بن الحسين مؤلف كتاب الأغاني المشهور. كان من أعيان بغداد وأفراد مصنفيها، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء.(165) من مؤلفاته: كتاب الأغاني، وكتاب القيان والإماء الشواعر، والديارات، وأخبار جحظة البرمكي. قال عنه ابن الجوزي: «وكان عالما بأيام الناس والسير... روى عنه الدارقطني، وكان يتشيع، ومثله لا يوثق بروايته، يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه. ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر...».(166) وما يصفه به ابن الجوزي، يبدو منسجما مع ما عرف عن ندماء الوزير المهلبي من عبث ومجون؛ فالأصفهاني كان من المقربين إلى هذا الوزير، فقد كان هو وأبو العلاء صاعد من بين الحاضرين مع الوزير عندما وفد عليه أبو الطيب المتنبي، ورفض مدحه ترفعا عن عبثه ومجونه ومجون أصحابه. وإذا كان أبو الفرج قد توفي سنة 356هـ، فإن صاعدا سيكون قد روى عنه قبل هذه السنة وهو ما يزال شابا. ولعل ما رواه عنه يعود إلى ما سمعه منه في مجالس الوزير المهلبي: «أنشدنا أبو الفرج الأصبهاني قال: أنشدنا أبو الحسن الأخفش...».(167)

وإذا ما أمكن الاطمئنان إلى أن علاقة صاعد به قد مكنته من تحصيل أخبار وافرة وقصص متنوعة، فإن هذه العلاقة نفسها قد تكون من أسباب اهتمام صاعد بالطرف والملح والمجونيات التي بنى عليها بعض فصوصه، وإن كنا نذهب إلى أن مجون أبي الفرج وتلميذه جميعا، ينسجم مع ما عرف عن كثير من أدباء

---

165) يتيمة الدهر 109/3.

166) المنتظم 40/7 ـ 41.

167) الفصوص ص: 87. أ



القـرن الرابع وحكـامه مطلقـا، من ميل إلى المزاح والهـزل والعبث الماجن، رغبة في التسلي، وفرارا من صرامة الجد.(168)

ـ **التنوخي**: المحسن بن علي بـن محمـد، أبـو علي القــاضي المتوفى سنة 384هـ، ألف كتاب الفرج بعـد الشدة. وقد روى عنه صاعـد قصة الطفيلي الذي كان يتـرصد خروج جـاره، ليتبعه إلى كل مـدعــاة صنيع يـدعى إليهــا. «حـدثني أبـو علـي التنـوخي قال...».(169)

وقـد اعتبر الحـافظ بن حجر أسـانيد صـاعد في مـا رواه عن التنوخي من عجائبه التي يستدل بها على مجاز فاته.(170)

ـ **أبو عثمان الخالدي**: سعيد بن هاشم الشـاعر المتوفى سنة 371هـ. ألف مع أخيه كتـاب الحماسة. أخذ عنه صاعـد بالموصل، وأنشد له مـرات عديدة(171) في الفصـوص: «وأنشدني أبـو عثمان الخالدي بالموصل لبعضهم...».(172)

ـ **أبو بكـر الخالدي**: محمد بن هشـام الشاعر المتـوفى سنة 380هـ، أخـو أبي عثمان الخالـدي ومشاركه في تأليف الحمـاسـة. روى عنـه صـاعد فـي أحد الفصـوص بيتين لجحظـة البـرمكي: «وأنشدني أبو بكر أخوه(173) لجحظة...».(174)

ـ **ابن البقال**: أبو الحسن علي بن محمد، كـان أديبا من شعراء بغـداد ومجوديهـا، حسن الـدين، رصين العقل كثير الخبـر ممتع

---

168) انظر مثلا جمع التوحيدي بين الجد والهزل في كتاب الإمتاع والمؤانسة.

169) الفصوص ص: 152أ.

170) لسان الميزان 161/3.

171) انظر مثلا الصفحات: 67أ ـ 90ب ـ 91ب ... من الفصوص.

172) الفصوص ص: 67أ.

173) يقصد أبا عثمان الخالدي.

174) الفصوص ص: 67أ.



المجالس. خدم في صغره الوزير ابن الجراح أيام الخليفة المقتدر. وكان ابن البقال هذا مع صاعد، من بين العلماء الذين اصطحبهم الوزير أبو الفتح ابن العميد إلى الري، بعد رحيله عن بغداد.(175) ويبدو من حديث صاعد عنه وثنائه عليه، أنه كان يجله إجلال الشيوخ. وقد روى عنه خبر عزل الوزير ابن الجراح: «وحدثني أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن البقال، وكان أديبا من شعراء بغداد ومجوديها... قال: كنت متصرفا أيام حداثتي في خدمة الوزير أبي الحسن علي بن عيسى أيام المقتدر...».(176)

ـ **أبو الفتح المراغي**: محمد بن جعفر الهمذاني معلم عز الدولة البويهي، سكن بغداد، وروى بها عن أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة. وحدث عنه القاضي أبو الحسن محمد بن أحمد القاسم المحاملي، وذكر أنه سمع عنه سنة 371هـ. كان حافظا بليغا عالما بالنحو واللغة والأخبار. ألف كتاب البهجة على غرار الكامل للمبرد، وكتاب الاستدراك لما أغفله الخليل. توفي(177) سنة 376هـ أو 371هـ. روى عنه صاعد في أحد الفصوص شعرا لجامع بن مرخية الكلابي، أنشدناه أبو الفتح المراغي...».(178) وروى عنه في فص ثان خبرا عن النعمان بن المنذر: «حدثنا أبو الفتح المراغي قال: حدثنا ابن دريد...».(179)

ـ **أبو الحسن السميساطي**: علي بن محمد العدوي، أصله من سميساط في أرمينية؛ من أعيان القرن الرابع. أدب أبا ثعلب بن ناصر الدولة وأخاه ونادمهما. كان شاعرا مليح الحفظ كثير

---

175) الفصوص ص: 43أ.

176) الفصوص ص: 88أ.

177) انظر المنتظم 7/134 وبغية الوعاة 1/70.

178) الفصوص ص: 34أ.

179) الفصوص ص: 65أ.



الروايــة. ذكر ابن النديم أنــه كان يحيا في زمــانه.(180) سمـع منه صاعد بــالموصل كما يدل على ذلك قولــه: «وأنشدني أبو الحسن السميســاطي بالمـوصل للجمل المصــري يصف كأسا نقش فيــه صفة كسرى وقيصــر فقال...».(181) ويبدو من إشارة صــاعد إلى سماعــه منفردا عنــه: «أنشدني»، أن الروايــة عنه كــانت رواية عن القرين.

ـ **أبو عبد اللــه البصري**: الملقب بجعل، الحسين بــن علي بن إبــراهيم المعروف بــالكاغـدي، المتوفى سنــة 399هــ. كــان فقيها متكلما له مجموعــة في الفقه والكلام.(182) وقد تعرض صــاعد لما سمعه منه في صلب فص بناه على تفسير قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبــراهيم رب أرني كيف تحيي المـوتى**﴾، الآية، ونقل عنــه رأيا كلاميا في الخلق يدل على علمه ومكانته بين المتكلمين، « وسمعتُ أبــا عبد اللــه البصري الملقب بجعــل، قال: اجتهـد المدققـون من المتكلمين في دين الإســلام إلى عصرنا هــذا أن يدلــوا بدليل على إعادة الخلق بعد فنائه، فيكون الــدليل سالما من اعتراض معارض أو نسخ منــاقض، فلم تسلم لهم إلا حجــة اللــه تعالى فــي قولــه: ﴿**قــال من يحيي العظــام وهي رميم قل يحييها الـذي أنشأهــا أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾. فدل على الإعادة بالنشـأة، فجعله المتكلمون إماما في الاحتجاج على مــن أنكر الإعادة، فلم يقدر أحد على نقضه...».(183) رغم أن ثقــافة صــاعد الكلاميــة كانــت تظهر مستحيية من خــلال جدله ومغالطــاته الهازلــة، تظل أسماء بعض شيــوخ علم الكلام، الــذين أخذ عنهم، شــاهدا على أنــه حصل في

---

180) الفهرست ص: 266.

181) الفصوص ص: 81ب.

182) الفهرست ص: 261.

183) الفصوص ص: 81ب.



المشرق رصيدا من هذا العلم، فضل ألا يستفيد منه في الأندلس، لأسباب فكرية، فرضتها عليه البيئة الأندلسية.

ـ **الداركي**: عبد العزيز بن عبد الله بن محمد أبو القاسم الداركي الأصفهاني، أحد كبار فقهاء الشافعية، أخذ عنه الأسفرائيني وعامة شيوخ بغداد، وانتهى إليه التدريس بها توفي سنة 375هـ. نسبه التوحيدي في سياق مهاجمته للمعتزلة، إلى اللواط، وأثنى عليه ابن الجوزي رغم تشدده فقال: «وكان أمينا وانتهت رياسة أصحاب الشافعي إليه، وكان يدرس في مسجد دعلج... وله حلقة في جامع المدينة للفتوى والنظر. روى عنه الأزهري والخلال والأزجي والعتيقي والتنوخي. وكان ثقة».(184) وقد روى عنه صاعد بيتين للإمام الشافعي، وأشار إلى أن سماعه منه كان ببغداد: «وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الداركي الأصبهاني ببغداد للشافعي رحمه الله: ... ثم قال لي...».(185)

ـ **ابن شاذان**: محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان، أبو بكر الرازي المذكر الواعظ الصوفي: «جمع من كلام التصوف وأكثر، ثم انتسب إلى محمد بن أيوب بن يحيى الضريس البجلي، ومحمد بن أيوب لم يعقب ولدا ذكرا. قال الحاكم أبو عبد الله: فلقيته فذكرت ذلك فانزج وترك ذلك النسب. ثم رأيته يحدث بالمسانيد، وما كان يحدث بها قبل ذلك، وتوفي في جمادى الآخرة من هذه السنة».(186) ووصفه صاحب العبر بأنه كان صاحب مناكير وغرائب، لاسيما في حكايات الصوفية. وقد أشار صاعد إلى أن سماعه منه، كان بنهر طابق، إحدى محلات بغداد، وبنى على ما رواه عنه فصوصا متعددة. ولعل كثرة روايته عنه في

---

184) المنتظم ص: 7/129.

185) الفصوص ص: 103أ.

186) سنة 376، انظر المنتظم 7/134.



الفصوص، تعود إلى تعلقه بالغرائب والحكايات التي كان يحكيها، فصاعد لم يرو عنه في كتابه إلا الأخبار ذات النفس القصصي: «حدثنا أبو بكر محمد بن شاذان... قال: حدثني علي بن سليمان الأخفش... قال جلس معن بن زائدة....».(187)

ـ **الخطابي**: الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، ألف معالم السنن وشرح البخاري، ذكره صديقه أبو منصور الثعالبي وأورد بعض أشعاره، وأثنى عليه فقال: «كان يشبه في عصرنا بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره علما وأدبا وزهدا وورعا وتدريسا وتأليفا، إلا أنه كان يقول شعرا حسنا وكان أبو عبيد مفحما؛ ولأبي سليمان كتب من تآليفه وأشهرها وأسيرها كتاب في غريب الحديث، وهو غاية في الحسن والبلاغة...».(188) وقد ذكرت بعض المصادر التي ترجمت لصاعد أبا سليمان الخطابي هذا ضمن شيوخ صاعد الأربعة الذين عددت أسماءهم،(189) إلا أن الفصوص خلا من الإشارة إليه مطلقا.

ـ **القطيعي**: أحمد بن جعفر، أبو بكر، سكن قطيعة الدقيق فنسب إليها. كان كثير الحديث ثقة، أثنى عليه ابن الجوزي وعدله، ورد على من جرحوه،(190) ونسب إلى أبي الحسن بن الفرات أنه قال: «تغير ابن مالك في آخر عمره فكان لا يعرف شيئا مما قرئ عليه«.(191) توفي سنة 368هـ. وقد أشارت جل المصادر إلى أن صاعدا تلمذ له. وقد بنى صاعد أحد فصوص كتابه على حديث

---

187) الفصوص ص: 6أ. وانظر حكايات أخرى في الصفحات: 10أ ـ 16أ ـ 76ب ـ 104ب.

188) يتيمة الدهر 4/334 ـ 335.

189) وهم السيرافي والفارسي والقطيعي والخطابي.

190) المنتظم 7/93.

191) المنتظم 7/93.



نبوي شريف سمعه من هذا المحدث الكبير. وختم كتابه بحديث نبوي آخر رواه عنه أيضا.

وفي هذا ما يجعلنا نعتقد أن صاعدا كان في صغره يحضر دروسه لرواية ما كان يحدث به من أحاديث شريفة: «حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي... عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: الرحم شجنة...».(192) ولم يَرُدَّ الحافظ ابن حجر، وهو يشير إلى إسناد صاعد(193) إلى القطيعي ما رواه عنه، رغم أن متن الحديث الذي رواه صاعد مخالف لمتني الحديثين الشريفين اللذين نقلهما ابن حجر نفسه في فتح الباري.(194)

ـ ابن بطة: عبيد الله بن محمد بن محمد العكبري، الفقيه الحنبلي الورع، مؤلف الإبانة الكبيرة والصغيرة والسنن والمناسل، وذم البخل...(195) توفي سنة 387هـ. جرحه الخطيب البغدادي وضعفه ابن الأثير،(196) وبالغ ابن الجوزي في الدفاع عنه رادا على الخطيب. وقد بنى صاعد أحد الفصوص على ما أنشده إياه ابن بطة لبعض الصوفية رواية عن جحظة: «أنشدني ابن بطة...».(197)

ـ الأمير أبو جعفر محمد بن ورقاء بن نصلة الشيباني :

من رؤساء عرب الشام وقوادها، سمع منه صاعد ببغداد سنة 365هـ. كما يتضح من قوله: «حدثني الأمير أبو جعفر محمد بن ورقاء ببغداد سنة خمس وستين وثلاثمائة...»(198) كما بنى فصا آخر على شعر لعبيد بن أيوب العنبري رواه عن ابن ورقاء:

---

192) الفصوص ص: 7أ.

193) لسان الميزان 3/161.

194) فتح الباري 10/417.

195) طبقات الحنابلة 2/144 ـ 153.

196) الكامل في التاريخ: وفيات 387.

197) الفصوص ص: 12ب.

198) الفصوص ص: 73ب.



«... والذي أنشدنا الأمير جعفر محمد بن ورقاء قال: أنشدنا ثعلب، عن ابن الأعرابي لعبيد بن أيوب...».(199)

ـ الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف المعروف بالحكار:

الكاتب الشاعر، وزر لعضد الدولة وابنه صمصام الدولة، ثم بهاء الدولة، توفي سنة 388هـ. وصفه الثعالبي بأنه أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق، وأفراد الكرم... وأعيان الممدحين المتقدمين في الآداب، والكتابة، والبراعة، والكفاية، وجميع أدوات الرياسة.(200) ويبدو أن فضل هذا الوزير على صاعد كان كبيرا، فهو الذي ولاه خزانة الكتب التي افتخر صاعد بقراءتها وأمدته بمعارف نادرة، ولعل هذا الوزير هو الذي أوصله إلى بلاط عضد الدولة. وقد بنى صاعد أحد الفصوص على أبيات للوزير أنشده إياها: «وأنشدني الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف لنفسه...».(201)

والملاحظ أن هذه الأبيات التي صرح صاعد بنسبتها إلى الوزير، وردت عند السلفي والقفطي ومن بعدهما منسوبة إلى صاعد نفسه.

ـ الوزير ابن حنزابة :

جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، أبو الفضل المعروف بابن حنزابة. نزل مصر، وتقلد الوزارة لأميرها كافور. وكان أبوه وزيرا للخليفة المقتدر، حدث عن محمد بن هارون الحضرمي وطبقته من البغداديين وأملى الحديث بمصر، رحل إليه

---

199) الفصوص ص: 74 ب.

200) يتيمة الدهر 2/312.

201) الفصوص ص: 43أ.



الدارقطني وروى عنه، توفي سنة 399هـ. وتاريخ سماع صاعد من هذا الوزير يعود إلى الفترة التي نزل فيها بمصر، وهو في طريقه إلى الأندلس، فقد ذكر ابن خير أن صاعدا كان ملازما للوزير ابن حنزابة ينادمه، وأنه روى عنه كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد.(202)

ـ **ابن الحجاج**: أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج، أحد كبار الشعراء الذين خرجوا من الجد إلى الهزل والمجون؛ قاده مجونه إلى قصور الحكام. وكان من بين شعراء الوزير المهلبي الذين تعرضوا لأبي الطيب ساخرين، عندما رفض مدح الوزير. وكان الشريف الرضي على وقاره، معجبا بابن الحجاج، وقد اختار من شعره ما خلا من المجون الفاحش، توفي سنة 391هـ.

ـ **ابن سكرة**: أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكرة الهاشمي البغدادي، صديق ابن الحجاج وشريكه في نزعة الهزل والمجون في الشعر، وصفه الثعالبي بأنه شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع(203) توفي سنة 385هـ.

وكان يقال ببغداد إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدا.(204)

ولعل صاعدا كان محظوظا بصحبته لهذين الشاعرين الكبيرين في حداثته، فقد روى عنهما شعرهما، ودرسه بالأندلس في آخر أيامه بها. ولعل ابن خير انفرد، حسب ما اطلعت عليه، بالإشارة إلى تلمذة صاعد لابن سكرة، وابن الحجاج.(205)

---

202) فهرسة ابن خير 358ـ 359.

203) يتيمة الدهر 3/3.

204) نفس المصدر والصفحة.

205) فهرسة ابن خير 406.



وعدد من ذكرت من العلماء قليل، بالقياس إلى مجموع الشيوخ الذين روى عنهم صاعد في الفصوص، أو أشار بعض تلامذته إلى أخذه عنهم، كأبي الحسن علي بن حيدرة، والقاضي أبي بكر محمد بن الأزرق، وقرموطة الشيرازي، ويوسف بن الضحاك، والحسين بن المنذر الأصبهاني، وأبي الحسين علي بن مهدي الفارسي، والشاعر الموصلي همام بن غالب الضرير، وأبي الحسن الفرضي، والقاضي أبي تمام الهاشمي، وأبي حفص محمد بن عيسى البرجمالي المقرئ، والقاضي أبي حامد الخراساني، والقاضي ابن أبي الحصين، وعلي بن حمزة، وأبي الحسن الضبعي، وشرحبيل بن سلامان الأباضي، وأبي الحسن علي بن المرزبان شيخ أبي حامد الأسفرائيني، وأبي يعقوب الأهوازي الضرير، وأبي الحسن الأزدي، وأبي عامر النجدي، وأبي أيوب المقرئ. فضلا عمن اقتصر صاعد على الإشارة إليهم بعبارة بعض الكوفيين،(206) أو بعض الصوفية،(207) أو بعض أصحابنا،(208) أو بعبارة غير واحد.(209)

ونظرة سريعة إلى العلوم والمعارف التي تخصص فيها شيوخ صاعد، تجعلنا نطمئن إلى أن صاعدا التلميذ، قبل أن ينتقل إلى الأندلس، حصل معارف واسعة متنوعة المشارب توافرت له بتلمذته للمقرئين، والمفسرين، والمحدثين، وفقهاء المذاهب، المتكلمين، واللغويين والنحاة، ورواة الشعر من أهل الحاضرة وفصحاء الأعراب، وشعراء عصره من أهل الجد والهزل، فضلا عن آداب معاشرة الملوك التي اكتسبها من ملازمته لمجالس الأمراء،

---

206) الفصوص 88أ.

207) الفصوص 63ب.

208) الفصوص 36ب و 61أ.

209) الفصوص 7ب.



والوزراء وكبار الحكام منذ حداثته. لذا لا نستغرب أن يكون صاعد قد تحدى بكتابه الفصوص تلامذة القالي ومدرسته، وأن يكون قد أصبح وهو الخبير بمجالسة الملوك من أصفياء المنصور بن أبي عامر.

III ـ صاعد الشاعر :

1) **في المشرق**: لا تمدنا المصادر بما يمكن أن يفيد في تعرف حياة صاعد الشعرية بالمشرق؛ ورغم كونه قد عرفنا من خلال الفصوص ببعض ما يتعلق بحياته العلمية في بغداد وغيرها من الحواضر المشرقية، ظل كتابه خاليا من الأخبار التي تتعلق بحياته الشعرية، نستثني من ذلك خبرين:

أولهما : الخبر الذي ذكر فيه صاعد أن الداركي أنشده بيتين للإمام الشافعي، ثم طلب منه أن يختصرهما في بيت واحد، اختبارا لقدرته على النظم ففعل: «وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الداركي الأصبهاني ببغداد للشافعي رحمه الله... ثم قال لي: أيمكن أن تجمع البيتين في بيت؟ قلت: نعم. قال: كيف؟ فقلت: (طويل)

عليَّ ثيابٌ فوق قيمتها الفلسُ
وفيهن نفس دون قيمتها الإِنْسُ(210)

وثانيهما: الخبر الذي يذكر فيه صاعد أن أبا علي الفارسي أبدى تعجبه من قدرة تلميذه على نظم الشعر الجيد، ورغبته في الاستمتاع بسماع أشعاره: «قال صاعد بن الحسن: كان أبو علي النحوي رحمه الله يقول لي: كلما عملت شعرا تُجوّد فيه، فاعرضْه علي وأمتعني به، فإنني أتعجب ممن يقدر على نظم الكلام الحسن،

210) الفصوص 103أ.



وتخير الألفاظ والمعاني، ورُمْتُه من صغري، فلم يسنح لي فيه شيء أرضاه، وحُرِمْتُه. قلت له: أيها الشيخ، فهل نظمت شيئا قط؟ قال: استُرعِنّي ما ستر الله، فعلمت أنه نظم، ولكنه لا يرضى به...».(211)

والخبران لا يحملان أية دلالة على أن صاعدا كان محترفا صناعة الشعر في المشرق، كما احترفها أبو الطيب وغيره من حذاق الشعراء؛ بل إن الازدهار الذي عرفه الشعر في المشرق في القرن الرابع، يفرض علينا الاقتناع بأن شاعرية صاعد، باعتباره عالما، لم تكن تؤهله لأن ينافس غيره من الشعراء المتفرغين لصناعة الشعر. فمنذ استثقل ابن قتيبة أشعار العلماء في القرن الثالث، رسخ في التصور النقدي ـ وكشف الاختبار عن ذلك ـ أن العالم المتبحر إذا نظم الشعر يكون شعره باردا. وأحسن ما كان يوصف به شعر العالم، إذا ما برع صاحبه في نظمه، أنه شعر حسن لا جيد. وفي اليتيمة نماذج كثيرة لأشعار علماء، وصفها الثعالبي بالحسن دون الجودة. وظل هذا التصور النقدي سائدا، حتى عصر ابن رشيق القيرواني الذي فرق في عمدته بين أشعار من يقول الشعر تظرفا، ومن يقوله تكسبا، ونبّه إلى أن غير المحترفين لا يحاسبون على صناعتهم.(212) إن كتاب الشعراء وحذاقهم في القرن الثاني والثالث والرابع، لم يعرفوا إلا بكونهم شعراء، ورغم أن بعضهم قد ألف في غير الشعر، ظلت شهرتهم مرتبطة بأشعارهم. وإذا كان أبو العلاء المعري شاعرا، ارتبط اسمه في الأذهان بكونه عالما، فإن الوجه العلمي لهذا الشاعر لم يبرز إلا بعد أن أعلن أنه طلق الشعر ليتفرغ إلى التأليف فيما هو

---

211) الفصوص ص: 125 ب.

212) العمدة 2/109 ـ 110.



صدق، لإيمانه بأن الجودة الشعرية والصدق لا يجتمعان.(213) ولم يكن العصر الذي عرف أبا الطيب، وأبا فراس، وابن نباتة السعدي، والشريف الرضي، والصنوبري وابن الحجاج، وابن سكرة، والزاهي، والسري الرفاء والنامي، والخالديين وغيرهم من كبار شعراء اليتيمة الذين نقل صاعد أشعارهم في فصوصه إعجابا بهم، يسمح لأمثاله من كبار العلماء بأن ينبغوا في صناعة الشعر، أو يغزوا بأشعارهم ملوكا ممدحين نقادا كانوا يملكون القدرة على التمييز بين الشاعر والمتشاعر؛ بل إن بعض الشعراء المحترفين أنفسهم، أصبحوا يعانون في القرن الرابع من الفقر، بعد أن رخص الشعراء المجيدون أمثال أبي الطيب المتنبي أشعارهم، كما صرح بذلك هو نفسه في قوله: (وافر)

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا

هذه البيئة الشعرية المزدهرة التي عاش فيها صاعد وهو بالمشرق، إن كانت قد سمحت له بأن يختزن محفوظا شعريا جيدا سمعه من أشعار معاصريه، كانت في الحين نفسه سببا منعه من أن يحترف صناعة الشعر في المشرق، رغم أنه كان يمتلك القدرة على النظم. وقد عبر هو نفسه، رغم المكانة الشعرية التي امتلكها في الأندلس، عن تحرجه من أن يتطاول على الشاعر المشرقي المحترف، فقد «أنشد المنصور يوما قصيدة أبي نواس (أجارة بيتينا أبوك غيور...) فعرض عليه أن يعارضه، فأبى صاعد من ذلك إجلالا لأبي نواس، فعزم عليه المنصور، فأنشده متمثلا: (مجزوء الكامل)

1 – إِنِّي لَمُسْتَحْيٍ عُلاَ
كَ مِنَ ارْتِجَالِ الْقَوْلِ فِيهِ

213) خطبة سقط الزند.



2 ـــ مَـــنْ لَـــــيْـــسَ يُــــدْرَكُ بِالــــرَّوِيْـ
يَـــةِ، كَيْفَ يُــدْرَكُ بِـــالْبِـدِيـــهِ» (214)

فصــورة الاكتمــال الشعري التــي رسمها الشــاعـر المشــرقي للشعر، جلعت صاعدا في الأنـدلس يحس بنفس التهيب الذي منعه في المشرق من احتراف الشعـر، عندما أُجبر على معــارضة رائية أبي نــواس، رغم أنه كــان قد أصبــح في الأندلس شــاعرا يتحــدى بشعره أعلاما كــانوا في أغلبهم علماء شعراء،(215) لا ينظرون إلى الشعر إلا باعتباره زينة مكملة للعلم.

2) في الأندلس : صاعد شاعر قرطبة :

يبدو أن صاعدا الذي تهيب احتراف الشعر في المشرق، مكتفيا بمكانته العلمية في المجالس، قد وجـد الساحة الشعرية بالأندلس خالية، أو شبه خالية، فبـاض وصفر. والحديث عن الفراغ الشعري في الأندلس، عنـد وصول صــاعد إليها ليس مبـالغة، فقـرطبة لم تعرف قبل وصول ابن دراج شاعرا ينـافس أبا الطيب مكانته؛ وابن دراج نفسه الـذي سيصبح من أكبـر شعراء الأنــدلس، بدأ حيـاته الشعرية عند وفوده على المنصور بن أبي عامر بمعارضة قصيدة لأبي العلاء صـاعد،(216) وهي معارضة تؤكـد أن أبا العلاء صـاعدا، لم يكن قد أصبح من الشعراء الذين تعارض أشعارهم.

ورغم أن الاختبار العلمي الذي خضع له صاعد عند وفوده على المنصــور، يثبت أنــه أتى إلى قرطبــة ليعـرض بضــاعته العلميــة، يتضح من دلالة معارضة ابن دراج الـذي وفد على المنصور سنة

---

214) الذخيرة 4/1/22.

215) نستثني منهم ابن دراج القسطلـي الشــاعـر الــذي تفـرغ للشعــر، واستطــاع بمعارضته لـرائية أبي نواس التي تهيب صاعد معــارضتها، أن يصبح من أكبر شعراء الأندلس.

216) جذوة المقتبس 103.



382هـ له، أنه كان قد أصبح أحد شعراء المنصور في وقت مبكر. وتؤكد الأشعار التي نظمها فــي المنصور، وابنه عبد الملك المظفر، والخليفة المهدي، والقائد ابن وداعــة، والأشعار المفقودة التي ذكر ابن بسام أنــه استجدى بها الخليفــة سليمان المستعين بعـد سنة 403هــ(217) أنه ظل ينظم الشعر حتى آخر أيامه بالأندلس.

3 ـ شعره :

أ) لا تشير المصادر إلى أن صاعدا ترك ديوان شعر، ومع كون النماذج التي نقلتهــا هذه المصــادر من شعره قـد قاربت الأربعين نمــوذجا، يبــدو أن كثيرا من أشعــاره التي نظمها في الأنــدلس لم تصل إلينــا، لسكوت المــؤرخين عنهــا مطلقا، أو لاقتصــارهم على إيــراد منتقيــات ممــا استحسنــوه من قصــائده، أو نــاسب الخبــر التاريخي الذي ينقلونه. وقد تجاوز مجموع أبياته التي تفرقت في المصادر مائة وسبعين بيتا.

ب) يغلب على مـــا وصل إلينــا من شعــره القصـــر، فمن بين مجموع ما وصل إلينا نجد ثمــاني قطع فقط تتجاوز ثمانية أبيات، دون أن تتعدى خمسة عشـــر بيتا؛ وإذا كانت قلة الأبيــات في هذه النماذج تعــود إلى غياب مــا لم يثبته المــؤرخون من أصـــول هذه الأشعار، فإن قلتهــا بالقياس إلى كثــرة مقطوعــاته التي بنيت على أقل من ستــة أبيـــات، تجعلنــا نفتــرض أنــه كـــان أميل إلى نظم المقطوعات منه إلى نظم المطولات، شأنه شأن كثير من معاصريه من شعراء الدرجة الثانية في المشرق. فقد كان كثير منهم يكتفون لإشباع ميلهم إلى النظم، وإظهار حذقهم بالأبيات الشعرية القليلة، تقال في المناسبة العارضة. وقــد شـهد كتاب اليتيمة بأن كثيرا من الشعراء الــذين ترجم لهــم الثعالبي إنمــا عرفوا بمقطعــاتهم. ولعل

217) الذخيرة 4/1/55.



صاعدا كان يرغب في المناسبة الجادة على إطالة منظومته، إلا أن القطع القصار تظل المعبر الحقيقي عن نزعته الشعرية.

ج) أما موضوعات ما وصل إلينا من مقطوعاته ومطولاته القليلة، فقد كانت ترجمة لحياة الشاعر النديم التي عاشها في الأندلس، وتعبيرا عن التحول الذي عرفته هذه الحياة، منذ وصل إلى الأندلس معززا، إلى أن خرج منها يائسا، فمعظم مقطوعاته كانت وصفا. والموضوع الذي استنفد أوصافه كان وصف الأزهار والنواوير: فقد وصف صاعد الورد،(218) كما وصف الخيري،(219) والبنفسج،(220) والنرجس،(221) والآس،(222) والترنجان.(223)

وقد يكون اهتمام صاعد بوصف الأزهار والنواوير راجعا إلى اهتمام الأندلسيين به، لكننا لا نشك في أنه قد وجد في ما حفظه في المشرق، من شعر الصنوبري شاعر النوريات الأول، مادة مكنته من منافسة الأندلسيين في وصف جمال الزهور. وإذا كان وصف النواوير صورة غير مباشرة لمجالس الأنس التي كان صاعد يجلسها مع المنصور، فإن هذه المجالس كانت وراء وصف أواني الشراب، بل ووصف المجالس نفسها؛ فمما اختاره له صاحب التشبيهات بيتان في وصف كأس بلور فيه شراب أصفر يقول فيهما: (طويل)

1 — جَلَوْتَ لنا قشرا من الصبح مترعاً
من الشمس يَعْشَى دونها المتوسّمُ

---

218) الذخيرة 4/1/17، وبدائع البدائه 299، والبيان 3/20.

219) الذخيرة 4/1/24، والبيان المغرب 3/20.

220) البيان المغرب 3/20.

221) البيان المغرب 3/19.

222) البيان المغرب 3/19.

223) الذخيرة 4/1/21، وبدائع البدائه 302.



2 — فأعُينُنــا سكـرى لفـرط شعــاعـه
وشارِبُها من شـدة السُّكر مُفْحَمُ[224]

وفي وصف إبـريق مُلِئَ منـه كأس، وبقيت في فمـه قطـرة لم تسقط، يورد صاحب الذخيرة قوله: (بسيط)

1 — وقهــوةٍ في فم الإبــريق صـافيــةٍ
كــدمع منجــوعـةٍ بــالإلْفِ مِعْبَــارِ

2 — كأنّ إبــريقنــا والــراحُ في فمــه
طيــرٌ تنــاولَ يـاقـوتــا بمنقـارِ[225]

ورغم أن بعض المعاني المادحة المقتضبـة كانت تمازج بعض أوصافه الصريحة للأزهار، كقوله في الترنجان: (بسيط)

1 — لَمْ أَدْرِ قبلَ تــرنجــانٍ علمت بــه
أن الــزمــرّدَ قضبــانٌ وأوراقُ

2 — كأنمــا الحــاجبُ الميمــونُ علّمــه
فِعْلَ الجميلِ فطـابتْ منه أخـلاقُ[226]

تظل بقايـا القصائد التي قالهـا في وصف انتصارات ممـدوحه نمـوذجا لإحســانـه في بناء مقـاطع الـوصف المـادح تقربـا إلى الممدوح. ومن خير أوصافه المادحة، أبيات قصيدته التي قالها في وصف الحديقة التي غرسها المهدي من رؤوس أعدائه: (وافر)

جلاءُ العينِ مبهجةُ النفوسِ حدائقُ أطلعتْ ثمرَ الرؤوسِ[227]

---

224) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص: 100.

225) الذخيرة 4/1/25، وبدائع البدائه ص: 302. وانظر في وصفـه المجلس في يوم بارد التشبيهات ص: 173.

226) البيان المغرب 3/19.

227) الذخيرة 2/1/27.



ولا يقل عن هذه حسنا قوله في معركة، لعلها التي خاضها عبد الملك المظفر بأمر من أبيه الحاجب المنصور، ضد جيوش زيري بن عطية بعد أن عبر إليهم البحر: (كامل)

عَزْوٌ كَوَلْغِ الذئبِ عن ظَمَأٍ   في باردٍ حَصِرٍ من التعَبِ[228]

ومن مدائحه في المنصور التي رآها صالحة لأن تكون فصا من الفصوص، دالية أثبتها قائلا: «قال صاعد بن الحسن: ونلقي دلونا في الدلاء، وللمرتاد رزقُه، وللناقد اختيارُه؛ قلتُ في مولانا المنصور أيده الله من قصيدة أولها: (رمل)

1 — قَدْ وَجَدْنَا الدَّمْعَ أشْفَى لِلْكَمَدْ
وَرَأَيْنَا الْغَيَّ أدْنَى لِلرَّشَدْ

2 — والَّذِي أَعْطَى أَبَا عَامِرٍ الْـ
مُلْكَ والدِّينَ ونَصْرَ المُضْطَهَدْ

3 — مَا رَأَتْ عَيْنَايَ شَمْساً قَبْلَهُ
طَلَعَتْ فِي الأُفْقِ مِنْ وَجْهِ أَسَدْ

4 — يَجْمَعُ الدُّنْيَا بِكَفَّيْ رأيِهِ
جَمْعَكَ الآلاَفَ فِي عَقْدِ الْعَدَدْ

5 — يَسْأَلُ الْعَانِيَ أَنْ يَسْأَلَهُ
فَإِذَا أَوْلاَهُ مَعْرُوفاً جَحَدْ[229]

وكما شهدت المدائح التي قالها في المنصور على فترة العزّ التي قضاها صاعد في بلاط المنصور، شهدت المدائح التي قالها في الممدوحين اللاحقين، على تغير أحواله في الأندلس وانتهائه إلى الفقر الصريح. فالمدائح التي صاغها لولي نعمته المنصور،

---

228) التشبيهات ص: 218.

229) الفصوص ص: 127ب.



عندما أكمل بناء قصر الـزاهرة، تحمل آثار الانشراح والسكينة التي كانت تملأ قلبه وهو تحت رعاية المنصور. ولعل البائية التي قالها في هذا الملك، كـانت من الشعر الجيد، بالقيـاس إلى ما حسن من شعره، فقد كشف فيها عن نفس شعري لا يمكن تجاهله. وأظن أنه وهو ينظم هذه القصيدة، كان يتمثل بناء قصيدة أبي النجم البائية التي أوردهـا في الفصـوص،(230) ومعـاني هائيـة البحتري وهـو يصف بركة المتوكل: (بسيط)

1 — يَـاأَيُّهَـا المَلِكُ المنصـورُ مِنْ يَمَنٍ
وَالمُبْتَنِي نَسَبـاً غَيْرَ الـذي انْتَسَبَا(231)

2 — بِغَـزْوَةٍ فِـي قُلُـوبِ الشِّـرْكِ رَائِعَـةٍ
بَيْنَ الْمَنَـايَـا تُنَاغِي السُّمْـرَ وَالْقُضُبَـا

وعبر صـاعـد في مـدحـة ثـانيـة، خلـد بهـا أعظم انتصـارات المنصور(232) عن نفَس ملحمي لا يخلو من قوة: (كامل)

1 — جَـدَّدْتُ شُكْـرِي لِلْهَـوَى المُتَجَـدِّدِ
وَعَهِـدْتُ عِنْـدَكَ مِنْـهُ مَـا لَـمْ يُعْهَـدِ

2 — فَتَحَـالَفُـوا لِمُحَنَّـثٍ، وَتَجَمَّعُـوا
لِمُفَـرِّقٍ، وَتَأَلَّفُـوا لِمُبَـدِّدِ(233)

وبموت المنصور، وتـولي ابنه عبـد الملك المظفر، تغيـر نفس مديح صاعد المنشرح، وأصبح مشوبا ببعض ما انكشف عن حالة توجس ويأس، يبدو أن صـاعدا عانى منها بعـد موت ولي نعمته. فالبائية التي أرسلها إلى عبد الملك المظفر يهنئه بعيد الفطر، كانت

230) الفصوص ص: 101أ.
231) البيان المغرب 2/ 277.
232) هو الانتصار الذي حققه في غزوة جربيرة سنة 390هـ
233) أعمال الأعلام ص: 510.



في الحين نفسه إعلانا عن عزم صاعد على ترك مجالس اللهو والأنس. وكان المرض عذر صاعد إلى ممدوحه المظفر.(234) ولم يخف البيتان المادحان اللذان قالهما صاعد، عندما قتل المظفر وزيره ابن القطاع ـ وكان صديقا لصاعد ـ التوجس(235) الذي أصبح يملأ قلبه، رغم أن المناسبة كانت مدحا: (بسيط)

1 — فَتِلْكَ هَامَتُهُ فِي الْجَوِّ نَاطِقَةٌ
تُحَدِّثُ النَّاسَ مِنْ آيَاتِهَا عِبَرَا(236)

2 — مَكْتُوبَةُ الْوَجْهِ بِالْهِنْدِيِّ يَقْرَؤُهُ
مَنْ لَيْسَ يَقْرَأُ مَكْتُوباً وَلاَ سُطُرَا

وتحوَّل مديحه في الفترة الأخيرة من حياته في الأندلس، من صورة المديح الشاكر للنعم، إلى صورة المديح المستجدي لما يستر من الرزق؛ ومن ذلك ما قاله في الخليفة سليمان المستعين، وما قاله في القائد علي بن وداعة. فالقصيدة الحائية التي مدح بها هذا القائد، تكشف عن تذلل وتصاغر، ما كانا ليصدرا عنه لو كان المنصور ما يزال حيا.(237) ولعل مدائحه قد عادت إلى انشراحها وتهللها في آخر أيامه بالأندلس، عندما اتصل بمجاهد العامري، ومنذر بن يحيى التجيبي، بعد مغادرته قرطبة إلى دانية وسرقسطة. لكننا لا نملك من مدائح هذه المرحلة من حياته بالأندلس، إلا بقايا قصيدة مدح، جعلها جزءا من رسالة شكر كتبها إلى مجاهد، يشكره على ما وصله به من مال، ويصف انتصاره على خيران العامري، وفيها يقول: (متقارب)

---

234) انظر جذوة المقتبس ص: 224.

235) يبدو هذا التوجس في جعله هامة صديقه المقتول الوزير ابن القطاع عبرة.

236) الذخيرة 1 ـ 1/128.

237) الذخيرة 4 ـ 1/54.



أَتَـتْـكَ الْخَرِيطَةُ وَالْمَرْكَبُ كَمَا اقْتَرَنَ السَّعْدُ وَالْكَوْكَبُ(238)

ورغم بعض السرور الذي عبر عنه اندفاع المتقارب في هذه الأبيات، يحس القارئ بأن ورود المال لم يستطع أن يمحو كل الحزن الذي كان قد بدأ يملأ قلبه منذ وفاة المنصور.

أما غزله، فلم يشغل في ما وصلنا من شعره، إلا أبياتا قليلة، منها أبيات نسيب(239) تقليدي استهل به معارضته لرائية أبي نواس؛ إلا أن ما وصل إلينا من غزله يوحي بأن صاعدا لم يكن يملك نفَسا غزليا مرهفا، فقوله في وصف لحظة فراق، لا يخلو من برودة: (وافر)

1 — فَـرَدَّتْ أَعْيُنَ الـرُّقَبَـاءِ حَيْـرَى
بِأَلْحَـاظٍ كَأَلْحَـاظِ الْمَـرُوعِ(240)

2 — وَلَمْ يَكُ فِـيَّ إِذْ رَحَلُـوا سِـوَى أَنْ
أُغَـازِلَهُمْ بِأَطْـرَافِ الـدُّمُـوعِ

وأرق من هذين البيتين قوله في لحظة الفراق أيضا: (منسرح)

1 — قُلْتُ لَـهُ وَالـرَّقِيبُ يُعْجِلُـهُ
مُـوَدِّعـاً لِلْفِـرَاقِ: أَيْنَ أَنَـا

2 — فَمَـدَّ كَفّـاً إِلَـى تَـرَائِبِـهِ
وَقَـالَ: سِـرْ وَادِعـاً، فَأَنْتَ هُنَـا

أما نسيبه في القصيدة التي عارض بها رائية أبي نواس، فقد كان استثمارا لمحفوظه من الشعر البدوي، كما يتضح من استلهامه صورة البقرة المسبوعة، أو التي أصاب الصياد صغيرها؛ وهي صورة كثيرة التردد في الشعر القديم.(241) إلا أن التكلف باد

238) الذخيرة 4ـ 1/ 23.

239) الذخيرة 4ـ 1/ 12.

240) الذخيرة 4ـ 1/ 23.

241) انظر مثلا قول لبيد:

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَا

على صياغة الصورة التي شبه فيها صاعد أشلاء الحشف بلحم الجزور المقسمة: (طويل)

1 — وَبَاتَتْ كَمَا بَاتَتْ مَهَاهُ حَمِيلَةً
لَهَا جُؤْذَرٌ عِنْدَ الضَّرَاةِ عَقِيرُ

2 — وَقَدْ أُكِلَتْ أَشْلاَؤُهُ فَكَأَنَّهَا
مُقَسَّمَةٌ عِنْدَ الْقِدَاحِ جَزُورُ

3 — كَمَا بَغَمَتْ مِنْ شَجْوِهَا أُمُّ وَاحِدٍ
أُتِيحَ لَهَا مِثْلَ الزُّجَاجِ طَرِيرُ

4 — لَدُنْ غُدْوَةً حَتَّى صَغَتْ شَمْسُ يَوْمِهَا
وَفِي أَبْهَرَيْهَا رَنَّةٌ وَزَفِيرُ

5 — تَسُوفُ ثَرَاهُ عَنْ مَشَقِّ إِهَابِهِ
كَأَنَّ أَسَابِيَّ الدِّمَاءِ عَتِيرُ(242)

د) ورغم قلة ما بأيدينا من شعر صاعد، نستطيع استئناسا بهذا القليل الذي وصلنا، أن نتعرف بعض خصائص أسلوب هذا العالم الشاعر في توظيف العناصر الشعرية الأولية الدقيقة. ونكتفي في هذا المدخل بالحديث المقتضب عن توزيع الأوزان والقوافي في شعره، من خلال ما وصل إلينا من نماذج، فهو يركب الطويل، والبسيط، والوافر، والكامل، والرمل، والمنسرح، والخفيف، والمجتث، والمتقارب؛ إلا أن أضرب الكامل والبسيط والوافر والطويل كانت الأبحر الغالبة على ما تبقى من أشعاره.

ويبدو من خلال ورود الكامل والبسيط والوافر والطويل في مدحه ومقطوعاته الواصفة، أنه لم يكن يراعي العلاقة بين بنية الوزن الإيقاعية، وموضوع الشعر، ويفسر ذلك بميله إلى الأوزان الطويلة لذاتها. أما هذا الميل نفسه إلى ما امتد وطال من الأوزان،

242) الذخيرة 4 ـ 1/23.



فيعود إلى تشبعه بإيقاع هذه الأوزان، من خلال ما اختزنته ذاكرته من محفوظ شعري قديم.

ويظهر تأثير هذا المحفوظ أيضا، في اختياره لقوافيه؛ فصاعد، رغم نشأته في عصر كان الشعراء فيه يفاخرون بالقدرة على النظم على كل القوافي، إظهارا لسعة المحفوظ اللغوي، لم يخرج عن القوافي التي نظم عليها القدماء. ففي النماذج التي نقلتها المصادر، نجد صاعدا يركب الميم رويا، والعين، والباء، والتاء، والدال، واللام، والصاد، والسين، والفاء، والقاف، والنون، والراء، والحاء. إلا أن توزيع هذه القوافي نفسها، كان خاضعا لقيمها الصوتية؛ فمعظم ما بأيدينا من شعره بني على ما أسماه القدماء بالقوافي الذلل، وهي قواف أكثر منها القدماء لإطرابها السمع. وكانت الباء والدال، أغلب هذه القوافي على شعره. ورغم القيمة الموسيقية للنون واللام، رويا، لم يكثرا في شعره؛ ولعل قلتهما هذه، تعود إلى ضياع لامياته ونونياته، والملاحظ أن نصف هذه القوافي ورد مردفا. أما مجاري هذه القوافي، فقد غلب عليها الكسر والضم، ولم يقيد صاعد الروي إلا مرتين.

من خلال هذا الوصف السريع للأوزان والقوافي في ما لم يضع من شعره، يتبين أن محفوظ هذا العالم من أشعار القدماء، قد جعله ينحو في اختيار الأوزان والقوافي منحى قديما، أبعده عن الأوزان القصيرة والقوافي المتكلفة التي كثرت في أشعار المولدين والمحدثين.

هـ) ورغم عناية القدماء النسبية بأخبار صاعد، لم تلق أشعاره من لدن النقاد العناية التي يمكن أن تعرفنا بمنزلته الشعرية لدى النقاد القدامى. فالمصادر التي اهتمت بشعره وشاعريته جد قليلة؛ وقد تكون التشبيهات، والذخيرة، والبدائع، والنفح، المؤلفات التي نظر أصحابها إلى شعره نظرة نقدية. أما التشبيهات، وبدائع



البدائه، فقد تجلى اهتمامهما النقدي بشعره في اختيار بعض مقطوعاته، وجعلها نموذجا يحتذى في باب التشبيهات والبدائه البديعة. ولعل الصداقة التي جمعت بين صاعد وابن الكتاني كانت سببا في تحبيب شعره إلى صديقه.(243) وأما الذخيرة، والنفح، فقد تضمنا أو نقلا بعض ما يعد تقويما نقديا لشاعرية صاعد؛ إلا أن هذا التقويم النقدي قصر على تناول بديهته وارتجاله، ثم التنبيه إلى سرقاته. فسرعة البديهة كانت لدى معاصريه دليلا على قوة الشاعرية، وتمكن الشاعر من فن النظم. وكان اختبار هذه البديهة يتم بمفاجأة الشاعر، بأن يطلب منه وصف مشهد مفتعل، لم يكن قد تهيأ لوصفه أو وصف مثله. ويظهر أن صاعدا الذي اشتهر بسرعة جوابه وحضور بديهته، كان يملك القدرة على النظم وارتجال الشعر في المناسبات الطارئة وغير المتوقعة. ولم يعترف بقصوره، إلا عندما طلب منه المنصور معارضته رائية أبي نواس.(244) لكن اعترافه بقصوره عن معارضة شعر أحد كبار شعراء المشرق، حتى بالروية،(245) لم يكن ليمنعه من أن يتحدى معاصريه من شعراء الأندلس، بما كان يقوله ارتجالا وبديهة. فالمقري ينقل عن ابن سعيد خبرا يفيد أن صاعدا تحدى ابن العريف أمام المنصور، بأبيات في وصف قصر الزاهرة، فاقت حسنا البيتين اللذين كان ابن العريف قد هيأهما لوصفها؛ وكان مما قاله المنصور لابن العريف وهو يستحسن أبيات صاعد المرتجلة: «مالك فائدة في مناقضة مَنْ هذا ارتجاله...».(246) وكان الرد على إعجاب السامعين بمثل هذه البدائه، لا يتم إلا باتهام

---

243) كان صاعد نزل ضيفا على ابن الكتاني في سرقسطة.

244) الذخيرة 4 ـ 1/22 ـ 23.

245) مما قاله صاعد معتذرا:

إني لاستحيي علا ك من ارتجال القول فيه

246) نفح الطيب 1/582.



الشاعر بالسرقة، ونسبة الشعر إلى غيره. وقد نقلت جل المصادر خبـر البيتين اللـذين قـالهمـا صـاعـد في وصف وردة لم تستتم تفتحها، فكانـا سببا في اتهامه بالسرقـة، وغضب المنصور عليه. ولم يكن أمام صاعد لينفي ما اتهم به، إلا أن يبرهن أمام المنصور على أنه أقـدر شعرائه على الارتجال، بـوصفه المشهد الـذي كان المنصور قد أعـده لاختبار شاعريتـه وبداهته.(247) وإذا كـان ابن بسام قـد نقل هذا الخبـر، ليكشف عن علاقـة الحسد بمـا اتهم به صاعد، فإنـه في مكان آخر،(248) لم يتـردد من أن يشيـر إلى مـا اعتبره سرقة صريحة، تشكك في أصالة ما كان صاعد يزعم قوله على البديهة. وقد يكون صاعد ـ فعـلا ـ قد نســب إلى بـديـهـتـه متعمدا، مـا أخذه من أشعـار معاصـريه في المشـرق؛ لكن هذا لا يمنعنا من أن نفسر هــذا التشابه، بتسرب ما اختـزن في ذاكرته مــن أشعـــار معاصـــريه إلى أبـــياتـــه، دون أن يكـــون ذلك مقصـــودا.

والملاحظ رغم عناية بعض المصادر بشعر صاعد، وورود بعض الخلط بين أشعـاره وأشعار غيـره. فابن بســام يقول في تـرجمته لصاعد: «وصاعد القائل (مجزوء الرمل):

1 ــ لِـيَ مِنْ سِيــــــرِّ بَنِـي الْعَبْــــــ ـــــــــبَاسِ خِـلٌّ وَجَلِيــسُ

2 ــ فَـإِذَا جَـــــــالَسْتَـــــــهُ لَـمْ تَــــــدْرِ مَـنْ مِنـّـــا الْجَلِيـسُ(249)

---

247) انظر الخبر في الذخيرة 4ـ 1/17ـ 19.

248) الـذخـيـرة 4ـ 1/25.

249) الذخيرة 4ـ 1/21.



بينما ورد هذا الشعر الذي نسبه ابن بسام إلى صاعد، مُصَرَّحاً بنسبته في كتاب الفصوص، إلى الشاعر العباسي كشاجم،(250) كما ورد في ديوانه نفسه.(251)

وفي ترجمة السلفي،(252) والقفطي،(253) والصفدي،(254) والمقري(255) لصاعد، نسب إليه الشعر الآتي: (كامل)

1 — وَمُهَفْهَفٍ أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ
قَمَرَ الْفُؤَادَ بِفَاتِنِ النَّظَرِ

2 — خَالَسْتُهُ تُفَّاحَ وَجْنَتِهِ
فَأَخَذْتُهَا مِنْهُ عَلَى غَرَرِ

3 — فَأَخَافَنِي قَوْمٌ فَقُلْتُ لَهُمْ
لاَ قَطْعَ فِي ثَمَرٍ وَلَا كَثَرِ

رغم أن صاعدا نسب هذه الأبيات في كتابه الفصوص، إلى صديقه الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف.(256) وقد نجم عن هذا الخلط، أن بلاشير(257) في دراسته عن صاعد وشعره، ذهب ـ وهو يجهل أن هذه الأبيات ليست لصاعد ـ إلى أنها تشير إلى جارية عشقها صاحب «الفصوص» بالأندلس.

إن الدراسة المتأنية لأشعار صاعد، قد توصلنا إلى الحكم على هذا الشعر، بأنه لم يكن يرتفع إلى درجة أشعار معاصريه في المشرق؛ ورغم ذلك نجد أنفسنا مرغمين على أن نعترف بأن هذه

---

250) الفصوص ص: 91أ.
251) ديوان كشاجم ص: 287.
252) معجم السلفي ص: 144 ـ 145.
253) إنباه الرواة 2/66.
254) الوافي بالوفيات 16/230.
255) النفح 4/76.
256) الفصوص ص: 111أ.
257) انظر مقالة بلاشير في مجله هسبريس ج 10، مج: 1، سنة 1930.



الأشعار نفسها، هي التي جعلت صاعدا العالم، يصبح شاعر المنصور في الأندلس.

IV ـ صاعد الكاتب :

انفرد ابن بسام في ذخيرته بنقل فصول من ثلاثة رسائل لصاعد، إلا أن هذه الرسائل لا يمكن أن تقوم شاهدا على أن صاحب الفصوص كان احترف الترسل، فالرسائل الثلاث كلها كتبت للتبليغ، لا لإظهار البلاغة. أما الرسالة الأولى(258) فقد كتبها على لسان صديقه الوزير عبد الله بن مسلمة، إلى الوزير ابن الدب، ليشفع له عند الخليفة سليمان. وكتب الرسالة الثانية(259) إلى مجاهد العامري صاحب دانية، يصف ظهوره على خيران العامري وأسره لجماعة من الصقلب، ويشكره على ما وصله به. كما كتب الرسالة الثالثة أيام الفتنة، إلى القائد علي بن وداعة يستغيث به، بعد أن ساءت أحواله وضاق به العيش. وما نلاحظه في هذه الرسائل أن صاعدا يميل بالصياغة إلى التعبير عن القصد المطلوب، أكثر من ميله إلى التأنق. فالأسجاع في هذه الرسائل قليلة، رغم أن السجع في المشرق كان قد أصبح غاية تطلب، وقصة الرسالة التي بعثها الصاحب بن عباد من النوبهار في وسط النهار مشهورة. والجمل لا تخضع لتقطيع إيقاعي منتظم، والقصد والاعتدال في إيراد الجناس والطباق واضح، كما يدل على ذلك قوله في رسالته إلى الوزير ابن الدب: «لما جمع الله طوائف الفضل عليك، وأذلق بك الألسن، وأرهق فيك الخواطر، ورفرف عليك طير الآمال، ونفضت إليك علائق الرحال، لم أجد لابن سلمة حين عضه الثقاف، وضاق به الخناق، وانقطع الرجاء، وكبابه

---

258) الذخيرة 4 ـ 1/10.

259) الذخيرة 4 ـ 1/11.



الدهر، ملجأ غيرك؛ فعطفك على والـه نبهه النحس من سنة السعد، وأيقظته الآفات من رقـدة الغفلة، ورشقته سهام الـزمان بصنوف الامتهان، حتى لقب المنية أمنية، وسمى الموت فوتا. ومن لم يكتب له الدهر سجلا، ولا عقد لـه أمانا، ولا أشهد على نفسه ثقة، فليكن منه علـى حذر، ومن نبوتـه على يقين الخبر. وليعلـم أن اصطناع المعـروف يكافـئ المرء في سمعـه وبصـره، ويلقاه فـي طريقـه، ويحول بينه وبين محاربه، ويجازيه في أهله وولده، ويصحبه في اغترابه عن بلده». (260) ومقابل اعتداله في التصنيع، نجده يميل إلى الإكثار من عطف الجمل بعضها على بعض، كما يتبين في الرسالة السـابقة، وفـي العبارات الأولى منهـا بصفـة خاصـة. ولعل هـذا الإلحـاح في استعمـال واو العطف، كـان تعبيرا غيـر مبـاشـر عن الإلحاح في الطلب نفسه.

٧ ـ صاعد النديم :

كان الملوك والوزراء، في القرون الأولى، قد جعلوا من «النديم» شخصـا مكملا للمجـالس التي يحضرهـا علماء وشعـراء، يمنعهم وقارهم من أن يتحولـوا إلى مهرجين مضحكين. لكن التنافس من أجل الوصول إلى هذه المجالس، أصبح منذ القرن الثاني الهجري، يدفع بعض الشعراء إلى التخلي عن وقـارهم وجدهم، للتحول إلى نـدماء متحـامقين، يدخلـون مجالس الحكـام من أبواب غيـر التي يـدخل منها أهـل الوقـار. وقـد افتخر بعض هـؤلاء الشعـراء بأن تحامقه قد أكسبه من المال، ما لم يكسبه إياه جده وعلمه: (طويل)

وَصَيَّرَ لِي حُمْقِي بِغَالاً وَغِلْمَـةً   وَكُنْتُ زَمَانَ الْعَقْلِ مُمْتَطِياً رِجْلِي

ودخل القـرن الرابع، ليعلن عـن ميلاد نمـوذج جـديد للنـديم، نموذج العالم الوقور الـذي لا يمنعه وقاره من أن يتحول في نفس

260) الذخيرة 4 ـ 1/10.



المجلس إلى عابث ماجن للتسلية والتسلي. وكان الوزير المهلبي ممن شجع على ظهور هذا النوع من الندماء.(261) ولم يكن امتناع أبي الطيب عن مدح المهلبي، إلا نفورا من العبث والمجون اللذين غلبا على مجالسه.(262)

وكان على كبار الشعراء أن يتحامقوا متنكرين لجدهم وعلمهم، ليضمنوا لأنفسهم مكانة في مجالس الحكام؛ يقول ابن لنكك، داعيا أهل الجد من العلماء والشعراء إلى ترك الجد واصطناع الحمق والهزل: (كامل)

1 — يَاطَالِباً بِالْعِلْمِ حَظّاً مُسْعِفاً
فِي ذَا الزَّمَانِ رَأَيْتَ رَأْيَ مُخَرْنَقِ

2 — أَنْفَاقَ عِلْمٍ فِي زَمَانِ جَهَالَةٍ
تَرْجُو وَدَهْرِ عَمًى وَسُخْفٍ مُطْبِقِ

3 — كُنْ سَاعِياً وَمُصَافِعاً وَمُضَارِطاً
تَنَلِ الرَّغَائِبَ فِي الزَّمَانِ وَتَنْفَقِ(263)

ويؤكد العكبري أن تحامقه، هو الذي أكسبه رزقه: (بسيط)

وَلَسْتُ مُكْتَسِباً رِزْقاً بِفَلْسَفَةٍ   وَلاَ بِشِعْرٍ وَلَكِنْ بِالْمَخَارِيقِ(264)

وكان ابن الحجاج وابن سكرة، صديقا صاعد، ممن جعلوا ترك العلم الجاد، واصطناع الهزل، مدخلا إلى مجالس الملوك والوزراء. وقد اعترف ابن الحجاج بأنه ما كان ليترك الشعر الجاد ـ وهو القادر عليه ـ لو لم يدرك أن الرزق سبيله الهزل والتماجن: (مخلع البسيط)

261) انظر الخبر الذي ينقله الثعالبي عن مجون المهلبي والقاضي التنوخي في اليتيمة.

262) انظر خزانة الأدب 1/386 حيث الإشارة إلى عبث ابن الحجاج وأمثاله بأبي الطيب عندما امتنع عن مدح المهلبي ترفعا عن مجونه وهزله.

263) يتيمة الدهر 2/350.

264) يتيمة الدهر 3/117.



1 — بِـــاللَّـــهِ يَـــاأَحْمَـــدَ بْنَ عَمْـــرٍو
تَعْـــرِفُ لِلنَّـــاسِ مِثْلَ شِعْـــرِي
2 — شِعْـــــرٌ يَفِيـضُ الْكَنِيـفُ مِنْـــهُ
مِنْ جَـــانِبَـيْ خَـــاطِـرِي وَنَحْـرِي
3 — لِـــوَجْـــدِ شِعْـــرِي رَأَيْتُ فِيـــهِ
كَــــــوَاكِـبَ اللَّيْلِ كَيْـفَ تَسْـــــرِي
4 — وَإِنَّمَـــا هَـــــزْلُـــــهُ مُجُـــونٌ
يَمْشِي بِـــهِ فِي الْمَعَـاشِ أَمْـرِي(265)

ولم يكن ابن الحجاج مخطئا، فقد أكسبته شخصية النديم المهرج منصب الخراج والحسبة ببغداد، فضلا عن المال. ولم ينج صاعد من تأثير هذه النظرية، فعلاقته بالوزير المهلبي، وصداقته لابن الحجاج وابن سكرة، وروايته أشعارهما، مما يجعلنا نعتقد أنه قد استطاع في المشرق، أن يحصل من العلم وغيره، ما أكسبه شخصية «النديم» المحترف. وإشارة ابن خير إلى أنه كان ينادم الوزير ابن حنزابة بمصر لا يفارقه،(266) تدل على أنه كان قد اكتسب في مجالس المهلبي، وابن العميد، وعضد الدولة، ومجالس أصدقائه، كل آداب المنادمة وأسرارها، قبل أن يرحل عن بغداد. وقد شهد له الأندلسيون ـ رغم عداء بعضهم له ـ بالبراعة في المنادمة، فتلميذه ابن حيان يسميه أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادي النديم،(267) وصديقه الوزير أبو حفص بن برد يسلم له بالتفوق والبراعة في كل ما يحبب النديم إلى مجالسيه: (بسيط)

أَنْتَ الَّذِي لَمْ يُعَاشَرْ مِثْلُهُ رَجُلاً   فِي الْعِلْمِ وَالظَّرْفِ وَالْآدَابِ وَالطِّيبِ(268)

265) يتيمة الدهر 3/32.
266) فهرست ابن خير ص: 358 ـ 359.
267) نقلا عن البيان المغرب 3/18.
268) الذخيرة 1 ـ 1/129.

إن المكانة التي حظي بها صاعد في بلاط المنصور ـ رغم مكايد خصومه ـ لا تفسر، إلا بكون صاعد وهب من الآداب والصنائع والاستعداد للمنادمة، ما لم يتوافر لغيره من الندماء، ويتبين هذا من خلال تناولنا للأبعاد المتعددة لشخصية صاعد المنادمة.

1) النديم العالم :

كان الاختبار الذي أفحم فيه صاعد الزبيدي والعاصمي، كافيا لإقناع المنصور بسعة علم ضيفه المشرقي؛ لكن صاعدا أبى إلا أن يثبت لولي نعمته الجديد أنه ضم إلى مجلسه عالما ليس كباقي العلماء، فاستأذنه في تأليف الفصوص، ولم يكن التأليف نفسه سبيل صاعد إلى ترسيخ مكانته في بلاط المنصور، فالقالي قد ألف قبله أماليه. لكن أن يخبر المنصور بأنه سيؤلف له كتابا أرفع من نوادر القالي قدرا وأجل خطرا، لا يدخل فيه خبرا مما أدخله القالي،(269) كان التحدي العلمي الذي شكك به صاعد في سعة علم تلامذة القالي، بل وفي سعة علم شيخهم نفسه. أما المال الكثير الذي أثابه به المنصور دفعة(270) واحدة، فقد كان شهادة شهد بها هذا الملك لصاعد، بأنه عالم مجالسه الأول.

2) النديم المسامر :

كان أدب الظرف الذي روج له الوشاء وغيره، نوعا من الخطاب، يتوسط بين جفاء التزمت وخلاعة المجون؛ وكانت براعة الظرفاء في الحديث والمجالسة، مما قربهم إلى الملوك والوزراء وكبار الحكام. ويبدو أن صاعدا كان ـ وهو يحضر مجالس المهلبي، وابن العميد، وعضد الدولة في المشرق ـ قد خبر فن

269) الذخيرة 4 ـ 1/ 15.

270) الصلة ص: 238.



المجالسة والحديث. ولم يكن الأديب يدرك هذه الخبرة، إلا بعد أن يصبح هو نفسه متذوقا لما يمتعه به الظرفاء. وقد عبر صاعد عن هذه المتعة في إيراده قول كشاجم واصفا صديقا له كان من الجلساء الظرفاء: (مجزوء الرمل)

1 — لِيَ مِنْ سِرِّبَنِي الْعَبَّـاسِ خِلٌّ وَجَـلِيـسُ
2 — شَـهِدَ الْمَجْدُ عَلَيْهِ ... أَنَّـهُ الْعِلْـقُ النَّفِيـسُ
3 — فَإِذَا جَالَسْتُهُ لَـمْ ... تَدْرِ مَنْ مِنَّا الْجَلِيـسُ(271)

وقد اعترفت جل المصادر القديمة لصاعد بالبراعة في فن المجالسة، فالحميدي في القرن الخامس الهجري يصفه بأنه كان «طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعا».(272) ويرد نفس الوصف عند ابن بشكوال،(273) والضبي،(274) والمراكشي،(275) والقفطي،(276) ووصفه الصفدي بأنه كان طيب العشرة حلو المفاكهة.(277) وما قصة الأيل الذي أهداه(278) صاعد إلى المنصور، إلا دليل على لطافة ظرفه، وخبرته بمعاشرة الملوك. وكانت مسامراته ثمارا جناها المنصور، وشغف بها، وكان من ألذ ما جناه من هذه الثمار كتاب الهجفجف بن غدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف، ثم كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء؛ وقد استطاع صاعد بإجادته بناء حكاية الجواس وابنة عمه، أن يجعل المنصور متعلقا بهذا الكتاب، مع علمه بأنه كان من نسج

---

271) الفصوص 91أ.
272) جذوة المقتبس ص: 223.
273) الصلة ص: 237.
274) بغية الملتمس ص: 319.
275) المعجب ص: 31.
276) إنباه الرواة ص: 86.
277) الوافي بالوفيات 16/227.
278) نقلت جل المصادر خبر هذه الحادثة، انظر مثلا الجذوة ص: 226، والمعجب 37.



خيال مؤلفه: «وكان يصنف كتبا في أخبار العشاق، ويسمي أسماء غريبة لا أصل لها، وينسب إليها كلاما منظوما منثورا، يـرصعها من قوله وقول غيره، فمنها كتاب الهجفجف وكتاب الجواس؛ وكان المنصور مغرما بكتاب الجواس، يُقرأ عليه كل ليلة شيء منه».(279)
وقد أكد المراكشي الذي قرأ الكتاب بعد أكثر من قرنين، أن كتاب الجواس كان ممتعا: «وهو كتاب مليح جدا، انخرم أيام الفتن بالأندلس، فنقصت منه أوراق لم توجد بعد».(280)

إننا نعرف صاعدا الشاعر من خلال أشعاره، وسنعرف صاعدا العالم الراوية من خلال كتاب الفصوص الذي كان لنا شرف إخراجه إلى القارئ، بعد أن أصبح اسمه شبه أسطورة؛ فلعل الأيام تجود بإظهار كتابي الهجفجف والجواس، لنتعرف صاعدا النديم المسامر، في عصر كشفت فيه المناهج الحديثة عن أن مثل هذا الأدب رصيد ثقافي لا يجب تجاهله.

3) النديم المغني والعالم الموسيقار :

نعثر في الذخيرة على خبرين يفيدان أن صاعدا كان عالما بالنغم والألحان؛ الخبر الأول يتعلق بالمجلس الذي امتحن فيه المنصور صاعدا، ومن بين ما نقله ابن بسام في هذا الخبر «قال صاعد: وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفك المعمى، وعلم الموسيقى».(281)

والخبر الثاني يفيد أنه كان يخفي علمه بالموسيقى عن المنصور، وعلى عامة الناس: «ودخل صاعد يوما على المنصور؛ فلما وصل إليه، وجد عودا بين يديه. فقال له المنصور: قد تواتر

---

279) إنباه الرواة 2/86.

280) المعجب ص: 33.

281) الذخيرة 4/1/15.



الخبر، وتحدث عنك البشر أنك فرد في علم الموسيقى. وقد أردت غير مرة الانبساط معك سرا في ذلك. فشق الأمر على صاعد هنالك، ولم يجد من محيد عن أخذ العود؛ فتناوله، وجس أوتاره، وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر، ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر...».(282)

وما يثير الانتباه في هذين الخبرين أمران:

- **أولهما**: التعارض بين تصريحه أمام المنصور بأن علم الموسيقى من معارفه، وإخفاء معرفته به عنه.

- **وثانيهما**: خفاء دلالة هذا الإخفاء نفسه.

أما التعارض فيظل قائما، إذا ما كان تاريخ المجلس الذي امتحن فيه العلماء صاعدا أسبق من تاريخ المجلس الذي طلب فيه المنصور من ضيفه المشرقي أن يغنيه سرا؛ إلا أن نفس التعارض يختفي، إذا ما افترضنا أن المجلس الذي غنى فيه صاعد للمنصور، كان أسبق من مجلس الامتحان. وإذ لم يحدد المؤرخون تاريخ مجلس الامتحان، فإن الافتراض الثاني يظل مقبولا.

أما دلالة الإخفاء نفسه، فتدعو إلى بعض التأمل. إن المكانة التي اكتسبها زرياب في الأندلس، عند حلوله بها، تفيد أن الأندلسيين لم يكونوا يعادون السماع، ومعرفة صاعد بصناعة الألحان وتآلف الأوزان، لم تكن ظاهرة غريبة؛ ففي المشرق، كان بعض العلماء والشعراء، بل وحتى الخلفاء والقواد، ممن يجيد هذه الصناعة. وكتاب شيخه أبي الفرج نموذج لما يمكن أن يؤلفه عالم شاعر، يجمع بين معرفة الألحان والأشعار والأخبار. لكن ورود مصطلح (موسيقى) عوض «صناعة الألحان»، أو ما يشبهها،

282) الذخيرة 4/1/31.



يجعلنا نتساءل عن علاقة هذا العلم الذي حصله، بعلوم الفلسفة أو العلوم العقلية. إن علم الموسيقى ينتمي إلى العلم الرابع من علوم الفلسفة، وهو علم المقادير المشتمل على العلوم الأربعة المسماة بالتعاليم،(283) وهي علم الهندسة وعلم الأرتماطيقى، وعلم الموسيقى وعلم الهيأة. هذا المستوى النظري المجرد لعلم الموسيقى يجعلها فوق صناعة الغناء التي تعد صناعة تطبيقية، يمكن أن يساعد الطبع على اكتسابها. إن تأليف ابن المنجم لرسالته في الموسيقى، وتأليف الفارابي لكتاب الموسيقى الكبير في بداية القرن الرابع، يدلان على أن هذا العلم كان متاحا للراغبين في تحصيله من التلاميذ. وقد يكون صاعد استفاد من هذين المؤلفين، لكن هذا لا يعفينا من التساؤل عن علاقة معرفة صاعد بالموسيقى، بالمجالس العلمية التي كانت تخصص لتدريس علوم الفلسفة. إن إخوان الصفاء الذين عاصروا صاعدا جعلوا دراسة هذا العلم سبيلا من سبل التهذيب، فهل ارتبط صاعد بهذه الجماعة وهو في المشرق؟ لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال، لكننا نملك نصا نقله التوحيدي في المقابسات، يفيد أن مجالس تدريس علوم الفلسفة لم تكن غريبة عن صاعد «قال يحيى بن عدي في درس البديهي عليه سنة إحدى وستين وثلاثمائة وأنا حاضر... ودخل أبو العلاء صاعد، فانقطع الكلام، وفات أن يبلغ أقصى ما عنده».(284)

لا نستغرب أن يكون صاعد قد اهتم بدراسة الفلسفة، فشيخه في علوم اللغة، أبو سعيد السيرافي كان عالما بالهندسة والمنطق،(285) ومناظرته لمتى بن يونس المنطقي مشهورة.(286)

283) مقدمة ابن خلدون (الفصل الثالث عشر) الباب الرابع ـ «العلوم العقلية وأصنافها».

284) المقابسات 156 و157.

285) الكامل في التاريخ: وفيات سنة 368.

286) الإمتاع والمؤانسة 1/109.



وإذا ما افترضنا أن صاعدا كان قد حصل فعلا بعض هذه العلوم العقلية، فهل كان إخفاؤه معرفته بعلوم الموسيقى في الأندلس، إخفاء لمعرفته بهذه العلوم، في بيئة كان عامتها ينظرون إلى العلوم العقلية بارتياب؛ وقد تميزت ولاية المنصور للحجابة، بأنها كانت فترة تراجع علوم الفلسفة التي كانت قد ازدهرت بعض الازدهار، بفضل تشجيع الحكم المستنصر على البحث فيها.

لقد أظهر المنصور بن أبي عامر نفورا واضحا من هذه العلوم العقلية - قد يكون حقيقيا، وقد يكون تقربا إلى العوام - تمثل في إحراقه ما حوته خزانة الحكم الثاني من كتب الفلسفة أمام الفقهاء. ولعل العامل الفكري البيئي الذي دفع المنصور إلى إتلاف ما ألف في هذه العلوم، كان هو السبب الذي جعل صاعدا يخفي معرفته بعلم الموسيقى عن المنصور وعن الأندلسيين، خوفا من أن ينسب إلى الاشتغال بعلوم مريبة، لم يكن الاشتغال بها محمودا. ولا نعلم أكانت رغبة المنصور في الانبساط مع صاعد سرا، صيانة لوقاره، أم كانت غير ذلك؟ ولكننا نعلم ما يجعلنا نعتقد أن عبد الملك المظفر كان يطلب من صاعد أن ينظم له أشعارا صالحة للغناء، تغنيها جواريه.(287) إن صاعدا كان قد اعتذر للحاجب الجديد عبد الملك المظفر عن حضور مجالسه. لكن هذه الأشعار الغنائية التي كان ينظمها لقينات المظفر، وهو الشاعر المغني العالم بالموسيقى، تفيد أن هذا الحاجب الجديد، ظل يستفيد من خبرته في الغناء والموسيقى، وإن لم يلزمه بحضور مجالسه.

4) النديم الماجن :

كان لملازمة صاعد مجالس الوزير المهلبي في المشرق، ولصداقته للشاعرين: ابن سكرة، وابن حجاج، أثر في رسم صورة

287) البيان المغرب 3/18.



النديم الهازل الماجن التي عرف بها صاعد في الأندلس، إذ لم يكن يتحرج حتى في المناسبات الجادة من أن يكون هازلا ماجنا، ففي رسالة كتبها إلى الأمير مجاهد يشكره على مال وصله به، يقول: «... ولما أتتني إحدى خرائطك الجزيلة... كاد الفرح يقضي علي... ولولا أني ثَبْتٌ النحيرة... لكنت كأم أبي مزبد، إذ بعث إليها يحيى بن خالد غلاما، فقال لها: يا أمه، وهب لي يحيى (غُـ). قالت: وما (غُـ)؟ قال: (لا). وقالت: وما (لا)؟ قال: (مْ)؛ وطبق الميم على شفتيه، فضرطتْ. فقال: الحمد لله، ولولا تقطيع الحروف لخريتِ». (288) ولم تكن محنة الفتنة لتنسيه بعض هزله ومجونه، كما تشهد على ذلك الرسالة السابقة، بل إنه ظل حتى آخر أيامه بالأندلس وهو شيخ تجاوز السبعين يدرس مجون ابن الحجاج لصبيان سرقسطة، كما يذكر تلميذه أبو بكر المصحفي. (289)

ويبدو من خلال ما ورد في المصادر أن هذه الشخصية الهازلة جنت على صاعد العالم، فالحميدي يقول عنه: «... ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح، لما حمل إلا على التصديق». (290) وقد وصفه ابن مكتوم بأنه كان مقدما في العلم، كثير الخلاعة؛ وأرجع تشكك الناس في علمه إلى ما اشتهر به من مجون وخلاعة. (291)

والمجون الذي نتحدث عنه هنا مجون القول، لا مجون الفعل؛ وهو ما وصفته المصادر القديمة بالمزاح والفكاهة، لكننا نعتقد أن هذا الهزل الماجن الذي عرف به صاعد، جعله يظهر لدى بعض المتأخرين بمظهر الخليع الفاسق، كما يتضح من كلام ابن مكتوم السابق، وفي قول الفيروز آبادي عنه: «وكان خليعا مولعا بالشراب

288) الذخيرة 12/1/4.

289) فهرسة ابن خير ص: 406.

290) جذوة المقتبس ص: 223. وانظر إنباه الرواة 88/2.

291) نقلا عن بغية الوعاة 7/2. وانظر روضات الجنات 131/4.

واللعب، فلم يؤخذ عنه العلم».(292) وقد يكون صاعد ـ والله وحده أعلم ـ قد جارى بعض مجالسيه من الأندلسيين، فشرب كما شربوا، إلا أن هذا الافتراض يظل منفصلا عن هزله ومجونه أو تماجنه بعبارة أصح. فالأخبار التي نقلتها إلينا المصادر المشرقية، عن أخلاق شعراء تيار الهزل والمجون في القرن الرابع، تفيد أن سلوك هؤلاء الشعراء، لم يكن صورة لأشعارهم الماجنة. فابن الحجاج، الذي تزعم هذا التيار، كان وقورا، كما شهد بذلك معاصره أبو حيان التوحيدي.(293) وقد تعجب أبو الفتح بن العميد من وقار ابن الحجاج وجده عندما وفد عليه، لأنه كان يتوهمه من خلال شعره غير ذلك.(294) ولم تكن حال صاعد لتختلف عن حال شيخه في الهزل والتماجن ابن الحجاج، فإذا كان هذا الشاعر قد اصطنع الهزل والمجون، ليحصل على معاشه كما يؤكد ذلك قوله: (مخلع البسيط)

1 — لِوَجْدِ شِعْرِي رَأَيْتُ فِيهِ
كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَسْرِي
2 — وَإِنَّمَا هَزْلُهُ مُجُونٌ
يَمْشِي بِهِ فِي الْمَعَاشِ أَمْرِي(295)

فإن صاعدا أيضا قد جعل من هزله المسلي للمنصور ومجالسيه وسيلة إلى نيل هبات المنصور. وقد وصفته المصادر بأنه كان فعلا ظريف السؤال، حاذقا في استخراج الأموال؛(296) وما الرقاع التي لبسها صاعد، أو ألبسها غلامه، وهو يتوجه إلى مجلس الحاجب، إلا شاهد على الهزل الذي كان صاعد يصطنعه

292) البلغة 98.
293) الإمتاع والمؤانسة 1/137.
294) الإمتاع والمؤانسة 1/138.
295) يتيمة الدهر 3/32.
296) جذوة المقتبس ص: 223.



لاستخراج أموال الحاجب.(297) لقد كان في هزله يعمل بنصيحة شيخه ابن الحجاج، ونصيحة معاصره في بغداد الشاعر الأحنف العكبري الذي قال داعيا إلى اصطناع الهزل: (بسيط)

وَلَسْتُ مُكْتَسِبًا رِزْقاً بِفَلْسَفَةٍ   وَلاَ بِشِعْرٍ وَلَكِنْ بِالْمَخَارِيقِ(298)

ولعل كثرة الهزل الذي عيب على صاعد النديم، قد أكسبه من مال المنصور ما لم يكسبه إياه علمه وشعره.

إن المكانة التي حظي بها هذا النديم في بلاط المنصور وفي قلوب أصدقائه، تؤكد أنه تشخيصا حقيقيا للصورة الشعرية التي رسمها له صديقه الوزير ابن برد وهو يقول له: (بسيط)

أَنْتَ الَّذِي لَمْ يُعَاشَرْ مِثْلُهُ رَجُلًا   فِي الْعِلْمِ وَالظَّرْفِ وَالْآدَابِ وَالطِّيبِ(299)

VI ـ صاعد العالم المصنف :

لا نعرف من الكتب العلمية الجادة التي ألفها صاعد ـ إذا كان قد ألف كتبا كثيرة ــ إلا كتاب الفصوص؛ ولارتباط شخصيته العلمية الحقيقية بما تضمنه كتاب الفصوص، نرجئ الحديث عن شخصيته العلمية في التصنيف، إلى مبحث لاحق.

VII ـ صاعد الشيخ :

قد لا نبالغ إذا نحن ربطنا بين تلامذة صاعد، ووصول أخباره وفصوصه إلينا؛ فالهزل وكثرة المزاح اللذان اشتهر بهما، شككا بعض العلماء في صدق ما يقوله، ونفر المحصلين الذين غلب عليهم التزمت من الأخذ عنه، أو رواية أخباره وآثاره. لكن الشهرة العلمية التي اكتسبها بعض تلامذته، أو تلاميذ تلامذته ـ رغم

297) جذوة المقتبس ص: 223.

298) يتيمة الدهر 3/117.

299) الذخيرة 1/1/129.



قلتهم، بالقياس إلى من تتلمذ للقالي ـ جعلت بعض أخباره وبعض آثاره تخترق الحواجز الثقافية والتاريخية، لتصل إلينا معرفة بعالم كبير، أراد له سوء طالعه أن يبدأ حياته العلمية في المشرق مشهورا مغمورا، وأن يموت في أرض الغربة مشهورا مغمورا. وكان الرابط بين صاعد الشيخ، ومن تتلمذ عليه من النجباء، متمثلا في حضورهم أماليه العامة، أو السماع عنه بمنزله، أو القراءة عليه، أو السماع والقراءة على غيره من الشيوخ وهو حاضر. أما ما أخذه عنه تلامذته ورووه عنه، فقد تجلى في روايتهم عنه ما صنفه أو ما رواه عن شيوخه بالمشرق. وسأحاول باقتضاب أن أعرف بعض التعريف بعناصر حلقاته العلمية الثلاث: أقصد تلامذته ومروياته، ومصنفاته.

1) التلاميذ :

أ) ابن حيان القرطبي :

أبو مروان بن حيان بن خلف بن حسين المتوفى سنة 469هـ، صاحب المقتبس. أحد من لازم صاعدا من التلاميذ، فقد سمع الفصوص من شيخه وهو يمليه في مجالسه بالزاهرة، كما يتضح من قوله: «قد أنشدنا أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي في كتابه المعروف بالفصوص في قول هذا الأعرابي الحجازي...».[300] وقرأ عليه منفردا في داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، كما ذكر هو نفسه.[301] وإلى ابن حيان يعود فضل ذكر تاريخ بداية إملاء الفصوص ونهايته،[302] وذكر كثير من أخبار شيخه التي نقلها ابن بسام، وابن بشكوال، وابن عذاري.

---

300) المقتبس 3/14.

301) الصلة /238.

302) الصلة /238.



ويـرجح محمـود علي مكي أن مخطـوطـة الفصوص المحفـوظـة بالمغرب من رواية ابن حيان.(303)

ومن التـلاميذ الذيــن رووا الفــصوص عـن ابــن حيان أبـو محمد عبــد الرحمــان بن محـمــد بن عــتــاب القـرطبي المتوفى سنة 520هـ. فابــن بشكوال يـذكر أن ابن حيـان أجاز(304) ابـن عتاب في كتـاب الفصـوص لصاعــد؛ وعـن ابن عتـاب هذا روى القاضـي عياض(305) الفصوص. وروى الفصــوص عن ابــن حيان أيضـا أبو محـمـد الركلـي،(306) ومهاجــر بــن محمــد بــن حــزم،(307) والــوزير أبـو مـروان عبـد المــلــك بن ســراج(308) المتـوفى سنة 489هـ، بالإضافة إلى ابنـه عـمـر بن حـيـان.(309) وأورد تلميـــذ ابـن حــيان أبو عبيد اللـه عبـد الله البكـري في كـتـــبـه (معجـم مــا استعجـم) و(التنبيـه) و(الـلآلي) نقولا من الفصوص قـد تـدل علـى روايتـــه لهـذا الكتــاب عـن طــريـق شيــخـه ابــن حيــان.

ب) ابن حزم :

علي بن أحمـد بن سعيـد (أبـو محمد) المتـوفى سنـة 457هـ، العالم المشـارك صاحب المـؤلفات المشهورة. وعـن ابن حزم نقل الحميدي بعض أخبار صــاعد وأشعاره.(310) ومما صــرح ابن حزم بروايته عن شيخه القصيدة البائيـة التي أنشدها عبد الملك المظفر

---

303) المقتبس: مقدمة التحقيق ص: 58.

304) الصلة 348 وانظر فهرسة ابن عطية 81.

305) الغنية ص: 224.

306) معجم الصدفي ص: 16.

307) معجم الصدفي ص: 16.

308) معجم الصدفي ص: 16.

309) معجم الصدفي ص: 16.

310) جذوة المقتبس ص: 223 ـ 227.



يهنئه بعيد الفطر، وكانت هذه القصيدة أول ما رواه ابن حزم عن شيخه المشرقي: (وأخبرني أبو محمد علي بن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم، أنه سمع أبا العلاء صاعد بن الحسن ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر، في يوم عيد الفطر سنة ست وتسعين وثلاثمائة. قال أبو محمد: وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر؛ ولما رآني أبو العلاء أستحسنها وأصغي إليها، كتبها لي بخطه، وأنفذها إليّ...).(311) وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى رواية ابن حزم هذا عن صاعد.(312)

ج) ابن سيده المرسي :

أبو الحسن علي بن إسماعيل المتوفى سنة 458هـ، صاحب المحكم، والمخصص. وقد أشارت المصادر إلى تلمذته لصاعد، كما أشار هو نفسه إلى هذه التلمذة في أرجوزته المشهورة. ومما رواه ابن سيده عن شيخه صاعد: كتاب أسماء الوحوش وصفاتها، وكتاب صفات الأرض والسماء، والنبات للأصمعي، والغريب المصنف لأبي عبيد، وإصلاح المنطق ثم تهذيب الألفاظ لابن السكيت، وكتب المجاز عن طريق قرموطة الشيرازي.(313) وبعض المراجع المحدثة(314) تشير إلى أن ابن سيده درس علي شيخه صاعد في قرطبة، وهي إشارة تفتقر إلى سندها التاريخي والمنطقي.

فالتاريخ التقريبي لميلاد ابن سيده هو 398هـ، أي قبل بداية الفتنة بسنة، وتاريخ خروج صاعد من قرطبة أيام خلافة

311) الجذوة ص: 224.

312) لسان الميزان 3/ 163.

313) انظر أرجوزته في كتاب (ابن سيدة المرسي) ص: 151، ترجمة الدكتور حسن الوراكلي.

314) نفس المصدر ص: 43، وأبو علي القالي ص: 417.



المستعين الثانية هو 403 و 404هـ، فهل أخذ ابن سيده عن صاعد وهو دون السادسة من عمره.(315) إن الكتب والمعارف التي ذكر ابن سيدة في أرجوزته أنه حصلها قبل أن يتلمذ لصاعد تفيد، أن تلمذته لصاحب الفصوص كانت متأخرة. وإذا نحن ربطنا هذا بالمكانة التي سيكتسبها ابن سيده في دانية عند مجاهد العامري، وبوفود شيخه صاعد على هذا الأمير قادما من قرطبة سنة 404هـ، فإن من المحتمل أن يكون ابن سيده قد تلمذ لصاعد في دانية، قبل أن يغادرها الشيخ إلى سرقسطة بعد سنة 408هـ، وهي السنة التي استقل فيها منذر التجيبي بسرقسطة. وإذا نحن جعلنا من الرابعة عشرة، السن التي تلمذ فيها ابن سيده لصاعد، فسيكون قد أخذ عنه بدانية سنة 412هـ. والملاحظ أن ابن سيده لم يصرح في أرجوزته بما يفيد روايته لكتاب الفصوص، لكننا نجد في سياق نقل ابن منظور للأبيات التي قالتها امرأة من العرب، عُنِّن عنها زوجُها «قال ابن سيده: وهذه الأبيات قرأتها على أبي العلاء صاعد بن الحسن في الكتاب الموسوم بالفصوص»؛(316) وهي عبارة تفيد أن ابن سيده قد روى بعض كتاب الفصوص، إن لم يكن قد رواه كله.

ويفهم من كلام ابن خير أنه روى جميع ما رواه ابن سيده عن شيخه صاعد من المصنفات: «تواليف الشيخ الأديب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى رحمه الله، وجميع رواياته عن أبيه، وأبي عمر الطلمنكي، وصاعد اللغوي وغيره، روايتي لذلك كله

---

315) انظر فهرسة ابن خير حيث قول أبي بكر المصحفي: «كنت أقرأ المداخل على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضر... وكنت انحط في ذلك الوقت عن القراءة عليه لصغر سني، فكان جدي رحمه الله يشير على ابن خشخاش بأن تكون قراءتي عليه وقت حضور صاعد...» ص: 358.

316) لسان العرب 3/446.



عن أبي الحسن يونس بن محمد بن مغيث، عن القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، عنه». (317)

ويفهم من كلامه أيضا أن القاضي أبا عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، كان ممن روى مرويات صاعد عن طريق شيخه ابن سيده، وأن أبا الحسن يونس بن محمد بن مغيث كان من الذين رووا هذه المرويات عن طريق القاضي ابن الحذاء التميمي عن ابن سيده عن صاعد.

د) أبو الوليد هشام بن محمد بن عثمان المعروف بابن المصحفي، المتوفى سنة 440هـ، كان عالما باللغات والآداب، ومن بين من روى عنهم الشيوخ صاعد، (318) وقد روى عنه إصلاح المنطق لابن السكيت. (319)

هـ) أبو بكر المصحفي: محمد بن هشام، المتوفى سنة 481هـ، كان من المتحققين بالآداب، (320) روى عن صاعد سماعا منه، وعن طريق والده أبي الوليد المصحفي. ومما رواه عن صاعد شعر ابن الحجاج، (321) وابن سكرة. (322)

و) الخولاني: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن عثمان بن سعيد بن عبد الله بن غلبون، المتوفى سنة 448هـ، كانت له عناية بتقييد الحديث وجمعه وروايته. روى عن صاعد. (323) وذكر ابن بشكوال في ترجمته لصاعد، نقلا عن الخولاني نفسه، أن صاعدا أجاز الخولاني هذا في كل ما رواه وألفه : «وذكره

---

317) فهرسة ابن خير ص: 450.

318) الصلة ص: 648.

319) فهرسة ابن خير ص: 331.

320) الصلة ص: 656 ـ 657.

321) فهرسة ابن خير 406.

322) فهرسة ابن خير 406.

323) الصلة ص: 535 ـ 536.



الخولاني وقال: إنه أجاز له ما رواه وألفه». [324] وكلام الخولاني يفيد ضمنيا أنه كان من بين من أجازهم صاعد في الفصوص.

ز) ابن أبي حبة: محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأموي، المتوفى سنة 444هـ. كان متفننا في العلوم حافظا للأخبار. ذكر ابن بشكوال [325] أنه روى عن صاعد اللغوي.

ح) ابن مقلس عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن مقلس القيسي الأندلسي، كان عالما باللغة شاعرا، رحل إلى مصر وتوفي بها سنة 427هـ. [326] قرأ اللغة، [327] والأدب [328] على صاعد.

ط) أبو الحسن الأصبحي: علي بن محمد بن علي بن الحسن القرطبي القنسري. روى عن صاعد. [329]

ي) أبو تمام غالب بن عبد الله بن عامر القيسي المعروف بالقطيني الميورقي ثم الداني، روى عن صاعد بصقلية عند حلوله بها سنة 414هـ وهو في طريقه إلى المشرق. [330]

ك) إدريس بن اليمان الشاعر: روى عن صاعد وهو بسرقسطة شعر ابن الحجاج. [331]

---

324) الصلة ص: 238.

325) الصلة ص: 533.

326) الصلة ص: 369 ـ 370.

327) الصلة ص: 369.

328) وفيات الأعيان 3/193.

329) جذوة المقتبس 290 والصلة ص: 412.

330) الذيل والتكملة (السفر الخامس ق 2/517).

331) فهرسة ابن خير ص: 406.



ل) ابنا غضن، خالا الوزير أبي عمر بن أرزاق: كان صاعد ضيفا عليهما بسرقسطة، رويا عنه شعر ابن الحجاج.(332)

م) شيخ من بني مفرج: روى عنه شعر ابن الحجاج، ذكر ذلك أبو بكر المصحفي: «وكان يسمعه معنا عليه شيخ من بني مفرج، أقارب القاضي ابن مفرج».(333)

ن) صِبْيان من بني مفرج: ذكر أبو بكر المصحفي أن صاعدا كان يقرئهم بسرقسطة شعر ابن حجاج:(334) «وكان صاعد يطيب فيهم من أجل شيخهم، ويقول لي أمامهم: ألا ترى أي صبيان يقرؤون علي شعر ابن حجاج».(335)

هؤلاء بعض من استطعت الوصول إليهم من تلاميذ صاعد في الأندلس، ولا أشك في أن تلامذته كانوا أكثر ممن ذكرت.

2) المرويات :

ذكر صاعد في ديباجة الفصوص أنه رزئ كتبه النفيسة، في الحادثة التي نشبت بين الوزير ابن يوسف وصمصام الدولة البويهي ملك بغداد؛ ولم يكن يحمل معه من الكتب عندما وصل إلى الأندلس إلا ما اختزنته ذاكرته، لذا فحديث المصادر عما درسه بالأندلس لتلامذته حديث عما أملاه من محفوظه. ومن الكتب التي رواها عنه تلامذته، غير ما تضمنه كتاب الفصوص:

أ) إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت: رواه صاعد عن شيخيه أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي بأسانيدهما المشهورة، ورواه عنه أبو الوليد المصحفي،(336) وابن سيده

---

332) فهرسة ابن خير ص: 406.

333) فهرسة ابن خير ص: 406.

334) فهرسة ابن خير ص: 406.

335) فهرسة ابن خير ص: 406.

336) فهرسة ابن خير ص: 330 و331.



المرسي،(337) والخولاني.(338) ورواه عن أبي الوليد المصحفي ابنه أبو بكر المصحفي، وعن أبي بكر هذا رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر، وعن ابن معمر روى ابن خير إصلاح المنطق؛(339) كما رواه أيضا عن ابن سيده المرسي أبو عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، وعنه روى أبو الحسن يوسف بن محمد بن مغيث،(341) وعن ابن مغيث رواه ابن خير.

ب) تهذيب الألفاظ لابن السكيت أيضا: رواه صاعد عن شيخيه السيرافي والفارسي.(342) ورواه عنه تلميذاه ابن سيده،(343) والخولاني.(344) وعن ابن سيده رواه القاضي ابن الحذاء التميمي. ورواه عن ابن الحذاء أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث. وعن ابن مغيث روى ابن خير تهذيب الألفاظ.

ج) المداخل في اللغة لأبي عمر الزاهد: رواه عنه ببغداد الوزير ابن حنزابة. وعن ابن حنزابة روى صاعد المداخل بمصر قراءة عليه.(345) وبحضور صاعد قرأ الوزير أبو بكر المصحفي كتاب المداخل على شيخه ابن خشخاش.(346) ورواه عن أبي بكر المصحفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر، وعن ابن معمر روى ابن خير كتاب المداخل.(347)

337) أرجوزته.
338) الصلة ص: 238.
339) فهرسة ابن خير ص: 330 ـ 331.
340) فهرسة ابن خير ص: 450.
341) فهرسة ابن خير ص: 450.
342) ديباجة الفصوص.
343) الأرجوزة.
344) الصلة 238.
345) فهرسة ابن خير 359.
346) فهرسة ابن خير ص: 358.
347) فهرسة ابن خير ص: 358.



د) الغـريب المصنف: لأبي عبيـد القـاسم بن سـلام: رواه صـاعد عن شيخيـه أبي سعيـد وأبي علي. وعنه روى ابن سيـده المرسي كتاب الغريب المصنف.(348) وعن ابن سيده رواه القاضي ابن الحـذاء التميمي. وعن ابن الحـذاء رواه أبو الحسن يـونس بن محمـد بن مغيث، وعنه رواه ابن خيـر.(349) كما رواه عن صـاعد أيضا الخولاني.(350)

هـ) كتب المجاز: ذكرها ابن سيـدة هكذا بلفظ الجمع، وأشار إلى أنهـا مما رواه عن شيخـه صاعـد الـذي رواها عن قـرموطـة الشيرازي. وقـرموطـة هذا الـذي يروي صـاعد عنـه عالم وردت الإشـارة إليه مـرتين في الفصوص، في خبـري مناظـرتين جرتـا بينهما(351) أمـام عضـد الدولـة بـالمشـرق. وقد وصف صـاعـد قرموطة هذا بـأنه كان حفظة للغة.(352) وعن ابن سيـده روى ابن الحـذاء التميمي كتب المجـاز، ورواهـا عنـه ابن مغيث وعنـه ابن خير.(353)

كما روى كتب المجاز عن صاعد أيضا الخولاني.(354)

و) شعر ابن سكـرة الهاشمي، شيخ صاعـد وصديقه، روى صاعـد عنه شعره ببغداد، ورواه عن صـاعد بالأندلس تلميـذه أبو بكر المصحفي، وعنه تلميـذه أبو عبد الله محمد بن عبـد الرحمان بن معمر، وعن ابن معمر هذا روى ابن خير شعر ابن سكرة.(355)

---

348) أرجوزته.

349) فهرسة ابن خير ص: 450.

350) الصلة ص: 238.

351) الفصوص ص: 12أ. ـ 67ب.

352) الفصوص ص: 12أ.

353) فهرسة ابن خير ص: 450.

354) الصلة ص: 238.

355) فهرسة ابن خير ص: 406.



ز) **شعر ابـن الحجاج**، شيخ صاعـد وصديقـه. رواه عنه في بغداد، ورواه عن صاعد(356) بالأندلس أبو بكر المصحفي، والشاعر إدريس بن اليمان، وابنا غصن، وشيخ من بني مفـرج بسرقسطة، وصبيان من بني مفرج. ورواه عن أبي بكر المصحفي أبو عبد الله بن معمـر، وعن ابن معمر روى ابن خيـر شعر ابن الحجـاج، وقد ذكر أنه في ستة أجزاء.(357)

ح) **كتاب أسماء الوحوش وصفـاتها، وكتاب صفات الأرض والسماء والنبات للأصمعي** المفهومان من إشـارة ابن سيده إلى كتب الصفـات والأسمـاء. وقـد روى صـاعـد كتب الأصمعي عن شيخيه السيرافي والفارسي، وعنه روى ابن سيده هذه الكتب التي بدا أثرها واضحـا في المخصص. وعن ابن سيده روى ابن الحذاء التميمي كتب الصفات والأسماء، وعنه رواها أبو الحسن بن مغيث، وعن ابن مغيث روى ابن خير هذه الكتب.(358)

3) مصنفاته :

لا نعرف ممـا صنفه صـاعد إلا أشعـاره، وفصوصـه، وكتابي الهجفجف، والجواس. ولم يصل إلينـا من هذه المصنفات إلا بعض أشعاره، وكتـابه الفصوص. أمـا كتابا الهجفجف والجـواس، فيبدو أنهما ظلا متداولين حتى عصر الحموي في أقرب الاحتمالات. وأما شعـره، فقـد نقل بعضه تلميـذاه ابن حيـان،(359) وابن حـزم،(360) وصديقه ابن الكتاني صاحب التشبيهـات. وهذا ما يجعلنا نفترض

356) فهرسة ابن خير ص: 406.
357) فهرسة ابن خير ص: 406.
358) فهرسة ابن خير ص: 450.
359) البيان المغرب 3/18.
360) جذوة المقتبس 223 ـ 227.



أن ابـن حيـان، وابـن حـزم، والخـولاني الـذي أجـازه صـاعـد في كل مـا رواه وألفـه، وابن الكـتـاني، قـد رووا عنـه شعـره أو بعضـه.

ونقلت المصادر عن الفصوص ما يـدل على أن هذا الكتاب ظل يـروى حتى عصور متأخـرة رغم ما اتهم بـه مصنفه. وإذا كـان الخولاني يعتبر من رواة الفصوص، اعتمادا على قوله: «إن صاعدا أجاز له ما رواه وألفه»،(361) وكان ابن سيده قـد روى هذا الكتاب أو بعضه،(362) فإن ابن حيان كـان شيخ كل العلماء الـذين أشارت المصادر إلى روايتهم للفصوص، وعن طـريق تلامذته روى بعض علماء الجيل الرابع هذا الكتاب. واعتمـادا على ما استطعنا الوصول إليه ممـا ورد في المصادر، عن روايات الفصوص تحمـلا وإقراء، نذكر:

أ) روايتي ابن حيـان الذي سمع الفصـوص مع بـاقي تلامـذة صاعـد وهو يملى في المجالس. ثم قـرأه على مؤلفه بمنزلـه سنة 399هـ.(363) وعن ابن حيان أخذ من تشير إليهم المصادر من رواة الفصوص.

ب) رواية أبي محمد عبد الرحمان بن محمد بن عتاب. ذكر ابن بشكوال أن ابن حيان أجازه في رواية كتاب الفصوص لصاعد.(364) ووردت الإشارة إلى هذه الإجازة أيضـا في فهرس ابن عطية.(365) ونقل ابن خير قـول شيخه ابن عتاب عن الفصوص: «أخبـرني به الشيخ المـؤرخ صاحب الشـرطـة أبو مـروان حيـان بن خلف بن

---

361) الصلة ص: 238.

362) انظر الصفحة 244.

363) الصلة ص: 238.

364) الصلة ص: 348ـ 349.

365) فهرسة ابن عطية 81.



حيان، وكتب لي بذلك بخطه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه رحمه الله».(366)

ج) رواية الوزير أبي مروان عبد الملك بن سراج: فقد سمع الفصوص على شيخه ابن حيان، مع ابنه عمر بن حيان، بقراءة مهاجر بن محمد بن حزم في شعبان سنة 444هـ.(367)

د) رواية أبي محمد الركلي: روى كتاب الفصوص عن ابن حيان.(368)

هـ) رواية عمر بن حيان. وقد سمع الفصوص على أبيه(369) أبي مروان، مع الوزير عبد الملك بن سراج في شعبان سنة 444هـ.

و) رواية مهاجر بن محمد بن حزم. قرأ الفصوص على أبي مروان بن حيان، وعمرُ بن حيان، وعبدُ الملك بن سراج يسمعان في شعبان سنة 444هـ.(370)

ز) رواية أبي القاسم بن النخاس. روى الفصوص عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، عن أبي مروان بن حيان.(371)

ح) رواية ابن العريف أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، رواه عن أبي القاسم بن النخاس، عن عبد الملك بن سراج، عن أبي مروان بن حيان.(372) ورواه أيضا عن أبي محمد الركلي، عن ابن حيان.(373)

---

366) فهرسة ابن خير ص: 326.

367) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.

368) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.

369) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.

370) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.

371) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.

372) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.

373) معجم أصحاب الصدفي ص: 16.



ط) رواية القاضي عياض: روى الفصوص وأجيز فيه عن ابن عتاب، عن أبي مروان بن حيان.(374)

ي) روايـة أبي بكر محمـد بن خير الإشبيلي. رواه عن شيخـه أبي محمد بن عتاب، عن أبي مروان بن حيان.(375)

لقد بدأ صاعد حياته العلمية بالمشرق، تلميذا نجيبا، لذا لم يكن مستغـربـا أن تنتقل نجـابتـه إلـى أمثـال ابن سيـده، وابن حـزم، والخولاني، وابن حيان من التلاميذ. أما تقدير الأندلسيين الحقيقي لصاعد العـالم الأديب، فقد عبر عنه بصدق الـوزير أبو حفص بن برد، في قوله مخاطبا أبا العلاء: (بسيط)

1 — تَحْصِيلُ فَضْلِكَ لِلْحُسَّـادِ مُعْجِـزَةٌ
وَكُنْـهُ عِلْمِكَ شَيْءٌ غَيْـرُ مَحْسُـوبِ

2 — أَمَّـا اللُّغَـاتُ فَـلَا يَعْقُـوبُ يَبْلُـغُ مَـا
وَعَيْتَ مِنْهَـا وَلَا أَشْيَـاخُ يَعْقُـوبِ

3 — وَأَنْتَ رَبُّ الْقَـوَافِي الشَّـارِدَاتِ بِهَـا
تُحْـذَى وَسِيقَتُهَـا فِي كُلِّ أُسْلُـوبِ

4 — إِنَّـا نُنَـادِيكَ لِلْجُلَّـى وَأَنْتَ لَهَـا
طَبٌّ تُعَـالِجُ فِيهَـا كُلَّ مَطْلُـوبِ(376)

وإذا كـانت شهـادة الشعـر المـادح مما يمكن أن يحمل على المجالمة، فإن في كتاب الفصوص الذي نقدمه، ما يؤكد أن صاعدا كان كما قال ابن برد عالما أديبا.

---

374) الغنية ص: 224.

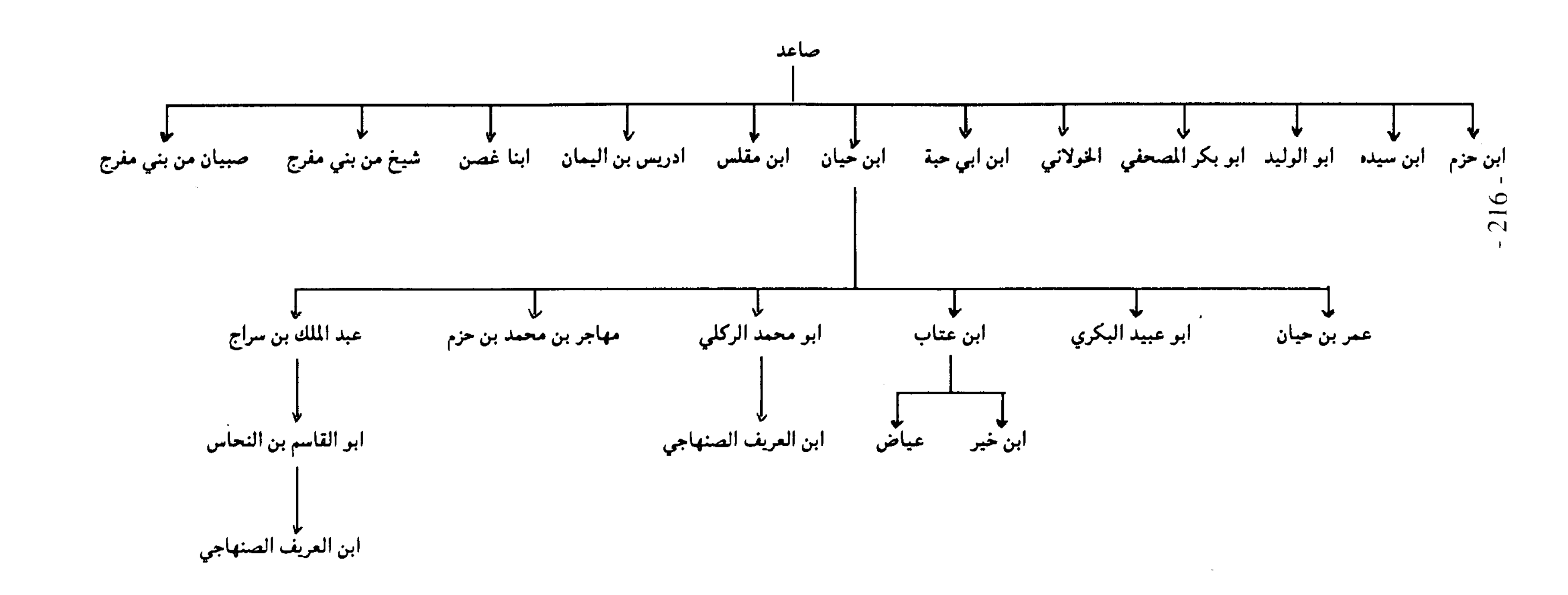
375) فهرسة ابن خير ص: 326.

376) الذخيرة 1/1/129.

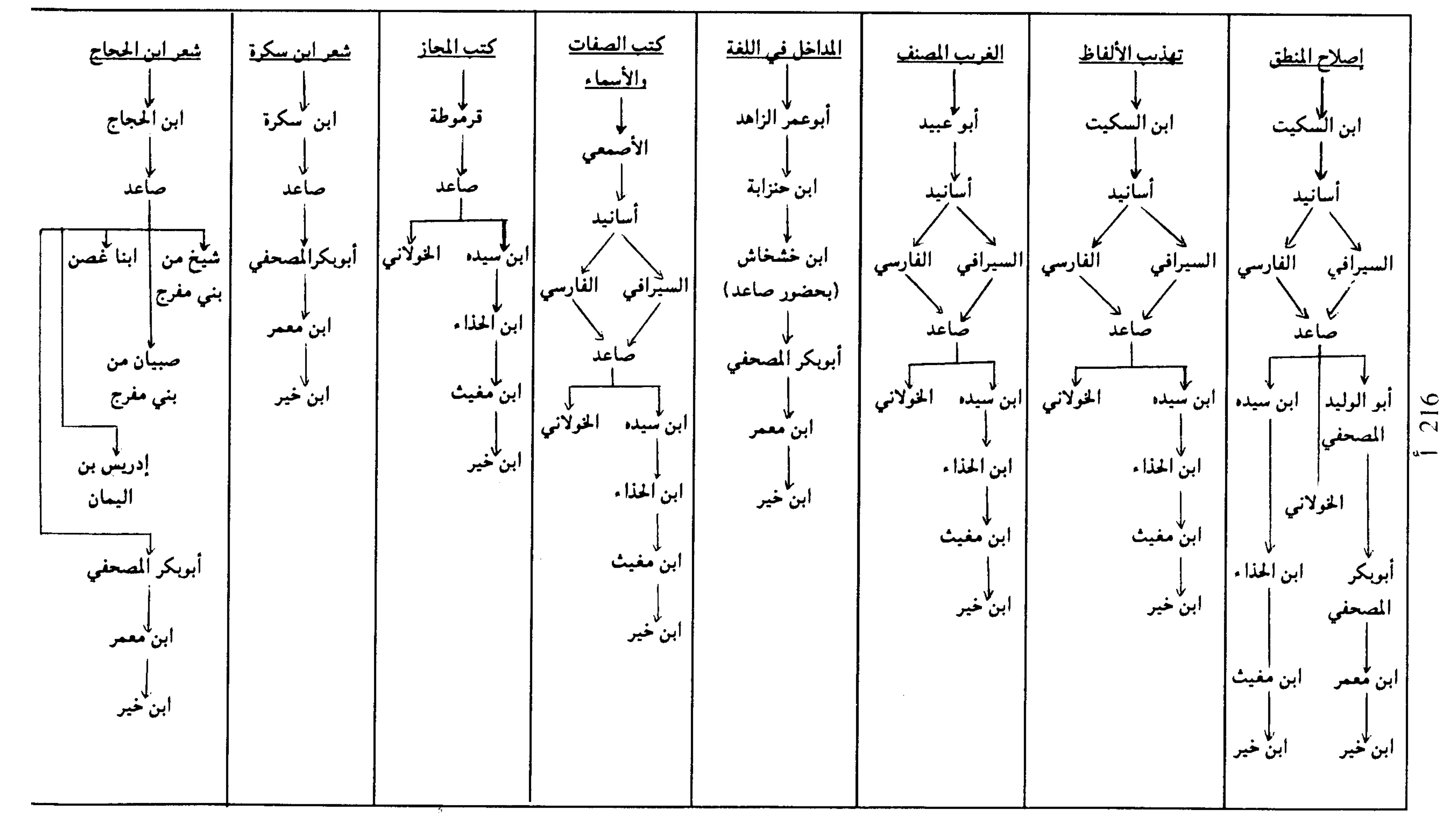


جـداول توضيحية

1) **تلامذة صاعد وتلامذة تلاميذه :**

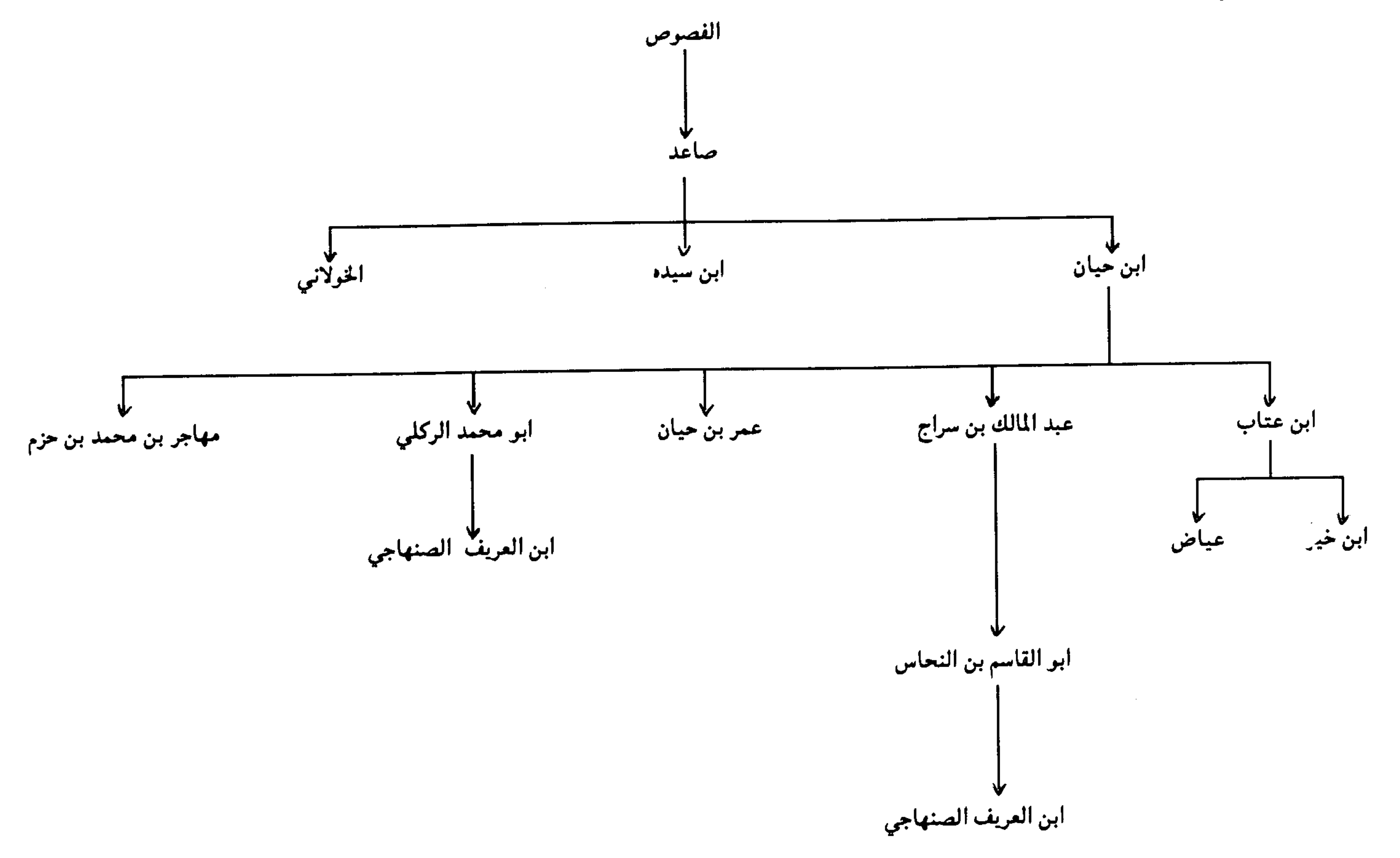


2) المرويات :



إصلاح المنطق
ابن السكيت
أسانيد
السيرافي
الفارسي
صاعد
أبو الوليد المصحفي
ابن سيده
الخولاني
أبوبكر المصحفي
ابن الحذاء
ابن معمر
ابن مغيث
ابن خير
ابن خير
تهذيب الألفاظ
ابن السكيت
أسانيد
السيرافي
الفارسي
صاعد
ابن سيده
الخولاني
ابن الحذاء
ابن مغيث
ابن خير
الغريب المصنف
أبو عبيد
أسانيد
السيرافي
الفارسي
صاعد
ابن سيده
الخولاني
ابن الحذاء
ابن مغيث
ابن خير
المداخل في اللغة
أبوعمر الزاهد
ابن حنزابة
ابن خشخاش
(بحضور صاعد)
أبوبكر المصحفي
ابن معمر
ابن خير
كتب الصفات والأسماء
الأصمعي
أسانيد
السيرافي
الفارسي
صاعد
ابن سيده
الخولاني
ابن الحذاء
ابن مغيث
ابن خير
كتب المجاز
قرموطة
صاعد
ابن سيده
الخولاني
ابن الحذاء
ابن مغيث
ابن خير
شعر ابن سكرة
ابن سكرة
صاعد
أبوبكرالمصحفي
ابن معمر
ابن خير
شعر ابن الحجاج
ابن الحجاج
صاعد
شيخ من بني مفرج
ابنا غصن
صبيان من بني مفرج
إدريس بن اليمان
أبوبكر المصحفي
ابن معمر
ابن خير

3) روايات الفصوص :



ـ المدخل الثالث ـ

كتاب الفصوص في الآداب والأخبار

أولا : الفصوص بين كتب الأمالي والمجالس والأدب العام :

ذكرت بعض المصادر التي ترجمت لصاعد، أن المنصور بن أبي عامر أذن لصاعد في تأليف الفصوص وإملائه، بعد أن ألزم صاعد نفسه بأن يكون كتابه على غرار كتاب النوادر للقالي، مع تضمنه لما لم يورده أبو علي القالي. وكان هذا الالتزام بإيراد ما لم يرد في النوادر تحديا صريحا لأمالي القالي في ظاهره، إلا أنه في حقيقته كان تحديا لتلامذته الذين ظلوا يعتقدون أن شيخهم قد أغناهم بمؤلفاته ودروسه عن غيره من علماء المشرق. ورغم ذلك تظل علاقة الفصوص بكتب الأمالي، والمجالس، وكتب الآداب والأخبار علاقة قوية. فرغبته في تجاوز أمالي أبي علي ونوادره - وإن كانت قد فاجأت الأندلسيين بما لم يكونوا يعرفونه - لم تخلق شكلا جديدا في الكتابة والتصنيف غير معروف عند المتأدبين والمصنفين. إن الوجه الذي يربط الفصوص بكتب الأمالي والمجالس - باعتباره مصنفا كان صاحبه يمليه ارتجالا، دون اعتماد على مكتوب - لم يكن إلا وجها من عدة أوجه، تربطه بمصنفات أخرى لم تكن أمالي. ويعني هذا أن إلحاق الفصوص بكتب الأمالي وحدها، قد يوهم أن الكتاب لم يكن إلا مرويات صريحة تملى في مجالس يؤمها التلاميذ الباحثون عن الدرس الجاد.

إن الفصوص وأمالي القالي قبله كانا ترجمة عملية لنزعة في التأليف، جمعت بين استثمار المعارف الموسوعية المحصلة، والتعبير عن بعض المواقف الفكرية الخاصة، أو الغايات التربوية



المقصودة. وهـذه المواقف والغـايات الشخصيـة، هي التي جعلت بعض التصانيف التي صـدرت عن هذه النزعـة في التأليف، تبدو مختلفة بعضها عن بعض، رغم أنها في جوهرها ليست إلا صياغة جديدة، للمعارف المتنوعة الـواسعة التي حصلها المؤلف في بيئته الثقافيـة. ولوضع كتاب الفصـوص في سياقـه النوعي، من حيث النظر إلى طريقـة التأليف العامة لا الخاصة، أشيـر باقتضاب إلى مجموعة من المصنفات السابقـة واللاحقة للفصوص، ينسب إليها وتنسب إليه، إذا مـا نحن أردنا أن نتحدث عن شجـرة نسب كتاب الفصوص، وسط مختلف المؤلفات العربية، مع التنبيه مسبقا على أن بعض الفروق السطحية ـ كأن يكـون المؤلَّف شرحاً لشعر، أو حديثاً عن طبقة اجتماعية، أو موضوع معين، أو مسامرات خاصة ـ لا تُغيـر من كـون هذه المصنفـات تنتمي إلى مـا يمكن تسميتـه بأدب الأنس والدرس.

1) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :

قد يكـون الجاحظ قصـد من تأليفـه البيـان والتبيين إلى غايـة اجتماعية فكـرية، هي الرد على الشعـوبية؛ وقد يكون قصـد غاية تربوية عقدية، هي تعليم ناشئة المعتزلة فن الجدل والخطابة؛ وقد يكون قصـد الأمرين معا، فالكتـاب يقدم مادة علميـة قيمة، تتعلق بمفهوم البيـان العام والخاص، ومفهـوم الفصاحة والعي، وعـلاقة البـلاغة بـالخطابـة والبيان، ومـا يرتبط بـذلك من قضايـا لغويـة بلاغية، أو تتعلق بطبيعة الصـراع بين الجنس العربي والأعاجم في القرن الثالث. لكن هذه المادة العلمية القيمة، لا تمثل في الكتاب إلا المنطلق الـذي ينطلق منـه الجـاحـظ، إلى عـالم الشعـر والأمثـال والأخبار والنوادر والحكـايات الطريفة، كاشفـا عن محصول لغوي وأدبي كبيـر كـان قـد تشبع بـه. ولم تكن هـذه الآداب تظهـر في



الكتاب خاضعة لمنهج في التأليف يجعل القارئ يتوقع ظهورها، فالقارئ يجد نفسه مرغما على الانتقال من خبر إلى خبر، أو مثل، أو بيت شعر، أو أبيات، أو خطبة، أو نادرة... منساقا وراء نزعة استطرادية، أحس بها فاعتبرها إحدى الوسائل التي يتم بها الترويح على القارئ، ودفع الكلل والملل عنه.

2) الحيوان :

ألف الجاحظ كتابه الكبير هذا لينبه إلى أن حكمة الله تتجلى في كل مخلوقاته، ثم جعل من موضوع الحيوان سبيلا إلى الحديث عن هذه الحكمة الإلهية. ورغم أن التأليف في الحيوان بهذه الطريقة كان جديدا في الثقافة العربية، لم يستصعبه الجاحظ. لكن الذي أتعبه في تأليفه كما صرح هو بذلك، الخروج من موضوع الحيوان، إلى إيراد الأخبار، والأشعار، والأمثال، والنوادر: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتابا في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز والتماس، لكان أسهل وأقصر أياما وأسرع فراغا، لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال».(1) فالاستطراد إلى هذ ه المعارف إذن لم يكن أبدا خللا أو ضعفا في منهج التأليف لدى الجاحظ أو غيره. إن تصريح الجاحظ بأن الكتابة في الموضوع الواحد، وإن كان صعبا كالقضايا الكلامية، أهون عليه من الاستطراد إلى البحث عن أخبار، وأشعار، وأمثال، ونوادر متفرقة في الكتب، متباعدة الأشكال، يؤكد

1) الحيوان 4/208.



أن القدرة على الوصول إلى هذه المعارف المتفرقة المتباعدة وجمعها في مصنف واحد، كانت تعتبر من أعسر طرق التأليف، وأكثرها دلالة على غزارة علوم المؤلف. فتفرق المعارف وتناثرها في الكتاب الواحد - أو الاستطراد الذي تصفه بعض الدراسات بالفوضى العلمية - منهج في الكتابة، قصد إليه كبار المصنفين من الأدباء العلماء، وهم يعلمون أنه بعيد عن التنظيم والتبويب؛ وهي ظاهرة ثقافية فرضت نفسها على المؤلفين والمحصلين، في أعصرٍ كان التلميذ الناشئ فيها قادرا على أن يحصل علما بأكمله في يوم وليلة.

إن هذا التنوع العلمي في بيان الجاحظ وحيوانه، الذي يجعل من المؤلفين كتابين في علم الطب، والحيوان، والنبات، والمعادن، وأحوال العرب والأعراب وعاداتهم، وفي علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، والأمثال، والبلاغة، فضلا عن الفكاهة والمجون، هو الرابط بين مؤلفي الجاحظ وفصوص صاعد، رغم أن مقاصد الجاحظ وهو يؤلف البيان والتبيين والحيوان كانت تختلف عن مرامي صاعد وهو يؤلف الفصوص.

3) الكامل : لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد :

أحد الكتب الأصول التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته. وهو كتاب قيم وضعه مؤلفه لغاية واحدة صريحة، هي أن يكون مجمعا لأصناف مختلفة من الآداب، والأخبار، والأمثال، والمواعظ والاختيارات، مع شرح ما يقع فيه من كلام غريب، ومعان مستغلقة. وقد اكتفى المبرد في خطبة الكتاب، بالتنبيه إلى أن كتابه سيكون جامعا لفنون كثيرة، دون أن يتحدث عن أبوابه وفصوله.(2) وانتقال المبرد في كتابه من فن إلى فن، ظاهرة

---
2) انظر خطبة الكامل.



واضحة، لم تخفها محاولته ربط الباب بموضوع عام، كالتشبيه مثلا في الباب السابع والأربعين. فالمؤلف كان يضطر أحيانا في صلب الباب نفسه، إلى الاستطراد والخروج إلى موضوع جديد، لذا نجده في أحد الأبواب يحاول أن يخفف عن وقع هذا الاستطراد بعبارة «الشيء يذكر بالشيء»، بعد استطراده إلى إيراد شعر لحميد بن ثور وغيره في بكاء الحمامة: «والشيء يذكر بالشيء وإن كان دونه... وفي شعر حميد هذا ما هو أحكم مما ذكرنا، وأوعظ وأحرى أن يتمثل به الأشراف وتسود به الصحف، وهو قوله: (طويل)

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا...

وروي عن النبي ﷺ: «كفى بالسلامة داء». ثم نرجع إلى التشبيه: والعرب تشبه على أربعة أضرب..».(3) وكما علل الجاحظ استطراده وخروجه من موضوع إلى موضوع، بأنه ترويح عن القارئ، جعل المبرد استطراده وخروجه من الجد إلى بعض الهزل أسلوبا يدفع الملل عن القارئ، ويروح عن نفسه: «نذكر في هذا الباب من كل شيء لتكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل، ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس».(4) ورغم حديثه عن الهزل اليسير، يظل وقاره مهيمنا على الكتاب، بل إن اشتغاله بالنحو واللغة جعلا الكتاب يفتقر إلى تلك الصبغة الأدبية الخالصة التي نجدها في مؤلفات أخرى شبيهة به. إلا أن هذه النزعة اللغوية النحوية المهيمنة على الكتاب، لا تمنعنا من أن نعتبره شديد الصلة بمؤلفي الجاحظ، من حيث النظر إلى رغبة كل المؤلفين الصريحة في جعله كتابه مجمعا لمعارف متنوعة.

3) الكامل 3/127.

4) الكامل 2/285.



4) عيون الأخبار لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري :

وهو كتاب مكمل لمصنفاته الأولى: الشراب، والمعارف، والشعر والشعراء، ثم تأويل الرؤيا. وقد جعله مؤلفه ديوانا للأخبار، والأشعار، والطرف، والنوادر المتنوعة. ورغم أن الكتاب بني على أبواب عشرة يسميها كتبا تتحكم في إيراد هذه المعارف المتنوعة، يحس القارئ بميل صاحبه إلى التوزيع العلمي الذي شغف به بعض المؤلفين في عصره، وكما دافع الجاحظ والمبرد عن كثرة الاستطراد فيما ألفوه، دافع ابن قتيبة عن تنوع المعارف في كتابه، معتبرا خروجه من الجد إلى بعض الهزل ترويحا على القارئ من كد الجد وإتعاب الحق.(5)

5) **العقد الفريد**:(6) لابن عبد ربه، أبي عمر شهاب الدين أحمد بن محمد المتوفى سنة 327هـ. وقد ألف هذا الكتاب في الظاهر، ليعلم الناظر فيه أن لبلد المغرب على بعده حظا من المنظوم والمنثور،(7) إلا أنه كان في جوهره، مجاراة لما شاع في المشرق، من تأليف في أدب المتعة والجد الذي يجعل الكتاب روضة ومتنزها للقارئ الباحث عن الدرس والأنس معا:

«وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جوهره... واختيار الكلام أصعب من تأليفه».(8) ورغم تنوع المعارف في هذا الكتاب تنوعها في المؤلفات الشبيهة به، حاول ابن عبد ربه، أن يخضع هذه المعارف المتنوعة لتبويب وتنظيم يجعل كل باب من الكتاب مشتملا على شواهد من الشعر «تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها».(9) ومما يميز المؤلف في كتابه هذا، جرأته

---

5) عيون الأخبار: خطبة الكتاب.
6) انظر دراسة عن صاعد وابن عبد ربه في مجلة البحث العلمي (عدد 17).
7) العقد الفريد 1/ 4.
8) العقد الفريد 1/ 2.
9) العقد الفريد 1/ 4.



في التخلي عن الإسناد، ودفاعه عن تخليه هذا متعللا بكون الكتاب كتاب أخبار ممتعة، لا ينفعها ترك الإسناد، ولا يضرها حذفه: «وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار، طلبا للاستخفاف والإيجاز وهربا من التثقيل والتطويل، لأنها أخبار ممتعة، وحكم، ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله...».(10) إن هذا التخلي عن الإسناد رغبة في تجنب التطويل والتثقيل، وإبقاء على المتعة الخالصة، يؤكد أن الرابط الجوهري المشترك في كل هذه المصنفات التي نتحدث عنها، يتمثل في كونها وضعت للإمتاع.

6) **كتاب الأغاني**: لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد بن أحمد، أحد شيوخ صاعد وأصدقائه. وهو كتاب جار كما يدل على ذلك عنوانه، على مضمار كتب سابقة، ألفت في الغناء. وقد ألفه أبو الفرج، ليحل محل كتاب مستقيم في الأغاني، صنفه أحد وراقي أبي إسحاق الموصلي، ونسبه إلى إسحاق. والرابط بين كتاب الأغاني وكتاب الفصوص، هو غزارة الأشعار والأخبار والطرف والنوادر التي ضمها هذا الكتاب، فضلا عن مادته العلمية في صناعة الغناء. وقد وصفه الصاحب ابن عباد بأنه كتاب مشحون بالمحاسن المنتخبة، والفقر الغريبة، وأنه للزاهد فكاهةٌ، وللعالم مادةٌ وزيادة، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبطل رُجْلَةٌ وشجاعة، وللملك طيبة ولذاذة.(11) وإذا كان ياقوت قد وصف كتاب الأغاني بأنه جم الفوائد، جامع بين الجد البحت والهزل النحت، فإن تنوع هذه المعارف في الكتاب كانت استطرادا قصد إليه أبو الفرج، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة، ليجعل القارئَ أشهى لتصفح فنونه، كما يقول هو نفسه، لكن دون أن يصبح ذلك حشوا: «وربما أتى في خلال هذه الأصوات، وأخبارها،

10) العقد الفريد 1/4.

11) تصدير الأغاني ص: 32 (طبعة دار الكتب).



أشعـار قيلت في تلك المعـاني، وغنـي بهـا، وليست من الأغـاني المختارة، ولا من هذه الأجناس المرتبة، فلا يوجد من ذكرها معها بد... ولعل بعض من يتصفح ذلك، ينكر تركنـا تصنيفه أبوابا على طـرائق الغناء، أو علـى طبقات المغنين في أزمـانهم ومـراتبهم، أو على ما غني به من شعر شاعـر، والمانع من ذلك والباعث على ما نَحَوْنَـاهُ عِلَلٌ منها... ومنهـا أن ذلك إن لم يكن كما ذكـرنا لم يخل فيهـا ـ إذا أتينـا بغنـاء رجل رجل وأخـبـاره وما صنف إسحـاق وغيره ـ مـن أن نأتي بكل مـا أتى به المصنفون والرواة منها على كثرة حشوه وفائدته، وفي هذا نقض ما شرطناه من إلغاء الحشو، وأن نأتي ببعض ذلك فينسب الكتـاب إلى قصـور عن مدى غيـره، وكذلك تجري أخبار الشعراء...»(12)

ولم يكن من المستغـرب أن يصبح هـذا المؤلف القيـم ضالـة الملوك والرؤسـاء، وأهل الأدب. فـالكتاب كان ثمرة تحصيل وجمع استمر خمسين سنة. وإذا كان ابن خلـدون لم يجعل هذا الكتاب ـ مسايـرة لشيوخـه ـ ضمن الأصـول الأربعة التي أشـار إليها في مقدمتـه، فإن ثناءه على الأغـاني ومؤلفه يشهـد للكتاب بأنـه كان يجري في رأيه مجرى هذه الأصول، «وقد ألف القاضـي أبو الفرج الأصفهاني كتابه في الأغانـي، جمع فيه أخبار العرب، وأشعـارهم، وأنسابهم، وأيامهم، وجعل مبناه على الغنـاء في المائة صوتا التي اختارهـا المغنون للـرشيد، فـاستوعب ذلك أتم استيعـاب وأوفاه. ولعمري إنـه ديوان العـرب، وجامع أشتات المحـاسن التي سلفت لهم، في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ والغناء، وسائر الأحوال، ولا يعدل له كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها».(13)

12) الأغاني (خطبة الكتاب).

13) مقدمة ابن خلدون ص: 554.



7) **الأمالي والنوادر : لأبي علي القالي**

وهو الكتاب الذي أشارت المصادر إلى أن الفصوص جرى في مضماره، لذا نرجئ الحديث عنه إلى مبحث لاحق.

8) **الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدي**

والكتاب كما يدل عليه عنوانه مزيج من العلوم والفنون؛ وإذا كان هذا النوع من المعارف مما يلحق هذا الكتاب بأدب الأنس والدرس الذي نتحدث عنه، فإن مما يميزه، أن تأليفه كان خاضعا لمجموعة من الأسئلة غير المتوقعة، كان الوزير الذي أُلِّف له الكتاب في الأصل يفاجئ أبا حيان بها، أو يترك له وقتا للرجوع إلى مصادره قبل الإجابة عنها. وفي هذا ما يجعل الكتاب تأليفا شبه مشترك ساهم فيه الوزير المستفيد بأسئلته، والعالم المصنف بإجابته. وعندما أعاد أبو حيان كتابة لياليه، استجابة لطلب صديقه أبي الوفاء المهندس، حاول أن يجعل مصنفه جامعا بين ما يقتضيه صدق الرواية وحسن التأليف، كما يتضح من قوله لأبي الوفاء، بعد أن أرسل إليه بالجزء الأول من الكتاب: «قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به...».(14) ولم يفت المؤلف أن يذكر أبا الوفاء بأنه جمع في الجزء الثالث كل ما يتطلبه أدب المسامرة من جد وهزل، غير مفرق بين الغث والسمين: «هذا الجزء ـ وهو الثالث ـ قد، والله، نفثت فيه كل ما في نفسي من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وطيب، وأدب واحتجاج، واعتذار واعتلال، واستدلال وأشياء من طريف الممالحة، على ما رسم لي وطلب مني».(15)

والحقيقة أن هذا الكتاب يعد نموذجا مكتملا لأدب المسامرة في القرن الرابع الهجري، فالمؤلف قد جمع فيه مزيجا من المعارف،

14) الإمتاع والمؤانسة 1/1.

15) الإمتاع والمؤانسة 1/1.



ورث بعضها عن الثقافة العربية القديمة، ونقل بعضها من ثقافات الأمم الأخرى؛ وهي خصيصة جعلته مرجعا يشهد لصاحبه بأنه كان محيطا باللغة، والنحو، والأخبار، والأشعار، والملح، والطرائف، والطبيعة، والكلام، فضلا عن وعيه الكامل بما كان يجري في عصره من تحولات ثقافية، كما يتضح من حديثه عن معاصريه من الشعراء، وعن إخوان الصفاء، والفرق الكلامية، والمتصوفة، ومفكري القرن الرابع من المعتزلة. إن جمع التوحيدي معاصر صاعد بين المعارف العربية الأصيلة، والمعارف العقلية في مصنف واحد، يجعله من أكثر كتب الأنس والدرس تصويرا لنموذج الأديب في القرن الرابع. وإذا نحن تجاوزنا غرر الفوائد للشريف المرتضى، ونشوار المحاضرة للتنوخي، إلى بعض ما ألف في العصور اللاحقة لزمن تأليف الفصوص، نجد محاضرات الراغب الأصفهاني، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي، والمستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي؛ ونلحق بهذه المؤلفات بعض شروح الشعر، كرفع الحجب المستورة للشريف الغرناطي، والغيث المسجم للصفدي، فهذه المؤلفات كلها تنتمي في جوهرها إلى ما آثرنا تسميته بأدب الأنس والدرس، رغم الخصوصيات المحدودة التي قد توهم أن بعض هذه المؤلفات ينتمي إلى صنف مستقل عما ذكرنا.

إن الفروق التي يمكن أن نلتمسها عند مقارنة الفصوص بهذه المؤلفات، هي الفروق الكيفية التي تنشأ عن اختلاف قدرات المؤلفات العلمية، وتفاوت درجات حذقهم وبراعتهم في التأليف، أما النسب فهو نسب واحد، إنها كلها تنتمي إلى أدب الأنس والدرس.



ثانيا : بناء الفصوص :

1) عنوان الكتاب :

تكاد معظم المصادر التي ذكرت مؤلف صاعد تتفق على أن الكتاب سمي بالفصوص؛ ولم يتعد ناسخ مخطوطة القرويين وصف الكتاب بأنه كتاب الفصوص: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، سفر فيه جميع كتاب الفصوص، تأليف أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي رحمه الله تعالى وعفا عنه...»(16) ولم نعثر على ما يخالف هذه التسمية، إلا عند ابن كثير، وابن خير، وابن حيان. فابن كثير يشير إلى المؤلف بعبارة: «كتاب الفصوص في اللغة»؛(17) وابن خير يسميه «كتاب الفصوص في اللغات والأخبار»؛(18) بينما يذكر ابن حيان أن شيخه صاعدا سمى كتابه هذا بالفصوص في الآداب والأشعار والأخبار: «قال ابن حيان: وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر كتابا سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار، وكان ابتداؤه له في ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وأكمله في شهر رمضان من العام...».(19) ورغم أن ابن حيان اكتفى في سياق حديثه عن «الأعرابي العذري»، بالإشارة إلى كتاب صاعد، بعبارة «كتابه المعروف بالفصوص»،(20) يظل الكلام الذي نقله عنه صاحب الصلة داعيا إلى التأمل؛ فعلاقة ابن حيان بصاعد وفصوصه، كانت علاقة قوية، لأنه قد روى الفصوص عن شيخه سماعا

---

16) مخطوطة القرويين.

17) البداية والنهاية 12/12.

18) فهرسة ابن خير ص: 326.

19) الصلة ص: 337و338.

20) المقتبس 3/14.



وقراءة، وعن طـريقه روى كثير من العلماء اللاحقيـن هذا الكتاب؛ لذا يعتبـر حديثه عن الكتاب واسمــه وتاريخ إملائه حـديث خبير. لكن هذا التفـرد بمعرفة الكتاب واسمــه، يظل مشكلا عند مقــارنته بما ورد في المصادر التي تحدثـت عن الفصوص، أو أشارت إليه. فإذا كان اكتفــاء معظم المصادر بتسمية الكتاب بــالفصوص فقط، يعود إلى الميل إلى اختصار العنوان، فإن تسميـة ابن خير ـ الذي روى الفصوص عن ابن عتــاب، عن ابن حيان نفســه ـ للكــتــاب بالفصوص في اللغــات والأخبار يبدو غريبــا. وقد كان من الممكن أن نعتبر العبـارة اللاحقة بــاسم الفصوص عبارة غيـر أصلية في التسمية، لــو لم يكن ابن حيان نفســه قد صــرح بأن صــاعـدا هو الــذي سمى كتــابـه «الفصــوص في الآداب والأشعــار والأخبــار». ويرجع اهتمامنا بهذه التسمية التي نقلها ابن حيان عن صاعد، إلى أن صـاعدا ككثير من المصنفين، لم يشر في مقدمة الكتاب ولا في متنــه، إلى اسم كتــابه إشــارة صــريحــة. والعبارة الــوحيـدة التي وجدنــاهــا في مقدمة الكتاب، تحمل بعض الدلالـة على ما يتضمنه العنوان الــذي يذكـره ابن حيان، هي قول صـــاعد: «... فقـد أمرني أدام الله نصره، أن أجمع له من حفظي ما استطف من نهيلة شعر، وغريبة خبر، وعقيلة كلم ندت عن الكتــب المتداولة كالكامل وغيره من كتب النــوادر...»؛(21) فــالإشــارة إلى الشعر، والخـبـر، وعقــائل الكلم، تقــابل من حيث دلالتهــا، عبــارة الآداب والأشعار والأخبــار، التي تــرد مكملـة لاسم الفصــوص، فــي التسميـة التي نقلهــا ابن حيان. وإذ كان اهتمــام صاعد بالقضــايا اللغوية في كتــابه قليلا، بالقياس إلى عنايته بــالأشعار والآداب، فإن الراجح أن الاسم الذي يذكـره صاحب المقتبس هو الاسم الأصلي للكتــاب، وإن كان ميل المصــادر الأولى إلى اختصــار اســم الكتــاب قــد جعل المصــادر

21) الفصوص ص: 1ب.



اللاحقة تنقل اسم «الفصوص»، علـى أنه العنوان الأصلي للمؤلَّف. أما في متن الكتـاب، فقد وردت كلمـة «فصوص» عرضـا في قول صاعد: «... وفـي حفظي بحمد الله منها عيـون وفصوص، تسرع إلى الحفظ، وتبقى مع الدهر...».(22)

2) دلالة العنوان، وعلاقتها ببناء الكتاب :

قـد يكون من السهل على الـدارس أن يـربط بين عنوان كتـاب كالعقد الفريـد مثلا، وطريقة بنائه، عندما يكـون المؤلف قد قصد إلى جعل العنـوان دالا على طريقـة في البناء والتصنيف، يـرسمها في ذهنه، قبل أن يبدأ إملاء المصنف. وتكـون خطبة الكتاب عادة، في مثل هذه المـؤلفات، متضمنـة لما يعـرف القارئ أو المستملي على بناء الكتاب، وطريقة تقسيمه، وتوزيع أبوابه وفصوله، قبل أن يبـدأ قراءتـه. إلا أن نفس الدارس يجـد صعـوبة في ربط عنـوان الكتـاب ببنائه، عنـدمـا تكون الخطبـة خـالية من كل مـا يمكن أن يسـاعد القـارئ على تمثل منهج المـؤلف في التأليف. ويبـدو أن كتاب الفصـوص ينتمي إلى هذا الصنف من المـؤلفات التي تحمل عنـاوين لا تحيل إحـالة مبـاشـرة على طـريقة بنـائهـا. ورغم أن المصـادر ـ وابـن حيـان أوثقهـا ـ تشيـر إلى أن الكتـاب سمي بالفصوص، لا نجد كلمة فص ترد مستقلة في الكتاب.

والفص الـوحيد الـذي دعا إلـى بعض التأمل، هو الفص الـذي يقول فيـه صاعـد: «وكتبت هذا الفصل كلـه من قولـه: رجالا، إلى آخره، غير الحكاية التي دارت لي بحضرة ابن العميد ببغداد، وهي تأتي في هـذا الفصل إن شـاء اللـه».(23) وكلمـة «الفصل» في المخطـوطة صـريحة، ورغـم ذلك لم نستطع أن نستبعد احتمـال حـدوث تصحيف في كلمـة (الفصل)، بعـد أن كـانت في أصلهـا

22) الفصوص ص: 51ب..

23) الفصوص ص: 41ب.



(الفص). والعلاقة بين عنوان الكتاب (الفصوص) وكلمة الفص، تجعل ما ذهبنا إليه مقبولا. إلا أن هذا الاحتمال نفسه يصبح ضعيفا، عندما نربط عنوان الكتاب وكلمة فص أو فصل في كلام صاعد السابق، بما ورد عند بعض معاصريه من المشارقة. ففي مقدمة اليتيمة نجد الثعالبي يقول متحدثا عما سيورده في كتابه: «... ونبذ من أخبار المذكورين، وغرر من فصوص (فصول) المترسلين...».(24) وقد مال المحقق إلى اعتبار كلمة فصوص في كلام الثعالبي تصحيفا لكلمة فصول، كما ملنا نحن خلافا له، إلى اعتبار كلمة الفصل في كلام صاعد تصحيفا لكلمة الفص. لكن الثعالبي نفسه يورد ما يفيد أن كلمة فصل وفص تردان معا متكاملتين من حيث دلالتهما، يقول الثعالبي معددا أقسام كتابه: «القسم الثاني في محاسن أشعار أهل العراق... وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم...».(25)

وفي حديثه عن رسائل أبي إسحاق الصابي نجده يقول: «وأنا كاتب أنموذجا من فصوص فصول الصابي».(26) وقد تردد هذا الربط بين الفصوص والفصول غير ما مرة في اليتيمة؛ وهذا الاستعمال المزدوج لكلمتي فص وفصل، يجعلنا نفترض أن كلمة فصل تدل على كم الكيف الذي تدل عليه كلمة فص. وإذ كان الفص الذي وردت كلمة فصل في كلام صاعد فيه مرتين، فصا طويلا، فإننا آثرنا أن نستبعد احتمال حدوث التصحيف، معتبرين كلمة فصل في هذا الفص كلمة أصلية، قصد بها صاعد إلى التعبير عن طول الفص وامتداده.

---

24) يتيمة الدهر 1/7.

25) يتيمة الدهر 1/8.

26) يتيمة الدهر 2/246.



أما كلمة (فصــوص) فقد وردت في كتاب صاعــد معطوفة على كلمة عيــون، عند إشــارته إلى ما بقي عــالقا بحفظــه من المعارف النفيسة بعد أن رزئ كتبه: «... وفي حفظي بحمــد الله منها عيون وفصوص».(27) وقد اكتفى صــاعد بــاستعمال كلمــة (عيون) فقط، مما يوحي بأن لفظة فصوص التي عطفت عليها في النص المذكور لم تكن لها دلالة صريحة على بناء الكتاب.

إن محاولة معرفة دلالة العنــوان، من خلال ربطه ببناء الكتاب، تظل غير مجدية، مادام صاعــد نفسه قد أحجم عن ذكر اسم كتابه في الخطبة، إحجــامه عن التعــريف بمنهجه في بنــائه؛ لكن تعرف مفهــوم الفص والفصــوص لديــه يصبح أسهل، إذا مــا بحثنــا عن علاقــة عنوان الكتــاب، بدلالة عنــاوين بعض المؤلفــات المشهورة، عوض البحث عن علاقته بالبنــاء. إن العناوين التي تحملها مؤلفات كعيون الأخبار، والعقد الفريــد، وغرر الفوائد ودرر القلائد، ويتيمة الــدهر، والفصــوص... تلتقي كلهــا حول دلالتهــا على نفــاسة مــا يتضمنه الكتاب، وكــونه لب ما حصله المــؤلف من آداب وجوهره. وقد صرح بعض المــؤلفين بما يفيد القصد إلى تنبيــه القارئ إلى أنهم لم يضمنوا كتــابهم إلا اللب المنتقى والجوهر المختــار، يقول ابن عبــد ربه: «... وقــد ألفت هــذا الكتاب، وتخيــرت جواهــره من متخيــر جواهــر الآداب، ومحصــول جوامع البيــان، فكــان جوهــر الجوهر، ولبــاب اللباب...»(28) ويجمع الثعــالبي وهــو يتحــدث عن خصائص النسخــة الأخيرة من اليتيمــة، كل الأوصــاف الــدالة على جوهر الجوهر، مستعملا كلمة الفص التي يسمي بها صاعد كتابه: «... فهــذه النسخــة الآن تجمع من بــدائع أعيــان الفضل... مــا لم تتضمنه النسخــة السائرة الأولى. والشــرط في هذه الأخــرى إيراد

---

27) الفصوص ص: 51ب.

28) العقد الفريد 1/2.



لب اللب، وحبة القلب، وناظر العين، ونكت الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص...».[29] والإشارة إلى ناظر العين، وواسطة العقد، تجعل عنوانا كعيون الأخبار نظيرا للعقد الفريد، أو درر القلائد، أو يتيمة الدهر، وإن اختلفت الصور المعبر بها. ويبدو أن صاعدا، وهو يسمي كتابه بالفصوص، كان ينظر إلى المعنى المشترك بين هذه العناوين المتعددة، فالفص يعني معجميا[30] حقيقة الشيء، وكنهه، وجوهره، ونهايته، وأصله، أو حدقة العين، أو الحجر الكريم الذي يزين به الخاتم... وهي معان نجدها موزعة بين عناوين عيون الأخبار، والعقد الفريد، ودرر القلائد، ويتمية الدهر؛ كما نجدها متضمنة في مقدمتي العقد، واليتيمة. لذا لا يمكن أن نفسر اسم الفصوص الذي سمى به صاعد كتابه، إلا بكونه ينظر إلى كل هذه المعاني التي قصد إليها مؤلفو الكتب المذكورة، كما يظهر من جمع صاعد نفسه بين كلمة عيون وفصوص، في حديثه عما بقي في حفظه. إلا أن دلالة الفص على ما يزين به الخاتم من الجواهر، تظل أرجح، لارتباطها بالمرئي المحسوس؛ فعنوان كتاب صاعد إذن يحيل على قيمة مضمونه العلمي، لا على بنائه. وقد صرح هو نفسه غير ما مرة،[31] بما يفيد قصده إلى نفاسة ما يورده في كتابه، وإن كانت كلمة فصوص نفسها لم تورده في كتابه إلا مرة واحدة،[32] حسب ما انتهى إليه بحثي.

إن الغاية من تأليف صاعد لكتابه، هي التحديث بأحسن ما حفظه من عيون علم، خص بها العلماء أنفسهم، ضنا بها واختصاصا بحسنها، كما يقول في خطبة كتابه؛ وإذا كان صاعد

---

29) يتيمة الدهر 1/7.

30) انظر لسان العرب مادة (فصص).

31) الفصوص ص:1 ب و 2 أ.

32) الفصوص ص : 51ب.



قد سمى هذه العيون فصوصا، فلأنه كان يعلم أنه يذيع على الناس بعضا من كنوز كانت مخبوءة، وإن كان البعض الذي يذيعه يعد أثمن ما في الكنز وأنفسه. ولذلك نجده يذكر السامع والقارئ بأنه لا يثبت في كتابه إلا النفائس والنتف الشاردة.(33)

هذا التمسك بالقيمة العلمية للعيون والدرر والفصوص التي يضمنها صاعد كتابه، يؤكد مرة أخرى أن عنوان الكتاب لا يحمل دلالة على ما يمكن أن يعتبر منهجا في بناء الكتاب وهيكلته، بينما تعتبر دلالته على النفاسة التي تتضمنها، باعتبارها مفهوما تضمنته عناوين أخرى، واضحة وصريحة. وإذا كان لنا أن نستخلص من كلمة فصوص دلالة ما على بناء الكتاب ومنهج تأليفه، فإن العنوان سيكون دالا على مجموعة من العيون، أو الفصوص، والدرر، والجواهر المتجاورة في الكتاب، تجاورا لا يخضع لتنظيم بين مضبوط.

3) البناء المنطقي للفصوص :

أشرت في المبحث السابق إلى أن بناء الكتاب لا يخضع لأي تنظيم مضبوط، ولهذا أعتبر حديثي عن البناء المنطقي حديثا عن غياب البناء المنطقي، ووصفا لبناء الفصوص باعتباره بناء منجزا، لا باعتباره بناء متصورا تمثله المؤلف ذهنيا، قبل الشروع في إملاء كتابه:

أ) إن الكتاب من حيث هو مصنف كامل له بدايته ونهايته، مزيج من الأخبار، والطرائف، والأشعار، والشروح والتفاسير، لا يخضع توزيعها لأي منهج واضح ثابت. وإذا كان التبرك بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، قد جعل صاعدا يستهل كتابه بشرح آيتين كريمتين، وينهيه بحديث نبوي شريف، ويبني كثيرا

---

33) الفصوص ص : 94ب.



من فصـوصه على شـرح آيات مـن القرآن وأحـاديث نبويـة، فإن الخـروج من الفص الشعري، إلى فـص الخبر، إلى فص الهـزل أو المجون، أو إلى غير ذلك من الفصوص، كان يتم بطريقة غير قابلة للضبط؛ لا نفسر هـذا بعجزه عن تنظيم مؤلفـه، فصاعد كـان أحد العلمـاء الذين عـاشوا في عصـر أصبح فيـه تنظيم المعارف أمـرا ميسورا. والتفسير الممكن لهذه الظاهرة، التي كانت شائعة في مثل هذا النوع من التصـانيف، هو كون صاعد قـد ألزم نفسه في أول الكتاب، بألا يضمن كتابه إلا عيون العلـم المنقولة من خطوط كبار العلماء الذين عـاشوا قبله، أو ما سمعـه من أفواه شيوخ العلم في عصـره. وإذ كـان الانتقـال من خط عـالم إلى خـط غيـره، ومن مسموع إلى مسموع، وسيلة صاعد إلى عرض نفائسه، فإن الجمع بين التبويب وتتبـع النفائس يكون أسلـوبا غير متـأت. لذلك نميل إلى اعتبـار ما يبدو تصنيفـا غير منظـم، نتيجة قاد إليهـا المنطلق الذي انطلق منه المؤلف، أقصد إتحـاف القارئ بنفائس منقولة من خطـوط كبـار العلمـاء. وقـد يـلاحظ قـارئ الكتـاب ورود بعض الانتظام في مجمـوعة من الفصوص، من حيث النظـر إلى تجانس موضوعها، أو نسبة أشعارهـا إلى نفس الشاعر، أو تعلق أخبارها بنفس الإسم أو المـوضوع، وبعض هـذا الانتظام العـارض، يعود إلى تحول بعض الأسماء إلى منبه يـذكر صاعدا، ببعض المحفوظ المرتبط بـه. ففي الفص 46(34) مثلا يـورد ـ قـراءة علـى شيخه السيـرافي ـ خبـر مرقش مع أسمـاء، ومـا تعلق بذلك من شعـر. ويقوده اسم مـرقش إلى بناء الفـص اللاحق،(35) على شـرح أبي عمرو بن العلاء، لبيتين، قالهما المرقش. ثم يذكره شرح أبي عمرو بن العـلاء، بشرح الأصمعي لبيتين قـالهما المرقش أيضـا، فيبني

34) الفصوص ص : 13أ.

35) الفصوص ص: 13 ب.



على ذلك الفص 48.(36) ثم يستدعي هذا الشرح شرحا لأبي عمرو الشيباني على بيت للمرقش كذلك، فيبني على ذلك الفص 49.(37) ويذكره الشيباني بأشعار لمرقش أيضا، انفرد الشيباني بروايتها، دون المفضل، فيبني على ذلك الفص 50.(38) وينجم عن هذا التوارد، أن هذه الفصوص الخمسة المتتالية تبدو متجانسة، لأنها كلها بنيت على أشعار منسوبة إلى شاعر واحد، هو المرقش الأكبر.(39)

وإذا كان اسم شاعر معروف كالمرقش، يفسر بناء عدة فصوص متتالية على بعض أشعاره، فإن التقارب الظاهري بين بعض الأسماء، يكون كافيا لتجاور الفصوص، ونجد ذلك صريحا في الفص 61.(40) و62،(41) فالأول بني على بيتين لمعن بن زائدة، رواهما صاعد عن شيخه أبي علي؛ وإذ استدعى العلم «معن» اسم الشاعر معن بن أوس، نجد الفص التالي يبنى على ثلاثة أبيات لمعن بن أوس، رواهما صاعد عن الفارسي. لكن غالبا ما يكون الانتظام الذي تتميز به بعض الفصوص المتتالية راجعا إلى وحدة الكتاب، أو المصدر الذي ينقل منه صاعد، أو يروي عنه، ووحدة الموضوع المنقول، أو المروي نفسه؛ وأعني بذلك أن ما يبدو فصوصا منظمة، ورد من قبل منظما في الكتاب الذي ينقل عنه صاعد، ففي الفص 476(42) مثلا يذكر صاعد أنه ينقل من خط أبي

---

36) الفصوص ص: 13 ب.

37) الفصوص ص: 14أ.

38) الفصوص ص: 14أ.

39) وانظر أيضا الفص 140 و141 حيث يرد اسم النابغة قاسما مشتركا بين الفصين. والفص 197 و198 حيث يستدعي ما رواه صاعد عن ابن ورقاء من شعر عبيد بن أيوب، شعرا آخر له، رواه عن السيرافي.

40) الفصوص ص : 16ب.

41) الفصوص ص : 16ب.

42) الفصوص ص: 128ب.



زيد في قبيل مزينة، ويورد خبرا وشعرا منقولا من هذا المصدر، ثم تتوالى بعد ذلك الفصوص المبنية على أشعار مزينة وأخبارها. ولا يفسر هذا التجانس بين موضوعات هذه الفصوص المتلاحقة، إلا بكون صاعد ينقل من نفس الكتاب الذي أشار إليه في الفص 476.

وقد يجتمع التوارد والنقل من نفس الكتاب، أو الرواية عن نفس الشيخ، ليجعلا عددا كبيرا من الفصوص نموذجا للتنظيم الذي كان سيخضع له الكتاب كله، لو وجد صاعد سبيلا إلى ذلك. فالفص 342(43) مبني على شرح قوله تعالى: ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها**﴾ الآية. واللينة تشرح بالنخلة، والنخلة تستدعي ثلاثة وأربعين فصا تواردت كلها في نفس الموضوع. وبعض هذه الفصوص ورد في كتاب النخلة، أو الغريب المصنف، لكنها كلها تشترك في موضوع واحد هو النخلة.

أما اجتماع التوارد والسماع عن نفس الشخص، فنجده مثلا في الفصوص 202 إلى 207؛(44) ففي الفص 201 مثلا يروي صاعد عن أبي المقداد شعرا لنهشل بن حَرِّيّ، وفي الذي يليه يروي عن أبي المقداد نفسه شعرا لفرعان اللص، ثم يذكره اسم فرعان بما رواه عن شرحبيل من شعره، فتتوالى خمسة فصوص بنيت كلها على ما رواه صاعد عن شرحبيل من شعر فرعان، قبل أن تؤدي الرواية المقصودة إلى ذكر شعر شاعر آخر، ينسي صاعدا فرعان.

وقد نتوسع في فهم التنظيم، فنعتبر تلاحق الفصوص الهزلية أو المجونية بابا أو فصلا، وتوالي الفصوص المبنية على شرح الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة فصلا. ورغم ذلك، نظل مرغمين على الاعتراف بأن كتاب الفصوص يفتقر إلى التنظيم، أو

---

43) الفصوص ص: 107ب.

44) الفصوص ص : 77ب.



التبويب المحكم، الذي نجده في العقد الفريد. إلا أن هذا لا يعفينا من التنبيه إلى أن صاعدا قد قصد إلى جعل القسم الخاص بأبيات المعاني في كتابه بابا مستقلا بنفسه، كما صرح بذلك هو نفسه في قوله: «... قد تقدم في صدر الكتاب إلى حيث انتهينا، من أبيات المعاني ما لو أفرد عنه، لكان كتابا في المعاني كبيرا، غير أنها متفرقة، فأحببت أن أمتعك منها بقطعة مجموعة في آخر الكتاب، ليكون طلبك لها عن كثب، وابتغاؤك عن أَمَم...».(45) هذا التنظيم المقصود، يؤكد أن صاحب الفصوص كان يدرك أن كتابه مفتقر إلى التنظيم الذي يجعل المباحث العلمية المتجانسة مجموعة في قسم واحد من أقسام الكتاب؛ ولعل رغبته في مفاجأة خصومه بمعارفه المتنوعة غير المتداولة، كانت وراء تخليه عن تنظيم الكتاب وتقسيمه إلى أبواب وفصول.

ب) أما بناء الفص الواحد، فيبدو أوضح؛ لكن الحديث عن هذا البناء يلزمنا بأن نعرف بحدود الفص، أي ببدايته ونهايته. إن كتاب الفصوص الذي خلا من التبويب والتقسيم، لا يتضمن أية إشارة إلى مفهوم الفص عند المؤلف، أو إلى الحدود التي تعرف ببدايته ونهايته. ولعل صاعدا كان يجعل الإسناد علامة لبداية الفص الجديد، فكثير من الفصوص تتميز من حيث بدايتها بأسانيدها، إلا أن ورود بعض الأسانيد في صلب نفس الفص يجعل الاعتماد على الإسناد وحده غير كاف لتمييز الفصوص بعضها عن بعض. أما نهاية الفص فتظل معرفتها مشروطة بمعرفة بداية الفص الجديد، ونستثني من ذلك بعض الفصوص التي أشار صاعد في نهايتها إلى نهاية المجلس أو تمام التفسير.(46)

---

45) الفصوص ص: 133أ ـ 133ب..

46) انظر الفصوص ـ الصفحات: 58 ب ـ 73 ب ـ 88 أ ـ 91 ب ـ 97 أ ـ 101 أ ـ 126 ب مثلا.



وفي غياب تمييز صاعد لبداية الفصوص ونهايتها، حاولت أن أضع مجتهدا بعض المقاييس المكملة التي يمكن أن تضاف إلى الإسناد، لتمييز الفص السابق من اللاحق:

- وأول هذه المقاييس: وحدة الآية القرآنية المفسرة، أو الحديث النبوي المشروح.

- وثانيها: وحدة الموضوع، أو الخبر، أو القصة، أو الحادثة، أو النادرة الهزلية.

- وثالثها: وحدة الاختيار الشعري، كثر الشعر أم قل، شرح أم لم يشرح.

- ورابعها: وحدة الشاعر المختار له، وإن كان الموضوع واحدا. ففي موضوع وصف النخل مثلا، يكون الوصف الذي نسب إلى الأعور الشني،(47) فصا مستقلا عن الفص اللاحق المبني على وصف النخل المنسوب إلى شاعر آخر هو ذكوان العجلي،(48) رغم أن موضوع الوصف واحد.

وخامسها: تعدد موضوعات المختارات الشعرية، وإن كانت هذه المختارات منسوبة إلى شاعر واحد. فما يختاره صاعد لكشاجم مثلا من شعر، في مدح مغنية،(49) يكوّن فصا مستقلا عن الفص اللاحق الذي بني على ما قاله كشاجم نفسه في هجاء مغنية؛(50) ونفس المقياس يميز الفصوص اللاحقة بعضها عن بعض، رغم كونها مختارات شعرية لشاعر واحد هو كشاجم.

- وسادسها: كون المعنى الشعري جوهر الفص. وقد راعينا هذا المقياس في الفصوص الخاصة بأبيات المعاني، فجعلنا شرح

---

47) الفصوص ص : 107ب.

48) الفصوص ص : 107ب.

49) الفصوص ص : 91أ.

50) الفصوص ص : 91أ.



كل بيت فصا مستقلا، دون أن نميز بين الأبيات التي وردت مستقلة، والأبيات التي تنتمي إلى قصيدة واحدة.(51) أما الاستقلال الصريح للموضوع، أو للشعر، أو لصاحبه، فيعد مقياسا دقيقا لتمييز الفص عن نظيره. ولا نزعم أن هذه المقاييس التي اجتهدنا في وضعها، واعتمدنا عليها في تمييز الفصوص بعضها عن بعض، قد مكنتنا من التحديد الدقيق لفصوص الكتاب؛ لكنه اجتهاد حاولنا به أن نقترب من مفهوم الفص الواحد، كما تصوره صاعد، إن كان صاعد فعلا قد تمثل بناءه كما تمثل نفاسة مضمونه، قبل أن يمليه.

بعد هذا التحديد لمفهوم الفص الواحد من حيث تميزه ببداية ونهاية، يمكن أن نصف بناء الفص في حدوده التي تصورناها.

عند تتبع فصوص الكتاب كلها، يتبين أنها تشترك جميعها في كونها تبنى على ركنين، لا يكاد صاعد يستغني عنهما، لارتباط وجود الفص بهما:

الركن الأول نسميه المدخل، والثاني نسميه المتن.

أما المدخل فيستمد مادته من الإسناد الذي يربط المتن بأصله، ويتوسط بين القارئ ومتن الفص. وقد يتخذ هذا المدخل الإسناد في شكل سلسلة طويلة، يحيل فيها صاعد على من سمع منه، أو على المصدر الأول للرواية. وقد يكون المدخل نقلا مباشرا من خط منسوب إلى أحد كبار العلماء، أو يكون مجرد إسناد قصير، أو إسنادا إلى غير مسمى. ويأتي الركن الثاني بعد المدخل، ليكتسب أهميته من الجمع بين مضمونه العلمي، وأعلام المدخل الإسنادي الذي قدم به صاعد له. وبعد هذين الركنين اللذين تشترك كل الفصوص في الاعتماد عليهما، تظهر بعض الفروق في البناء، بظهور الشرح اللاحق للمتن في بعض الفصوص، أو بنشوء

51) الفصوص ص : 133أ ـ 133ب.



متون جـديدة تتولـد من الشرح الذي تـلا المتن الأصلي. ويؤدي تتبع هذا التنوع في بنية الفصوص إلى حصر النماذج الآتية:

- النموذج الأول:(52) مدخل إسنادي + متن.
- النموذج الثاني:(53) مدخل إسنادي + متن + شرح.
- النموذج الثالث:(54) مدخـل إسنادي + متن + شرح + متن فرعي.
- النموذج الرابع:(55) مدخـل إسنادي + متن + شـرح + متن فرعي + شرح.

أما الفصوص التـي تبدو في الظاهر معراة مـن الإسناد، فتبدو كـذلك، لورود نفس المـدخل الإسنـادي في فص سابق، أو لكـون الإسناد فيها جد قصير. ولم أعثر عند تتبعي للفصوص على فص عري تعريـة تامة من مثل «قوله تعـالى»، أو «قال»، أو «أنشد»، أو «روي»؛ وفي هذا ما يؤكد أهمية المدخل الإسنادي في بناء الفص.

4) البناء الكمي للفصوص :

نقصد بـالبناء الكمي الفضاء الذي شغلتـه الفصوص، من حيث النظـر إلى المؤلف بأكملـه، والفضـاء الذي يشغلـه الفص الواحـد مستقلا:

أ) بالنسبة لعدد الفصوص وتراكمها باعتبار الكتاب كله، يلاحظ أن إملاء الكتـاب الذي امتـد أكثر من نصف سنـة، قد أنتج ثـلاثة وستين وسبعمائة فص استغرقت حوالي ألفي صفحة في النسخة المطبـوعـة التي نقدمهـا؛ وإذا كـان صـاعد قـد ضمن للمنصـور

52) الفصوص ص : 133أ.
53) الفصوص ص : 158أ.
54) الفصوص ص: 149 ب.
55) الفصوص ص : 2أ.



وللقارئ ألا يأتي في كتابه إلا بالنفائس العلمية، التي ضن بها أصحابها على الناس، واستأثروا بها لأنفسهم، فإن هذا العدد الكبير من الفصوص يعتبر في حكم المضاعف، إذا ما قيس بعدد ما يماثله من الأمالي العلمية المتداولة المشهورة.

ب) أما البناء الكمي للفص الواحد مستقلا، فيبدو متنوعا غير خاضع لتحديد منتظم، فبعض الفصوص لا تتجاوز نصف صفحة، بينما تتجاوز فصوص أخرى(56) الخمسين صفحة.

إلا أن الغالب على الكتاب كثرة الفصوص القصيرة، وقلة الطويلة. ولعل أقصر الفصوص هو الفص 346 الذي يتحدث فيه صاعد عن النخلة، ضمن عدد كبير من الفصوص المتعلقة بالنخل: «قال: لا تزال النخلة تطلب البحر أبدا إلى أسفل، فإذا لاقته وقفت حينئذ».(57) فعدد كلمات هذا الفص لا تتعدى أربع عشرة كلمة. وهو عدد جد قليل إذا قيس بالفص 720 الذي يتجاوز عدد كلماته ألف كلمة.(58)

هذه النسبة التي تجعل الفص القصير يجاور فصا يتجاوز عشرة أضعافه، تؤكد أن اهتمام صاعد كان منصرفا إلى المادة العلمية للفص ونفاستها، لا إلى طوله ووفرة معلوماته.

5) البناء العلمي للفصوص :

المقصود بالبناء العلمي المضمون أو المعارف التي صبها صاعد في كتابه؛ فالكتاب من حيث النظر إلى مجموع فصوصه، مزيج من المعارف المتنوعة التي حصلها في المشرق. وقراءته

---

56) انظر الفصوص 188 ص: 68 أ (71 صفحة)، والفص 720 ص 145 ب (86 صفحة).

57) الفصوص ص: 108أ.

58) الفصوص ص: 152ب.



تنقل القارئ من تفسير الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، إلى المواعظ، والحكم، والأخبار، والطرائف، والهزل، والمجون، والاختيارات الشعرية، وأبيات المعاني، والشروح اللغوية، والمسائل النحوية والصرفية والعروضية، فضلا عن علم الأنساب، والأخبار الخاصة بصاعد نفسه. وإذا كان هذا المزيج من المعارف نتاجا لمجموع فصوص الكتاب، فإن البناء العلمي للفص الواحد لم يكن يعتمد بالضرورة على هذا المزيج العلمي؛ فبينما يجد القارئ بعض الفصوص متضمنة لمادة علمية، مستمدة من عدة أنواع من المعارف والعلوم، يجد فصوصا أخرى مقصورة على ما استمد من علم واحد. وإذ كانت فصوص الكتاب موزعة بين البناء العلمي المركب المتعدد المعارف، والبناء العلمي البسيط، فإن حديثنا عن المكونات العلمية للفصوص مستقلة، سيكون محاولة لتعرف هذه المكونات؛ ولذلك سأحاول أن أتحدث عنها باعتبارها مكونات مستقلة، بغض النظر عن كونها وردت مستقلة أصلا، أو وردت متداخلة في نفس الفص.

أ) فصوص الآيات القرآنية الكريمة :

افتتح صاعد كتابه بفص(59) بناه على تفسير قوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا**﴾ الآية. والقصد إلى التبرك بالقرآن الكريم واضح في هذا الاستهلال، إلا أن هذا لا يعني أن صاعدا استهل كتابه بتفسير هذه الآية الكريمة للتبرك فقط. فالفصوص التي بنيت على إيراد الآيات القرآنية، تجاوزت ثمانية وعشرين فصا، فضلا عن الآيات التي يستشهد بها صاعد أثناء الشروح المختلفة التي تضمنتها فصوصه. وهذا العدد يبدو قليلا بالقياس إلى 763 فص التي تضمنها الكتاب، إلا أن مما يميز فصوص الآيات

59) الفصوص ص: 12أ.



القـرآنية، طولـــها بالقيـــاس إلى معظـــم الفصـــوص. ففصـــوص الآيات الكريـمـة كلهـا تعتـبـر طـويلـة، أو متـوســـطـة الطـول، وأطـــولها يقابل مـــن حـــيـث الكـــم 31 فصـا من الفـصـــوص القـصـيـرة.

وإذا كـانت فصوص الآيـات القـرآنيـة ـ بـاعتبـارها وحـــدات مستقلة ـ قليلـة، بالقياس إلى مجموع فصـوص الكتاب، فإن مما يفسر قلتها النسبية، تحرج صـاعـد ــ كالأصـمـعي قبله ـ مـن أن يقـوده علمه بـاللغة، إلى الخوض في ما ليس لـه به علم من مراد اللـه تعالى. وقـد كشف عن هذا التحـرج في الفص 725،(60) الذي بني على تفسير قوله تعالى: ﴿**وجلعنا بينهم موبقا**﴾؛ ففي هذا الفص يقول صـاعـد: «قول الله تعالى ذكره: وجعلنـا بينهم موبقا. الله أعلـم بمراده... ولو جـاز الكلام فيـه على مقتضى اللغـة لقلنا موبقا أي بعدا...».(61)

ولم يكن هـذا التحـرج وراء قلـة الفصوص القـرآنيـة فحسب، فاهتمامه بالقضايا الصرفيـة والنحوية واللغوية في الآيات الكريمة التي بنى عليها هـذه الفصوص، وتجنبـه إيراد الآيـات التي تجعله يخوض في مـا اعتبره العلماء من المتشابه الـذي لا يعلم كنهه إلا الله، دليـل على أنه كـان يخشى أن تقوده الجـرأة والذكـاء اللذان تعود أن يبديهمـا في شرح الأشعار وفك المعمى، إلى أن يفهم من الآيات الكـريمة ما لم يجـرؤ المفسرون على الجـزم به. ورغم أن صاعدا عاش في عصر كانـت آراء علماء الكلام فيه، قد امتدت إلى تفسير القرآن وبحث إعجازه، تبدو فصوصه القرآنية غير مستفيدة من هـذه الآراء الكلاميـة؛ ولعل الفص الـوحيد الـذي تعرض فيـه صـاعـــد لآراء المتكلمين، هـو الفـص الـذي أورد فيـــه رأي أحـد

60) الفصوص ص: 152ب.

61) الفصوص ص: 152ب.



المتكلمين، في سياق تفسير(62) قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى**﴾ الآية. والغالب على هذه الفصوص القرآنية أن تكون مبحثا يعرض فيه صاعد محفوظه اللغوي، وما حصله في القراءات والنحو والصرف. ويتضح بعض ذلك، مثلا، في الفص 339 الذي يفسر(63) فيه صاعد قوله تعالى: ﴿**وجعلنا لِمُهْلَكِهِم موعدا**﴾. وخلافا للشرح المحدود الذي يظهر في هذا الفص، نجد صاعدا في الفص 342، يجمع بين إيراد بعض المفردات المختلفة المنتمية إلى نفس الحقل الدلالي، والكلمات المشتقة من نفس حروف المفردة المنتمية إلى حقول دلالية مختلفة. ويظهر ذلك جليا في شرحه لفظة «لينة»(64) في قوله تعالى: ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها**﴾ الآية، وإن كان الغالب على شروحه تتبع المعاني المختلفة لنفس المفردة، كما يتبين في قوله في الفص (96): وقوله تعالى: ﴿**وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾. في ربوة لغات...(65) ويتعمد صاعد في الفصوص التي يريد أن يرجح فيها تفسير آية يراه صائبا، على تفسير آخر لا يرتضيه، أن يختار للشرح ألفاظا متداولة، دفعا لأن يحمل شرحه على أنه شرح للغريب، ويتضح ذلك في قوله: «قوله عز وجل: ﴿**ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض**﴾ «تر» هاهنا بمعنى تعلم وليس من رؤية العين..... والسجود هاهنا الخضوع لله، وهي طاعة ما خلق من الحيوان والموات، أصله من أسجد الرجل إذا طأطأ....».(66) ورغم ميل صاعد الظاهر، إلى ربط الفصوص القرآنية بمباحث تمكنه من

62) الفصوص ص: 81أ.

63) الفصوص ص: 106أ.

64) الفصوص ص: 107ب.

65) الفصوص ص: 43ب وما بعدها.

66) الفصوص ص: 43أ ـ 43ب.



عرض معارفه في النحو والصرف واللغة والتفسير، لم تتضمن هذه الفصوص أي فص يمكن أن يعد وسيلة إلى عرض محصوله من علم القراءات. إلا أن هذا لم يمنعه من أن يعرض بعض ما حصله من هذا العلم في كثير من الفصوص. ولعل إكثاره من الاستشهاد بقراءة ابن مسعود يعود إلى رغبته في عرض بضاعته من هذا العلم. بل إن هذا العرض لمحصولته من القراءات، يبدو واضحا في فصوص لم يبنها صاعد أصلا على الآيات القرآنية، كما نجد في الفص الشعري الذي بناه على قصيدة دَبِيقية لسوار بن مضرب، حيث نجده، وهو يشرح أبيات القصيدة ويعرض لقضاياها الصرفية، يستطرد إلى عرض ما يعرفه من أوجه القراءات التي قرئَ بها قوله تعالى (وعبد الطاغوت): «قال الخليل: وتقرأ هذه الآية في كتاب الله تعالى على سبعة أوجه، فلهذا قيل أنزل القرآن على سبعة أحرف. فالعامة تقرأ...».(67)

إن هذه الفصوص التي بناها صاعد على ما وافق مباحثه من الآيات القرآنية، تبدو قليلة، إذا ما قورنت بكثرة ما بني على الأخبار والطرائف أو الاختيارات الشعرية؛ ورغم ذلك تظل من أكثر فصوص كتابه دلالة على تمكنه من علوم اللسان العربي.

ب) فصوص الأحاديث النبوية الشريفة :

أفاد صاعد من الأحاديث الشريفة في بناء بعض الفصوص، كما أفاد من الآيات القرآنية الكريمة؛ وقد تجاوزت الأحاديث التي بنيت عليها الفصوص أصلا ستة عشرة حديثا، فضلا عن الأحاديث التي وردت عرضا في سياق تفسيره للآيات الكريمة، وشرحه للشعر.

---

67) الفصوص ص: 85ب.



وإذا كان ورود الآيات الكريمة في الفصوص القرآنية، قد ارتبط لدى صاعد بالمباحث العلمية التي تتفرع منها، فإن بناء هذه الفصوص على الحديث النبوي لم يكن يرتبط دائما بالشرح، فبعضها اختير لمعناه أصلا، أو لملاءمة معناه لموضوع الفصوص المجاورة له، وبعضها اختير لما يتضمنه من مسائل علمية. فمن الفصوص التي بنيت على أحاديث اختيرت لما في معناها من توجيه وفائدة الفص 738، الذي اكتفى فيه بإيراد الحديث الشريف، دون أن يضمنه أي شرح أو تعقيب.(68) ومن فصوص الحديث التي ورد فيها قول الرسول ﷺ مناسبا لموضوع الفصوص المجاورة الفص (82)، الذي بني على حديث نبوي مسند، وافق معناه موضوع الفص (81)، الذي نقل فيه صاعد خبرا عن زندقة ابن المقفع والحارثي ومطيع بن إياس وحماد عجرد، وتشككهم(69) في القرآن والوحي. فبعد ختم هذا الفص قال صاعد في الفص اللاحق: «حدثنا القاضي ابن أبي حصين بالرقة قال: حدثنا أحمد بن محمد الهمداني... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجدال في القرآن كفر».(70)

أما فصوص الحديث التي جمع فيها صاعد بين الاختيار، وبحث المسائل اللغوية فقد بلغت تسعة. ومن أهمها الفص (12)(71) الذي تتبع فيه مستشهدا الحقول الدلالية لمادة «شجن»، انطلاقا من قوله ﷺ: «الرحم شجنة...» الحديث.

والملاحظ أن صاعدا يجمع في هذه الأحاديث بين المسند والمرفوع، وبين بعض ما ورد عند مسلم، وابن ماجة، وابن حنبل،

---

68) الفصوص ص: 155ب.

69) الفصوص ص: 136ب.

70) الفصوص ص: 137أ.

71) الفصوص ص: 6 ب ـ 7 أ وانظر أيضا الفص 85 الذي ضمنه مبحثا قيما في الإبدال فضلا عن الشرح والشواهد الشعرية، الفصوص صفحة 39ب ـ 40أ.



وكثيرا مما لم يرد في الصحاح، دون أن يتشدد في الرواية التشدد المعروف عن علماء الحديث. ولعل ذلك يعود إلى التساهل الذي وصفه به الحافظ ابن حجر،(72) ثم إلى كون الأحاديث التي بنى عليها فصوصه اختيرت لما فيها من فائدة، أو لما تضمنته من مسائل لغوية، لا علاقة لها بالأحكام الشرعية.

ج) فصوص المواعظ والحكم والأمثال :

لا يبدو من خلال ما حكي عن مزاح صاعد وهزله، أنه كان يميل إلى هذا النوع من الأدب؛ ولعل الفصوص القليلة التي بناها على ما يمكن أن يعد مواعظ أو حكما، وردت لتجعل من كتابه مؤلفا متعدد المشارب، متنوع الموضوعات، كغيره من كتب الأمالي والمجالس، أو كتب أدب الأنس والدرس بصفة عامة. لذا لا نجد من المواعظ التي اختارها، ذلك التأثير النفسي الذي نجده مثلا عند الزهاد، وأعلام أدب الوعظ، كابن الجوزي مثلا.

وقد اتخذت فصوص المواعظ في كتابه شكل أخبار قصيرة، تتناول الموت، وقرب الأجل، كقوله في الفص (133): «قال: ودخل عمرو بن عبيد على معاوية بن عمر وهو يجود بنفسه، فقال له: إن الله تعالى قد كلفك في صحتك العمل بجوارحك وقلبك، وقد رفع عنك في هذه الحال العمل بجوارحك. فأعطه ما أوجبه عليك بقلبك».(73) وقد يجعل صاعد أحيانا فص الموعظة جامعا بين الوعظ والاختيار الأدبي، ويظهر ذلك في الفص (159)، الذي اكتسب أهميته من الموعظة التي بني عليها، والخطبتين اللتين تضمنهما.(74)

---

72) لسان الميزان 1/163.

73) الفصوص ص: 57ب.

74) الفصوص ص: 60ب.



واهتمام صاعد بالحكم في كتابه قليل قلة اهتمامه بالمواعظ، وفي ميله إلى الهزل والمزاح ما يفسر قلة الحكم في الفصوص. ومن الفصوص القليلة التي بناها على أدب الحكم الفص (316) الذي يقول فيه: «وروى ابن الحارث عن المدائني، عن الهيثم قال: ثلاث لا يدركن بثلاث، الشباب بالخضاب، والغنى بالمنى، والصحة بالأدوية».(75) ومن أجود الحكم التي نقلها في كتابه الحكمة التي تضمنها الفص (163) وفيه يقول: «وقيل: ستة لا تفارقهم الكآبة: حديث عهد بغنى، ومكثر يخاف على ماله، وطالب مرتبة فوق قدره، والحسود، والحقود، وخليط أهل الأدب وهو غير أديب».(76)

ومما يجدر التنبيه إليه هنا، أن إشارتنا إلى قلة المواعظ والحكم في كتابه، تنظر إلى الفصوص من حيث بناؤها أصلا على حكمة أو موعظة مقصودة لذاتها، وإلا فإن هناك حكما ومواعظ غير قليلة، وردت مبثوثة في فصوص الأشعار والأخبار وغيرها من فصوص الكتاب.

أما الأمثال، فكان الفص (7) خير نموذج لها. وقد جمع فيه صاعد أمثالا متعددة، ربطها بمناسباتها، من خلال إيراده قصة بيهس وإخوته السبعة.(77)

د) فصوص الأخبار :

إن من أدق الأوصاف التي يمكن أن يوصف بها الكتاب، أن يوصف بأنه كتاب أخبار وأشعار، فالأخبار والأشعار يعتبران المكون العلمي المهيمن على باقي المكونات في الفصوص.

---

75) الفصوص ص: 103ب.

76) الفصوص ص: 66ب.

77) الفصوص ص: 5ب ـ 6أ.



وإذا كان صاعد قد حفظ من الأخبار والقصص ما مكنه من أن يصبح نديما يتعلق به الخلفاء والوزراء في المشرق والأندلس، فإن في شيوع أدب السمر في القرن الرابع - حتى في المجالس العلمية الرصينة - ما يفسر اهتمامه بهذا النوع من الأدب الذي يمكن أن يوصف، من حيث النظر إلى طريقة تبليغه وإلى أثره في السامعين، بكونه أدب القص والسرد. وقد ذكرت المصادر أن صاعدا كان ممتع العشرة والمجالسة؛ وفي تعلق المنصور بكتاب الجواس الذي ألفه له صاعد، ما يشهد لمؤلفه بالبراعة في صياغة الأخبار وقصها. ولا نستبعد أن تكون ملازمته في المشرق لأمثال التنوخي وابن شاذان، الذي كان بارعا في قص الأخبار والأسمار، قد مكنته من أن يصبح خبيرا بأسرار السرد والقص. فهذا النوع من الخبرة لم يكن ميسرا لكثير من العلماء، رغم تساويهم في معرفة مضامين نفس الأخبار. وتعد فصوص الأخبار في الكتاب مزيجا من التاريخ، والقصص، والأسمار، والخرافة، والطرائف، والملح، والهزل، والمجون. وترد كلها للإمتاع والتسلية، أو للاعتبار والاتعاظ. إلا أن بعضها يتضمن من الشروح اللغوية، ما يفيد أن صاعدا كان يريد أن يجعل من بعض الفصوص مصدرا للمتعة والفائدة معا. ولارتباط بعض أصناف هذه الأخبار بأصناف أخرى، كفصوص الطرائف والملح، وفصوص الهزل والمجون، أو فصوص أخبار الشعراء والعلماء، نقتصر في هذا المبحث على التعريف بفصوص الأخبار التاريخية أو شبه التاريخية، وفصوص القصص والأسمار، مع التنبيه إلى أن التمييز بين ما هو تاريخي وقصصي قد يكون لتبسيط الدراسة فقط.

ينقل صاعد في فصوص الأخبار التاريخية، عن الجيل الأول من المؤرخين الذين عرفوا بالإخباريين. ومن الأسماء التي يكثر من الرواية عنها الزبير بن بكار، والمدائني، وابن الكلبي والسكن

بن سعيد. وتتنوع هذه الأخبار ذات الطابع التاريخي بين أخبار تتعلق بالجاهليين، وأخرى تتعلق ببعض الصحابة الأجلاء، وأخبار تتعلق بعصر بني أمية، وبعض بني العباس. وقد ألحقت هذه الأخبار كلها بالتاريخ، لاعتمادها على شخصيات تاريخية معروفة، ووقائع تبدو حقيقية؛ إلا أن هذا التنبيه إلى الجانب التاريخي فيها، لا يعني أنها وردت في الفصوص للتأريخ، فالغاية من إيرادها إلى جانب الفائدة التاريخية، كانت الإمتاعَ بالقص نفسه، قبل موضوع القص.

ومن بين ما أورده صاعد من أخبار الجاهلية في هذا النوع من الفصوص، خبر عمرو بن معد يكرب مع ابن أخته قيس.(78)

وبنى صاعد، عددا قليلا من فصوص الأخبار على أخبار بعض الصحابة(79) الأجلاء، مع عناية بأخبار الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. وتكشف الأخبار الكثيرة المتعلقة ببني أمية وولاتهم، عن اهتمام خاص كان صاعد يوليه تاريخ الدولة الأموية. ولعل التفسير المقبول لهذا الاهتمام، يكمن في كون الحاجب المنصور الذي ألف له كتاب الفصوص، كان أحد خدام الأمويين بالأندلس. وفي الإكثار من أخبار بني أمية(80) في المشرق، مجاملة غير مباشرة للخليفة هشام، الذي كان رغم خلافته الصورية الإمام الشرعي الذي يستمد منه ابن أبي عامر سلطته.

ولورود أسماء بعض خلفاء الدولة العباسية ووزرائهم، في كثير من الأخبار والقصص والطرائف والنوادر، التي كانت تكون المادة العلمية لأدب السمر، نجد صاعدا، يخصص بعض الفصوص

---

78) الفصوص ص: 105أ ـ 105ب.

79) انظر الفصوص ص: 65أ ـ 88أ ـ 105ب.

80) انظر مثلا خبر عمر بن عبد العزيز مع عبد الملك بن مروان: الفصوص ص: 50ب وانظر أيضا ص: 59ب ـ 60أ ـ 60ب.



لأخبار تتعلق ببني العباس. وكان لأخبار هارون الرشيد(81) أو في نصيب من هذه الأخبار التي كانت غير كثيرة، بالقياس إلى نقله من أخبار بني أمية.

أما فصوص القصص والأسمار، فتبدو في الكتاب أمتع وآنس، لتماسك البناء الفني فيها، وغلبة الخيال فيها على الحقيقة والتاريخ. فالقصص المكونة لهذه الفصوص ترد في الغالب مبنية على وقائع منسوبة إلى شخوص غير مسمين، يكتفي القاص بالإشارة إليهم بلفظ «الأعرابي» أو ما قارب ذلك، ومن ذلك حكاية الأعرابية والنخل،(82) وحكاية الأعرابي الذي أضاع إبله.(83) ومن أمتع هذه الأسمار حكاية الأصمعي مع الأعرابي والمغني.(84)

ومما استغربته وأنا أتتبع هذه الأسمار، فص بناه صاعد على حكاية جعل من شخوصها الضفدعة والضب. وليست الغرابة في كون الشخوص من الحيوان، فهذا النوع من الخرافات، كان معروفا لدى العرب قبل أن يترجم ابن المقفع كليلة ودمنة؛ ولكن الغرابة تكمن في كون هذا الفص ـ حسب ما تبين لي ـ الفص الوحيد الذي بني على خرافة شخوصها حيوانات تتكلم. فهل كان إحجام صاعد عن إيراد خرافة ثانية، راجعا إلى إحساسه بأن هذا النوع من الأدب الذي يعتمد على الخيال أو الكذب المقصود، لا ينفق في مجالس الأندلس العلمية. ومما يطمئن إلى هذا التفسير، كون خرافة الضفدعة والضب، قد وردت في الفص (31)، في الصفحات التسعين الأولى؛ وعدم ورود خرافة مشابهة في الألفي صفحة اللاحقة يوحي بأن صاعدا ـ بعد إيراده هذه الخرافة الفاردة ـ

81) الفصوص ص: 76ب.
82) الفصوص ص: 109ب.
83) الفصوص ص: 67أ.
84) الفصوص ص: 61أ.



قصد إلى المحافظة على بعض الجد أمام الأندلسيين، بتجنب أدب الخرافة مطلقا في الفصوص اللاحقة.

إن كتاب الفصوص لا يخضع في عمومه، لتنظيم أو تبويب مضبوط؛ لكن مما يدعو إلى التأمل، أن جل فصوص الأخبار والأسمار، ورد في الثلثين الأولين من الكتاب، وأن الثلث الأخير يخلو من هذا النوع من الفصوص.

هـ) فصوص الطرائف والملح :

تعد هذه الفصوص في كتاب صاعد، نموذجا وسطا بين فصوص الأخبار والأسمار، وفصوص الهزل والمجون؛ فهو يميل بها إلى التسلية، دون أن ينحو بها منحى التسلية المضحكة التي نجدها في هزله ومجونه، وفي ذلك ما يجعلها فكاهة محتشمة يشوبها بعض الجد. وفصوص الطرائف في الكتاب كثيرة، منها المطول كالفص (119) الذي نقل فيه صاعد خبر الطفيلي وجاره،(85) ومنها القصير المقتضب. ومن هذه الطرائف الممتعة خبر قدوم أبي نخيلة الراجز على هشام بن عبد الملك.(86)

أما الملح فتتميز عموما بقصرها، وبتعلقها بأعلام عرفوا بنوادرهم وما يحكى عنهم من حكايات مسلية، بغض النظر عن كون هذا الذي يحكى عنهم حقيقيا أو خياليا. ومن ذلك ملحة أبي دلامة مع الخليفة أبي جعفر المنصور التي بنى عليها الفص (418).(87)

و) فصوص الهزل والمجون :

ونقصد بها الفصوص التي مال فيها صاعد إلى الإضحاك الصريح، متخليا في بعض الأحيان، عن القليل من الوقار الذي

85) الفصوص ص: 52أ.

86) الفصوص ص: 39أ ـ 39ب..

87) الفصوص ص: 124أ.



تتطلبه أكثر المجالس العلمية تساهلا. ولعل هذه الفصوص، تعد الصورة المعبرة عن كثرة المزاح أو المجون اللذين وصف بهما صاعد، في كثير من المصادر التي ترجمت له. وتدل كثرة هذه الفصوص الهزلية أو الماجنة، في كتابه، على ميله إلى هذا النوع من الأدب الذي كان شائعا في المشرق في القرن الرابع، حتى بين ذوي الوقار من العلماء والوزراء والقضاة؛(88) كما يدل تنوع موضوعات هذه الفصوص، على غزارة محفوظه من هذا الأدب. ولم يكن صاعد يفرق في بنائه لهذه الفصوص بين المنظوم والمنثور؛ فالموضوع الهزلي أو الماجن، هو الغاية التي كان يبحث عنها، سواء كانت الوسيلة شعرا أو نثرا. وقد حاولنا في تفريقنا بين الفصوص الهازلة، والفصوص الماجنة، أن نحتكم إلى مقياس الخلاعة والإفحاش، فجعلنا «المجون» صفة للفصوص التي بنيت أخبارها على التصريح الفاحش بما يكنى عنه من المعاني، وجعلنا الهزل صفة للفصوص التي سعى صاعد إلى جعلها مسلية مضحكة، دون أن يضمن الخبر أي لفظ أو معنى فاحش. ومن الفصوص الهزلية التي سلمت من الإفحاش، الفص (42) الذي يقول فيه صاعد: «ذكر المدائني أن رجلا من بجيلة مرض أخوه، فأغمي عليه في مرضه، فجاء بالغاسل، فوجد به رمقا، فقال: إنه حي. فقال: اغسله، فإنك لا تفرغ من غسله حتى يموت».(89)

أما فصوصه الماجنة فجد كثيرة؛ وحتى لا يحمل هذا الوصف على المبالغة، وللربط بين الصورة التي رسمتها المصادر لصاعد، وما ورد في فصوصه، نورد للتمثيل، الفص الذي ينقل فيه صاعد عن الأصمعي خبر زواج شيخ من العرب بجارية حسناء: «قال

88) انظر حديث الثعالبي عن التنوخي وطرحه الحشمة مع جملة من القضاة في مجالس المهلبي يتيمة الدهر 2/335.

89) الفصوص ص: 12ب.



الأصمعي: تزوج شيخ من العرب بجارية حسناء، وكان قد أخذ منه الكبر، وضعف عن غشيان النساء، فكان يعانقها ويمكنها وتمكنه من نفسها، فلا ينتشر عليه، ويتقلص ذكره ويبقى معلقا بين فخذيها منكسا، فنشزت عليه، فقال: (كامل)

1 — نَظَرَتْ فَأَعْجَبَهَا الَّذِي فِي دِرْعِهَا
مِنْ حُسْنِهِ وَنَظَرْتُ فِي سِرْبَالِيَا

2 — فَرَأَتْ لَهَا كَفَلاً يَنُوءُ بِخِصْرِهَا
وَعْثاً مُؤَزَّرُهُ وَأَجْثَمَ نَاتِيَا

3 — وَرَأَيْتُ مُنْتَفِضَ الْجِعَانِ مُدَلْدَلاً
رَخْواً حَمَائِلُهُ رَقِيقاً بَالِيَا

4 — أُدْنِي لَهُ التَّرْكَبَ الْحَلِيقَ كَأَنَّمَا
أُدْنِي إِلَيْهِ عَقَارِباً وَأَفَاعِيَا

5 — مَا بَالُ رَأْسِكَ مِنْ وَرَائِي خَالِفاً
أَحَسِبْتَ أَنَّ حِرَ الْفَتَاةِ وَرَائِيَا(90)

ورغم هذا التمييز بين الهزل والمجون، الذي مكننا منه المقياس المحكَّم، نعترف بأننا لم نستطع أن نحدد المنحى الدقيق لبعض الفصوص، ويرجع ذلك إلى أن الحكاية أو الشعر الذي يبنى عليه الفص، يكون أحيانا عبثا ببعض من ترتبط أعمالهم بالشعائر الدينية كالمؤذن، والخطيب،(91) أو تفكها غير مؤدب لا يراعي مقام القرآن الكريم،(92) كما يرجع أحيانا أخرى، إلى كون الفص يبدأ هازلا وينتهي ماجنا. ونكتفي بالتمثيل لهذا النوع الأخير بالفص (401) الذي ينقل فيه صاعد عن ابن دريد خبر الشيخ أبي غريب وزواجه: «قال ابن دريد: قال أبو زيد الكلابي: كان أبو غريب

---

90) الفصوص ص: 155ب.

91) انظر الفصوص: الصفحات 126أ ـ 126ب.

92) انظر الفصوص: 132ب ـ 133أ.



عندنـا شيخا تزوج فلم يولـم، فاجتمعنا على باب خبـائه وصحنا (منهوك المنسرح):

1 — أَوْ لِـمْ وَلَـــــوْ بِيَـــــرْبُـــــوعْ
2 — أَوْ بِقُـــــتَرادٍ مَجْـــــــدُوعْ
3 — قَتَلْتَنَـــــا مِـنَ الْجُـــــوعْ

فَأَوْلَمَ، واجتمعنا عنـده، فعرس بأهلـه، فلما أصبح غدونـا عليه وقلنا: (رجز)

1 — يَــا لَيْتَ شِعْــرِي فِي أَبِـي غَــرِيبِ
2 — إِذْ بَــاتَ فِي مَجَــاسِـدٍ وَطِيبِ
3 — مُعَــانِقــاً لِلـــتَّرْشَأِ الــتَّرْبِيبِ
4 — أَأَغْمَــدَ المِحْقَــارَ فِي الْقَلِيـبِ
5 — أَمْ كَــانَ رَخْــواً يَــابِسَ الْقَضِيبِ

فصاح إلينا: يابس القضيب والله، وأنشأ يقول: (بسيط)

1 — سُقْيـاً لِعَهْـدِ خَلِيـلٍ كَـانَ يَأْدِمُ لِي
زَادِي وَيُذْهِبُ عَنْ زَوْجَـاتِي الْغَضَبَا
2 — كَـانَ الْخَلِيلَ فَأَضْحَى قَـدْ تَخَـوَّنَـهُ
مَرُّ الـزَّمَانِ وَتَطْعَـانِي بِـهِ الثُّقَبَا(93)

وإذا كنا ـ في إشـارة سابقة ـ قد أرجعنا اقتصـار صاعد على خـرافة واحـدة، إلى إحساسـه بنفور علمـاء الأندلس من كـذب(94) الخرافـات، فإن مما نفسر بـه كثرة فصوص الهـزل والمجون في كتابه، كـون صاعد قد آنس من المنصور ومن بعض الـذين كانوا يحضرون مجالسه، ميلا إلى ما كـان يحدث به من هزل ومجون، فأكثر من ذلك، وهو لا يعلم أن هزله وتمـاجنه سيكونان سببا في

93) الفصوص ص: 114أ.

94) المقصود بالكذب هنا، نسبة الأحداث والأقوال إلى الحيوان.



سوء سمعته العلمية لدى بعض معاصريه ولدى المتأخرين، كما تشهد بذلك المصادر التي ترجمت له.

ز) فصوص أخبار الشعراء :

يقترب صاعد بهذه الفصوص، من بعض ما ورد في كتاب الأغاني، من أخبار الشعراء أو نوادرهم. ومجموع الفصوص التي بناها على هذه الأخبار والنوادر، يمكن أن تكون كتابا مستقلا بذاته، لطرافة ما أورده منها في مؤلفه. ومما تتميز به هذه الأخبار، أنها تتناول بعض الشعراء الجاهليين، والمخضرمين، والأمويين، والعباسيين، دون أية تفرقة بين القدماء منهم والمحدثين.

وينحو صاعد في بعض الأخبار منحى جادا، بينما ينحو في بعضها الآخر منحى هزليا صريحا، كما يتضح من الفص (216) الذي بناه على خبر الشاعر أبي فرعون، وانتجاعه أعرابا أكلوا ضيفهم.(95)

ومن الشعراء الذين تضمنت الفصوص بعض أخبارهم، أبو دؤاد الإيادي، وبيهس، ومرقش الأكبر، والأعشى، ثم الشماخ، ومزرد، وسحيم، وجميل، وأبو نخيلة، وأبو النجم، ورؤبة، والوليد بن يزيد، ومروان بن أبي حفصة، ومطيع بن إياس، وحماد عجرد، وبشار، وأبو العتاهية، وأبو دلامة، وأبو نواس، والعتابي، ومنصور النمري، وأبو المقدام، وأبو تمام، وابن العلاف، وابن طباطبا العلوي. وبعض هذه الأخبار لا تخلو من أهمية، من حيث علاقتها بالتأريخ الأدبي؛ ومن ذلك خبر بداية شهرة أبي تمام(96) الذي تضمنه الفص (518). لكن قلة فصوص أخبار الشعراء هذه ـ رغم مقاربتها ثلاثين خبرا ـ بالقياس إلى كثرة فصوص الاختيارات

---

95) الفصوص ص: 78أ.

96) الفصوص ص: 131ب.



الشعرية نفسها، يجعلنا نعتقد أن صاعدا، كان أكثر اهتماما بأشعار الشعراء منه بأخبارهم.

ح) فصوص أخبار العلماء :

اهتم صاعد بنقل أخبار بعض من عاصره من العلماء، كما اهتم بنقل بعض أخبار كبار العلماء في العصور السابقة؛ ومن بين هؤلاء العلماء الذين وردت بعض أخبارهم في فصوص صاعد، شيخاه أبو سعيد السيرافي، وأبو علي الفارسي، والوزير عبد العزيز يوسف، وقرموطة، وعلي بن مهدي، وابن حمود الزبيدي الأندلسي، والزبيدي مختصر العين، والمبرد، وثعلب، وابن الجراح، وابن المعتز الشاعر العالم، والحسن بن وهب، واليزيدي، ويونس، وسيبويه، والخليل، وعمرو بن عبيد، والأصمعي، والأعمش، وابن المقفع....

وقد تعلق بعض هذه الأخبار بالجانب الإنساني في حياة هؤلاء العلماء، كالمنافسة(97) التي كانت بين السيرافي والفارسي، وبين المبرد وثعلب؛(98) وكزواج سيبويه، الذي كان سببا في إحراق النسخة الأولى من كتابه؛ بينما تعلق بعضها الآخر بالحياة العلمية لهؤلاء لعلماء، كخبر انتقال الأصمعي بين البوادي بحثا عن اللغات، واعتماده على الجذاذات في تقييد العلم وحفظه؛ وخبر حديث سيبويه عن علم شيخه الخليل(99) المكتوب والمحفوظ. ومن أطرف هذه الفصوص المبنية على أخبار العلماء، الفص 513 الذي أشار فيه صاعد إلى أن النسخة التي بين أيدينا من كتاب سيبويه ليست نفس النسخة الأولى التي ألفها.(100)

---

97) الفصوص ص: 71أ.

98) الفصوص ص: 129ب.

99) الفصوص ص: 131أ.

100) الفصوص ص: 131أ ـ 131ب.



ط) فصوص أخبار صاعد :

لم يبخل صاحب الفصوص على قارئ كتابه، ببعض أخباره في المشرق والأندلس؛ فبعض فصوص الأخبار في كتابه مبنية على بعض أخباره قبل أن يرحل عن بغداد، وبعد وصوله إلى بلاط المنصور بقرطبة. وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف مدى الأهمية التي حظيت بها هذه الأخبار لدى معاصريه من علماء الأندلس، فإن هذه الأخبار نفسها، تكتسي اليوم أهمية كبيرة، لأنها تعد بالقياس إلى الفقر الكمي والكيفي الذي اتسمت به أخبار صاعد في المصادر، المصدر الوحيد لكل دراسة ترغب في تقريب صورة صاحب الفصوص، عبر مختلف مراحل حياته، إلى القارئ المعاصر. ونعترف بأن غنى هذه الأخبار التي يخبر بها صاعد نفسه، قد مكننا من تجلية الغموض الذي أحاط بحياته، وتصحيح بعض الأخطاء التاريخية التي وردت في تراجم بعض القدماء له، مما جعل الترجمة التي حاولنا بناءها في المدخل السابق، تبدو ـ والله أعلم ـ إلى حد الآن، أوثق ما كتب عن صاعد وأكمله، لجدة المادة العلمية التي أمدنا بها ـ وكأنه كان يعلم أن أخباره ستضيع ـ وذلك في فصوصه التي بناها على بعض أخباره في المشرق والأندلس.

وقد تنوعت هذه الأخبار التي أخبر بها صاعد عن نفسه، بين أخبار تتعلق بشيوخه، والبلاد التي درس بها، والمعارف التي حصلها، وأخبار تتعلق بالعلماء الذين جالسهم أو ناظرهم، وأخبار تتعلق بمن قربه من ذوي السلطان في المشرق، فضلا عن الأخبار التي عرفتنا بالأسباب الحقيقية التي أرغمته على الخروج من بغداد إلى الأندلس، وبتاريخ خروجه منها، وبطبيعة العلاقة التي ربطته بالمنصور بن أبي عامر، وبتلامذة القالي في الأندلس. وإذ كنا قد



استفدنا من جل هـذه الأخبار في ترجمتنا المتقدمة لصـاعد، فإننا نكتفي هنـا، بأن نمثل لهذا النـوع من الفصـوص التي بناهـا على أخباره، بالفص (432) الذي يعـرفنا ببعض مظاهر الحظـوة العلمية التي كـان صـاعـد يحظى بهـا في بـلاط المنصـور بن أبي عامـر.(101)

ولعل صاعدا كان سيـزيدنا معرفة به، لـو أنه ضمن فصوصه من أخباره أكثـر مما فعل، إلا أننـا لا ننكر أن هذه الأخبـار ـ رغم قلتها النسبيـة ـ استطـاعـت أن تضيء بعض جـوانب العتمة التي حجبت عنا الصورة الحقيقية له، بعدما تحولت أخباره في المصادر إلى ملح ونوادر يتسلى بها.(102)

ي) فصوص المختارات الشعرية :

تدل كثرة الفصـوص التي بنـاها صاعـد على أشعـار جيدة أو رقيقة اختيـرت لذاتهـا، لا لتفسير معانيهـا أو شرح غـريبها، على غزارة محفوظ وبصر بالنقد، يؤكـدان أن صناعة صاعد كانت، كما قـال هـو نفسـه، حفظ الأشعـار وروايتهـا. ولم يميـز صـاحب الفصـوص في ما اختـاره من شعـر، بين القـديم والمحدث. وقـد اختـار صـاعـد من الشعر القـديم، ما استجـاده هو، أو استجـاده العلمـاء، من مقطعـات وقصـائد مطـولـة لشعـراء جـاهليين، ومخضرمين، وأمويين، دون أن يفرق بين القصيد والرجز، أو بين المنسوب وغيـر المنسوب، ولا بين المغمور والمشهـور من هؤلاء الشعراء.

---

101) الفصوص ص: 129ب.

102) انظـر مثلا مـا نقلته هـذه المصادر عن حـادثة الخنبشـار والتمركل والقـوالب والزوالب.



أما الشعر المحدث، فقد جمع في ما اختاره منه بين أشعار القرن الثاني والثالث، وأشعار بعض من عاصره أو صادقه من شعراء القرن الرابع الهجري في المشرق. وقد يبدو هذاالاختيار لبعض ما نظمه أهل عصره من الشعراء، للقارئ اليوم، أسلوبا أدبيا، لا يحمل أية دلالة نقدية؛ لكن وضع هذا الاختيار في سياقه التاريخي، يكشف عن جرأة نقدية تميز بها صاحب الفصوص في عصر كانت المعاصرة فيه حجابا. وقد نبه الثعالبي قارئ اليتيمة إلى أن ما يميز كتابه هو اهتمامه بمحاسن أهل العصر، في زمن سئم فيه الناس ما يردده المصنفون من أشعار السابقين.(103) ويتحدث النقاد عادة عن الثعالبي، باعتباره الناقد الذي خرق حجاب المعاصرة، ليؤلف كتابا في محاسن أهل عصره من الشعراء والأدباء. والثعالبي يصرح في مقدمة النسخة الثانية من اليتيمة، بأنه كان قد بدأ تأليف النسخة الأولى سنة 384هـ. وإذا كان صاعد قد بدأ إملاء الفصوص بقرطبة في ربيع الأول سنة 385هـ بعد أن كان قد أملاه على مستخدمي المنصور، فإن بعد المسافة بين المشرق والأندلس، وتقارب تاريخ تأليف اليتيمة وإملاء الفصوص، يجعلاننا نفترض أن الثعالبي لم يكن سباقا إلى اختراق حجاب المعاصرة. فصاعد بتضمينه كتابه الفصوص مختارات شعرية لمعاصريه من المشارقة، وهو بالأندلس، يعد مشاركا الثعالبي في التمرد على العرف، الذي يمنع النقاد والمصنفين، في النصف الأول من القرن الرابع، من أن يختاروا للمعاصرين ولو أجادوا وأحسنوا.

إن القصد إلى التعريف بمحاسن أهل العصر لدى صاحب اليتيمة، هو نفسه ما قصد إليه صاحب الفصوص. وكل ما يميز كتاب اليتيمة كونه مصنفا خاصا يجمع هذه المحاسن، دون

103) يتيمة الدهر 1/ 4.



التعرض للأعصر السابقة؛ بينما وردت الفصوص التي بناها صاعد على ما استحسنه من أشعار معاصريه، ضمن مؤلف كبير، يضم محاسن السابقين والمعاصرين، ومباحث علمية أخرى.

ومن الشعراء القدامى والمحدثين والمعاصرين الذين اختار لهم صاعد، أذكر للتمثيل لا للحصر، مرقشا الأكبر، والأعشى، وسحيما، ومعن بن أوس، وعبيد بن أيوب، وأبا النجم، ونصيبا مولى المهدي، وأبا العتاهية، وابن المعتز، والوأواء، وكشاجماً، والسري الرفاء، والحمدوني، وأبا بكر الخالدي، وأبا عثمان الخالدي... والجامع بين هذه المختارات الشعرية التي يختارها صاعد الجودة والرقة والندرة؛ أما الغرض الشعري فلم يكن مُحَكَّماً في هذا الاختيار، لذا نجد هذه المختارات تجمع بين الشعر الجاد الرزين، والوصف المحكم، والغزل الرقيق، والهجاء الساخر، والهزل الماجن.

ويبدو أن صاعدا كان يعتبر جودة الشعر وحسنه، قيمة فنية كافية لبناء الفص، مثلها مثل القيمة العلمية أو التاريخية للشعر، ويتجلى ذلك من الحيرة التي أبداها أمام أبيات نقلها عن سيبويه، دون أن يعرف وجه إثباتها: «ونقلت من خط سيبويه لِلُقَيْم بن لقمان الحكيم: (وافر)

1 — أَلَا حَيِّ ابْنَةَ الْجَدَلِيِّ هِرَّا
وَنَاعِمَهَا صَبَاحَكَ وَالْمَقَرَّا

2 — بِآيَةِ أَنَّهَا قَامَتْ فَقَالَتْ
أَلَا مَنْ يَدْفَعُ الشَّرَّ الشِّمِرَّا

ولم أر له شرحا بخطه، فلا أدري لأي شيء كتبه؟ للنسب إلى جديلة؟ أم للشمر، ففيه كلام...».(104)

104) الفصوص ص: 86ب.



ويرجع تمسك صاعد بهذه المختارات الشعرية النادرة، في الظاهر، إلى أنه وعد القارئ بألا يحدثه إلا بأحسن ما حفظ ونقل من خطوط العلماء. لكن السبب الحقيقي لإكثاره منها، رغبته في تحدي علماء الأندلس وتلامذة القالي، بمحفوظ شعري كانوا يجهلونه. وكانت الاختيارات التي أوردها في الفصوص التي بنيت على موضوع «النخل»، نموذجا لهذا المحفوظ القيم النادر؛ فقد جمع صاعد في هذه الفصوص من الأشعار غير المتداولة، ومن أسماء الشعراء المغمورين والمجهولين، ما يؤكد أنه كان حافظا للشعر، يجمع في حفظه بين المشهور وغير المشهور. وقد كانت الفترة التي تولى فيها الإشراف على نفائس خزانة الوزير ابن يوسف، وراء هذا المحفوظ الغزير الذي لم يكن ميسرا لغيره من العلماء. وكان صاعد في كثير من الفصوص يتعمد التنبيه إلى ندرة ما يورده: «قال صاعد بن الحسن: نقلت عن يد الأصمعي مما استأثر به لنفسه، هذه القصيدة، وهي لشبل بن الصامت المزني...».(105)

ولعل أهم ما يستفيده القارئ اليوم، من هذه المختارات القيمة النادرة، وقوفه على مجموعات شعرية تنافس الاختيارات التي وصلتنا، فضلا عن بعض اختيارات الأصمعي التي تلزم الدارس بالبحث عن علاقتها بالأصمعيات المتداولة اليوم بين القراء. ومن هذه المجموعات الشعرية المتميزة الدَّبِيقِيَّات، وهي عشر قصائد اختيرت لعبد الله بن طاهر بن الحسين كما ذكر ذلك صاعد نفسه: «نقلتُ هذه القصيدة من ثوب دَبِيقِيّ بخط الأقرع، كتبها إلى(106) تسع قصائد مختارة لعبد الله بن طاهر، فكان الثوب يعلق في حائط مجلسه، فيدرسها ليستظهرها وهو مستلق على ظهره؛

105) الفصوص ص: 30أ.

106) أي كتبها إلى جانب تسع قصائد أخرى.



وسأثبت الجميع في كتابنا هذا مشروحا، إن فسح الله تبارك اسمه في الأجل...». (107) وفي الفصوص التي بنيت على هاته القصائد، كان صاعد ينبه إلى أن القصيدة دَبيقِيّة مختارة، كقوله في الفص (226): «قال صاعد بن الحسن: هذه القصيدة إحدى القصائد العشر، التي كتبها الأقرع، لعبد الله بن طاهر في الثوب الدبيقي الذي كان يعلق قدامه، ليقرأها وهو مستلق على ظهره فيستظهرها ...». (108)

وقوله في الفص (227): «ونقلت من خط الأقرع، في الثوب، من العشر المختارة لعبد الله بن طاهر، لسوار بن مضرب، كلابي جاهلي..». (109) والحديث عن الدبيقيات التي شرح صاعد بعضها، رغم كونها اختيارا فنيا، يفرض علينا أن نلحق بفصوص الاختيارات الشعرية غير المشروحة فصوصا أخرى كثيرة، جمع فيها بين اختيار الشعر وشرحه، لتداخل القيمة العلمية والفنية في نفس النموذج؛ وبضم فصوص المختارات الشعرية المشروحة، إلى ما لم يشرح من هذه المختارات، يصبح كتاب الفصوص من أنفس كتب الاختيارات اليوم وأهمها، من حيث النظر إلى تضمنه أشعارا كثيرة، لم ترد في ما بين أيدينا اليوم من كتب المجموعات، والحماسات، والاختيارات، والنوادر، ولا في غيرها من كتب الأمالي والمجالس. ومن النفائس التي بنى عليها صاعد كثيرا من الفصوص، أذكر الفصوص التي جمع فيها ما يكون مجموعة شعرية مستقلة؛ ولارتباط أشعار هذه المجموعة بموضوع واحد هو النخل، فإن من الممكن أن نسمي هذه المجموعة النادرة بالنخليات. (110)

107) الفصوص ص: 27أ.

108) الفصوص ص: 82ب.

109) الفصوص ص: 83أ.

110) انظر مثلا الفصوص ص: 109ب.



ومن النفائس أيضا التي تضمنتها هذه المختارات الشعرية، أشعار منتقاة مما جمعه بعض العلماء من أشعار القبائل التي تعد اليوم مفقودة أو في حكم المفقود،(111) وأشعار أخرى تنتمي إلى ما سمي بشعر اللصوص.(112)

وكثير من هذه المقطوعات والقصائد مروي عن علماء مشهورين، كالمفضل، والأصمعي، وأبي عمرو الشيباني وابنه؛ لكنني أعترف بأني عجزت عن تخريج عدد غير قليل من المختارات، والتعريف بأصحابها، رغم رجوعي إلى كثير من المصادر والدواوين والمظان.

وكل ما كنت أعثر عليه من هذه المختارات أبيات منفردة ورد أكثرها في كتاب النخلة أو اللسان.(113) وقد يكون عجزي هذا عجز تقصير في البحث، لكن مما يجدر التذكير به أن صاعدا استطاع في القرن الرابع أن يرغم تلامذة القالي كلهم على الاعتراف ضمنيا بهذا العجز، من خلال تشككهم وتشكيكهم في صحة ما ورد في الفصوص. وكان هذا التشكيك والتعجيز نتيجة مباشرة لالتزام صاعد بأن لا يضمن كتابه كلمة واحدة مما أورده القالي، أو لاشتراطه غير المشهور، كما عبر عن ذلك صاحب الذخيرة. ولهذا نميل إلى إرجاع خلو المصادر من معظم هذه المختارات الشعرية التي أثبتها صاعد في الفصوص، إلى أنها كانت نادرة في عصر المؤلف نفسه، لا إلى ضياعها في العصور اللاحقة.

ولم يفت صاعدا أن يضم إلى هذه النفائس الشعرية التي جمعت بين ما قاله القدماء، وأهل العصر، ما استجاده هو نفسه

---

111) انظر مثلا ما أورده من أشعار ضبة، ومزينة، ومراد، وجُعفِي.

112) انظر ما نقله من أشعار عبيد بن أيوب وفرعان اللص.

113) أقصد على الخصوص ما سميته بالنخليات.



من شعره، ملقيا بدلوه في الدلاء، كما قال في الفص (467).(114) ورغم حسن مدحته التي اختارها في الفصوص، لم تتجاوز الفصوص التي ضمنها أشعاره فصين. ولعله أدرك أن في جودة الأشعار التي اختارها للقدماء، وحسن ما اختاره للمحدثين، ما يغني عن أشعار له قصرت عن أشعار المشارقة، وإن كانت قد نفقت في مجالس قرطبة واستطرفت.(115)

ك) فصوص المختارات الأدبية :

نقصد بهذه تسمية المختارات المرتبطة بالأدب الإنشائي، وإلا فكتاب الفصوص كله يعتبر كتابِ مختارات أدبية، إذا نحن توسعنا في فهم هذا المصطلح. ونقصد بالأدب الإنشائي هنا ما كان خطبة أو رسالة فنية.

والملاحظ أن فصوص المختارات الأدبية جد قليلة، إذا ما قيست بفصوص المختارات الشعرية. ولعل نسيان صاعد لبعض ما حفظه من المنثور بعد أن فقد كتبه وراء هذه القلة. وقد اعترف هو نفسه بهذا النسيان، عندما آثر في أحد الفصوص ألا يثبت من خط الأصمعي رسالة له، كتبها إلى بعض الأعراب بنجد: «ونقلت بعد هذا نسخة كتاب إلى بعض الأعراب بنجد، يذكر شوقه إليه وأيامه عنده، وهو يطوف في أحياء العرب يأخذ عنهم اللغات. وكان كتابا فصيحا، غير أني نسيت سرده، فلم أحب أن أثبت منه شيئا على غير وجهه».(116) ويبدو أن صاعدا لم يكن يتحرج من الاعتراف بالنسيان، كما يظهر في قوله متحدثا عن شيخه أبي علي

114) الفصوص ص: 127ب.

115) انظر المبحث الخاص بشعره.

116) الفصوص ص: 50ب.



الفارسي: «وكنت كتبت من إملائه رحمه الله نحو ألفي ورقة، فلم يحصل من أصلي في الأندلس إلا هذا الذي نقلته...».(117)

ومن بين هذه المختارات المطولة التي حفظتها ذاكرة صاعد، رسالة كتبها الشاعر ابن المعتز إلى شيخه ثعلب، وهي رسالة تضم إلى قيمتها الفنية قيمة تاريخية وأدبية، لدلالتها على نوع العلاقة التي ربطت ابن المعتز بشيخه ثعلب، ولتضمنها أرجوزة مطولة لأبي النجم نقلها ابن المعتز نفسه من خط أبي عبيدة.(118)

أما الخطب، فقد اختارها صاعد من عصور الخطابة الأولى.(119) ورغم هذا الميل إلى تنويع مختارات الفصوص، باختيار بعض الرسائل والخطب، لم يستطع صاعد أن يجعل للفصوص المبنية على ما اختاره من الخطب والرسائل، نفس الدلالة النقدية التي نجدها في الفصوص التي بنيت على المختارات الشعرية، فما أورده منها كان قليلا، بالقياس إلى فصوص الأشعار التي استغرقت قسماً جد كبير من الكتاب.

ل) فصوص تفسير الأشعار وشرح أبيات المعاني :

رغم كثرة الفصوص التي بناها صاعد على الشعر، لم يشرح كل الأشعار التي وردت فيها، ويرجع ذلك إلى أنه كان يميز بين ما يختار من الشعر لجودته وحسنه، وبين ما يختار ليفسر ويفك معماه، وبين ما يختار لهذا وذلك. وقد صرح صاعد أمام ممتحنيه من علماء المنصور، بأن صناعته حفظ الأشعار وفك المعمى،

117) الفصوص ص: 59ب.

118) الفصوص ص: 97 أ إلى 98 ب، وانظر أيضا رسالة ابن وهب إلى أبي تمام ص: 132أ.

119) انظر مثلا الخطبة التي تضمنها الفص 526، الفصوص ص: 133أ.



واعترف لـه خصومـه من الأندلسيين بـأنه كـان بارعا فـي شرح الشعر. إلا أنـه لم يكن يفرض على القـارئ شروحه، رغم البـراعة التي وصف بهـا. فبينمـا نجد بعض شـروحـه، تتناول القصـائد المطـولة بيتـا بيتـا، نجـده في بعض الفصوص يكتفـي بالشـرح المقتضب القليل الذي تتطلبه الأبيات.(120) وقد يقتصر الشرح على بيت واحد(121) من مجموع أبيـات المقطوعة أو القصيـدة. ونفسر هـذا الجمع بين شـرح القصـائد المطـولـة والأبيـات الفـاردة في الفصوص، بأن الغـاية من الشـرح نفسها كانـت تختلف من شعر إلى شعـر، فبعض الأشعـار والقصائد كـانت تُشـرح كلها لجـودة معانيها، كـالأرجوزة النونية الفـريدة،(122) التي يشـرحها صـاعد نفسه دون أن يعتمـد على شارح آخـر؛ بينما كـانت بعض الأبيات تشرح لمادة معجمية تتضمنها.(123) وإذا كان صاعد لا يفسر من الشعر إلا ما كان يحتاج إلى تفسير، فإننا نجد بعض شروحه غير كاملة.(124) وقد تكـون القصيدة المختـارة لقيمتها الفنيـة جلية، إلا بيتـا واحدا منهـا، فيشرح هـذا البيت دون سواه، رغم أن تـوسط الشرح العارض للقصيدة المختارة يبدو ناشزا.(125)

ولما كـان بناء الفصـوص على تفسيـر الشعر وشـرح أبياتـه تصنيفا تفرضه طبيعة الشعر المختار، فإن مصدر الشرح نفسه لا يكون جـوهريا، مـادامت الغاية هي الشـرح، لذا نجد صـاعدا في بعض شـروحه ينقل الشـرح عن شيوخـه، أو بالإسناد إلـى كبار

---

120) انظر الفصوص ص: 9أ.

121) الفصوص ص: 33أ. وانظر أيضا الفص 422، الفصوص ص: 124ب.

122) الفصوص ص: 116ب.

123) انظر شرح مادة حواريات في البيـت الـذي بني عليه الفـص 75 الفصوص ص: 33أ.

124) انظر الفص 631، الفصوص ص: 140ب.

125) انظر الفص 465، الفصوص ص: 127أ.



العلماء؛ بينما نجده في فصوص أخرى يتصدى للشرح معتمدا على علمه، دون أن ينقل عن غيره من الشيوخ والعلماء. ومن بين أهم فصوص تفسير الشعر وشرحه في الكتاب، الفص الذي شرح فيه صاعد قول مسكين الحنظلي، تجلية لما سأله عنه المنصور ابن أبي عامر: «وقال لي المنصور بن أبي عامر أطال الله بقاءه: كيف قال مسكين الحنظلي: (طويل)

1 — وَكَائِنْ تَرَى فِينَا مِن ابْنِ سَبِيَّةٍ
إِذَا الْتَقَتِ الْخَيْلَانِ يَطْعَنُهَا شَزْرَا

2 — فَمَا زَادَهَا فِينَا السِّبَاءُ مَذَلَّةً
....

وهي كانت قبل أن تُسبى كريمة، وإنما يزيدها ذلا، إذا كانت ذليلة. وإنما حكم الكلام أن يقول: فَلَمْ يُعْطِهَا فِينَا السِّبَاءُ مَذَلَّةً، لقوله: «ولكن خلطناها بحُرّ نسائنا»؟ قلت: يمكن أن يكون أقام «فما زادها» مقام «لم يعطها»، أو «لم يورثها»، فالعرب قد تقيم كلمة مقام كلمة، وقد حكى الفراء عن بعض العرب: بلدُنا قلَّما يُنْبتُ الكَرَّاثَ، أي لا تُنبت منه شيئا، فأقام «قلّ» مقام النفي. فقال أيده الله: الذي أرى فيه أنه أراد أن السبي يُذل الكريم الذي لم يَذِلّ، ويزيد الذليل ذلا، فأراد أنا حين سبينا هذه الكريمة، خلطناها بحُرّ نسائنا فلم تَذِلّ إلا ذُلّ السبي والتغلب عليها، ولم نَسْتَهِنْها بخدمة فيزيد ذل الامتهان في ذل الغلبة. فقلت: هذا أحسن، واغتبطتُ به وأثبتُّه.(126)

أما فصوص أبيات المعاني فتكشف عن منحى آخر في التفسير. فإذا كان تفسير صاعد للأشعار المختارة أو الواردة في الأخبار قد هدف إلى تجلية معانيها للقارئ والسامع، فإن شرحه

126) الفصوص ص: 125أ.



أبيات المعاني كان إظهارا للعلم والذكاء، والقدرة على فك معميات الشعر التي يعجز غيره عن فكها. وقد كشف صاعد عن هذه الرغبة في إظهار العلم، في تخصيصه قسما كبيرا من الكتاب لهذه الأبيات مجتمعة، رغم أن كثيرا منها شرح عرضا في فصوص أخرى متفرقة. وقد أخفى هذه الرغبة في إظهار علمه، متعللا بأن جمعه لهذه الأبيات في آخر الكتاب كان لتسهيل الوصول إليها.(127)

وبلغت فصوص أبيات المعاني التي جمعها صاعد في آخر الكتاب ـ دون عد ما تخلل الكتاب منها ـ أكثر من تسعين ومائة فص، تضمنت أبياتها معاني مختلفة، وأغراضا شعرية متعددة. ورغم تنوع معاني هذه الأبيات وأغراضها، كان الجامع بينها غموض المعنى، وخفاء الدلالة، لتضمن البيت لفظة غريبة، أو تركيبا نحويا، أو صرفيا، يضلل القارئ، ويمنعه من إدراك قصد الشاعر. ولتنوع هذه العوائق، كان صاعد يضطر إلى الخوض في القضايا اللغوية، والصرفية، والنحوية، معيدا صياغة البيت الصياغة المفترضة التي تقرب السامع، من المعنى الذي قصده الشاعر.

وقد يقع الغموض في نصف بيت، فيقتصر صاعد عليه.(128) أو تتعدد الأبيات الغامضة في نفس القصيدة، فيتتبعها صاعد باعتبارها أبياتا فاردة،(129) لا باعتبارها أبياتا من قصيدة واحدة.

وإذ كانت غاية صاعد في شرح أبيات المعاني إظهار علمه رواية ودراية، فقد آثر أن يجمع في شرحه لهذه الأبيات بين ما سمعه من الشيوخ، وما نقله من العلماء، وبين ما كان اجتهادا منه وتفردا بالرأي.

127) الفصوص ص: 133أ ـ 133ب.

128) الفصوص ص: 136أ.

129) الفص 556 وما بعده، الفصوص ص: 136أ.



م) الفصوص اللغوية :

بنى صاعد فصوصا كثيرة من كتابه على شرح الغريب، وبعض الوحدات المعجمية التي تضمنتها بعض الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأخبار. وقد تقدم التعرض لبعض ما ورد في الفصوص القرآنية، وفصوص الأحاديث الشريفة، والأشعار، من شرح. أما الأخبار التي اختيرت لشرح غريبها، فقد كانت قوية الدلالة على غزارة محفوظه اللغوي، وسعة معارفه المعجمية؛ ومن أهم هذه الأخبار التي برهن بها صاعد على معرفته بالغريب، خبر الأعرابي وإبله الضائعة، وخبر النعمان ذي الأنف، اللذان كانا من أطول فصوص الكتاب. ولتبيين نموذج الغريب الذي كان صاعد يتصدى لشرحه، نجتزئ بعض الفقرات عن خبر الأعرابي وإبله: «قرأت على أبي سعيد بالرصافة ببغداد: حدثكم محمد بن دريد، قال: أخبرنا أبو حاتم السجستاني قال: أخبرنا الأصمعي، عن ابن الكلبي قال: أضل أعرابي من بني عُذْرَةَ يُكْنَى أبا الزهراء إبلاً له، فنغَض في بِغائِهِنّ، حتى انتهى إلى بيداء مُتِيهَةٍ، وَمَهَامِه غَوَّالَةٍ... فلم يلبث أن رأى شخصا مقبلا على نَجِيبٍ له أَرْحَبِيٍّ... فلما ساواه قال له: أيها الصارخ، ما أَضْللتَ؟ ... قال: أضللتُ بَكَرَاتٍ نَكِرَاتٍ، مهفهفاتٍ، مُجْمِرَاتٍ، عِرَضْنَاتٍ، شِمِلاَّتٍ، مُسْنِفَاتٍ، فَائِقَاتٍ، رائقات، يَنْكَيِثُ بهن الجَدْبُ، وينبعث بهن الخِصبُ... أَتَتَبَّعُ بهنّ مَطِيطَةَ الشَّمَلِ، وَمَرْعَى الدَّرِينِ والنَّفَلِ، وأحرِسُهن غارة السِّرْحان... يَهبطْن يَبِيسَ اليَنَمَةِ، ويتَعلّقْنَ مَكْدُودَ الثَّغَمَةِ».(130) والواضح من كثرة الغريب في هذه القصة أنها وضعت لتكون متنا لغويا. وخصص صاعد بعض هذه الفصوص لشرح بعض التراكيب اللغوية المسكوكة، كقولهم «أنا ابن بُعْثُطها»،(131) و«إنه لمُرَيِّث

130) الفصوص ص: 68أ- 68ب.

131) الفصوص ص: 89ب.



العينين»،(132) و«صكة عمي»،(133) و«أعطني نفسا أو نفسين»،(134) وقولهم «خطيب مصقع، وشاعر مرقع، وحاد قراقر».(135)

وبحث في بعض الفصوص غلبة البناء الصرفي الدلالي للمفردة على البناء النحوي في تثنية بعض الأعلام والأسماء: «قال صاعد: من الاسمين يغلب أحدهما على صاحبه لشهرته أو خفته... الزهدمان: وهما زهدم، وقيس من بني عوير بن رواحة... والأحوصان: الأحوص بن جعفر... وعمر بن الأحوص... والعمران: عمرو بن جابر... وبدر بن عمرو والحنتفان: الحنتف وأخوه سيف... والأقرعان: الأقرع بن حابس وأخوه مرثد...».(136)

وجمع صاعد في بعض الفصوص بين تعداد المترادفات التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد، وشرح بعض هذه الألفاظ، فذكر أسماء النخل،(137) وأسماء الروضة(138) وأسماء مكة،(139) وأسماء زمزم.(140)

وكان هذا الجمع بين المباحث التي تنطلق من اللفظة إلى معناها، أو من المسمى إلى الألفاظ الدالة عليه، من أخصب الفصوص اللغوية في كتابه.

---

132) الفصوص ص: 135أ ـ 135ب.
133) الفصوص ص: 137ب.
134) الفصوص ص: 155أ.
135) الفصوص ص: 57أ.
136) الفصوص ص: 6ب.
137) الفصوص ص: 110أ.
138) الفصوص ص: 17أ ـ 17ب.
139) الفصوص ص: 102ب.
140) الفصوص ص: 152أ.



ن) الفصوص الصرفية والنحوية :

لعل تشكيك علماء الأندلس في عمق معارف صاعد النحوية والصرفية، كان وراء عنايته بهذه المسائل في كتابه؛ ويبدو من خلال تتبع هذه الفصوص، أنه كان أميل إلى بحث المسائل الصرفية، منه إلى بحث المسائل النحوية.

ومن المسائل الصرفية التي تناولها صاعد: بعض ما ورد من الصحيح على فعل يفعل بالكسر،(141) وإبدال الفاء والثاء،(142) والفرق بين أفعل التفضيل وأفعل الوصف،(143) وتخفيف الهمزة،(144) وعلاقة الواو بالياء في «طاف يطوف ويطيف»،(145) وإدغام النون،(146) وفك الإدغام في قراءة «يرتدد»،(147) والفرق الدلالي بين يفعل ويفعل في قولهم: إذا عز أخوك فهن،(148) وجمع عبد،(149) وجمع فعلة،(150) والجمع المسموع،(151) والفرق بين دلالة المد والقصر في كلمتي الرضاء والزناء،(152) ومشكلة القصر والمد في مريطاك،(153) وعلاقة وزن معد بتمفعل وتفعلل(154) في قولهم

---

141) الفصوص ص: 39أ.

142) الفصوص ص: 39ب.

143) الفصوص ص: 51ب.

144) الفصوص ص: 55ب.

145) الفصوص ص: 57ب.

146) الفصوص ص: 58ب..

147) الفصوص ص: 79أ.

148) الفصوص ص: 79أ..

149) الفصوص ص: 78أ.

150) الفصوص ص: 153أ..

151) الفصوص ص: 41ب.

152) الفصوص ص: 88أ ـ 66ب.

153) الفصوص ص: 88ب.

154) الفصوص ص: 89ب.



تَمَعْدَدَ، ومفعِل ومفعل،(155) والوقف على الجوار،(156) وجواز «حَانِيّ وحَانَوِيّ»،(157) وتعداد ما ورد على مِفْعَل وفِعَال من الألفاظ،(158) وغير ذلك من المباحث الصرفية.

وقد اتخذ صاعد من بعض الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والأشعار، منطلقا إلى عرض هذه القضايا الصرفية، مسهبا في بعضها، ومكتفيا بالإشارة المقتضبة في بعضها الآخر، كقوله في التفريق بين دلالة القصر والمد في نفس الكلمة: «وأنشدني بعض الفقهاء الكوفيين... قال صاعد: مد الرِّضَاء لأنه أراد معنى المفاعلة، وهي المراضاة، مثل المقاتلة والقتال، والمزاناة والزِّنَاء، وأنشد ابن الأعرابي: ياحسنها في الرضاء والغضب...».(159)

ويبدو لي أن هذا الرأي رأي طريف في تخريج الضرورة الشعرية، وحملها على اختلاف الدلالة في الرضى والرضاء.

أما المسائل النحوية، فقد بحث منها التقديم والتأخير،(160) وإعراب (بالعلياء) في بيت النابغة،(161) وعودة الضمير على غير آخر اسم مذكور،(162) وتخريج النحاة لخطأ أمير البصرة في قراءة قوله تعالى: ﴿**إن الله وملائكته**﴾... برفع ملائكته،(163) وتفصيل الجنس في قولهم (أدخلت الدار رجلا رجلا)،(164) ومخالفة المبرد

155) الفصوص ص: 106أ.
156) الفصوص ص: 107أ.
157) الفصوص ص: 114أ.
158) الفصوص ص: 158أ.
159) الفصوص ص: 88أ.
160) الفصوص ص: 58أ.
161) الفصوص ص: 59أ.
162) الفصوص ص: 107ب.
163) الفصوص ص: 123أ.
164) الفصوص ص: 123ب.



لسيبويه في جواز وصف الفاعل دون نقله بالألف واللام،(165) وتنازع حركة النقل وحركة الإعراب في قول الأعرابية (أَفِي السَّوءَةَ أُنْتُنَّه)،(166) وبناء أي وإعرابها،(167) وإعراب «حطة»،(168) والابتداء بلام الجر(169) في قوله تعالى: لإيلاف قريش، ووجه الرفع والنصب في قول الشاعر: (هذا النهار.... زال زوالها)،(170) ومباحث أخرى.(171)

إلا أن هذه الفصوص الصرفية النحوية كلها تعد قليلة، إذا ما قيست بكثرة فصوص الأخبار والمختارات الشعرية، وفي هذا ما يؤكد أن صاعدا رغم وقوفه عند بعض المسائل الصرفية والنحوية، فضّل تحت تأثير نزعته الأدبية ـ أن يجعل كتابه كتاب أشعار وأخبار، لا كتاب أبنية وإعراب.

ص) فصوص العروض والقوافي :

الإشارات العروضية في كتاب صاعد جد قليلة، بالقياس إلى المباحث النحوية والصرفية التي نبهْنا إلى قلتها هي نفسها؛ إلا أن صاعدا استطاع بهذه الإشارات العروضية القليلة، أن يجعل كتابه جليل الفائدة. فقد نبه في أحد الفصوص إلى أنه روى القصيدة التائية التي أثبتها، منونة.(172) ونبه مرتين في فصين متباعدين،(173) وهو يتحدث عن نونية الشاعر الإسلامي النظار

165) الفصوص ص: 142 ب.
166) الفصوص ص: 138 ب.
167) الفصوص ص: 142ب.
168) الفصوص ص: 153ب.
169) الفصوص ص: 155أ.
170) الفصوص ص: 134 ب.
171) الفصوص ص: انظر مثلا الفصوص 158أ.
172) وقد أثبتها في الفص منونة، الفصوص ص: 155أ.
173) الفصوص ص: 116 ب ـ 50 ب.



الفقعسي المطولة، إلى أن هـذه الأرجوزة متفردة (174) دون باقي المنظومات العربية بوزنها وقـافيتها؛ ويبدو أنه كان متأكدا من أن العـرب لم تقل على هذا الـوزن إلا هذه الأرجـوزة المقصدة. وقـد حاولت أن أعثر فيما نظمه الشعـراء، حتى تاريخ إملاء الفصوص، على مثيل لهـذه الأرجوزة فلم أفلـح. ويظل أنفس هذه الفصـوص العروضيـة الفص الـذي بناه صاعـد على كتاب كـامل، كـان يعد حسب مـا أعلم، من الكتب المفقودة، هـذا الأثر النفيس هـو كتاب القـوافي للمـازني، الـذي ذكـره ابـن النـديم،(175) والقفطـي،(176) والسيوطي.(177) وتبدو أهميـة هذا الكتـاب النفيس الذي يصل إلى أيـدينا اليـوم من خـلال كتاب الفصـوص، بـالإضـافة إلى قيمتـه العلمية، في كون صاعد قد نقله من خط المبرد، الذي نقله من خط مؤلفه المازني؛ وفي هذا ما يجعلنا نطمئن إلى أن الكتاب قد وصل إلى صاعـد محققا، وإلى أن احتمـال وقوع التحريف فيـه سيكون مرتبطا بالتحريف الذي وقع في نسخ كتاب الفصوص نفسه: «قال صاعد... باسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب القوافي وعللها... تم الكتاب. هذا ما نقلته من خط المبرد وكتبه من خط المازني».(178)

هـذه الإشـارات القيمة رغم قلتهـا، جعلت فصـوص العـروض والقوافي في كتابه بالغة الأهمية.

ع) فصوص المعارف العربية الجاهلية :

تعد كثير من الأخبـار والأقوال والأشعار التي وردت فـي كتاب الفصوص، صورة للثقافـة العربية الجاهلية؛ فما نقلـه صاعد مثلا

---

174) الفصوص ص: 116ب.

175) الفهرست ص: 91.

176) إنباه الرواة 1/282.

177) بغية الوعاة 1/465.

178) الفصوص من ص: 145 ب إلى ص : 152أ.



عن الإبل، والنخل، وأصنام العرب، يعد جزءاً من هذه الثقافة. إلا أن أهم شاهد على ما حصله صاعد من هذه الثقافة، كان الفص الذي بناه كله رغم طوله على ذكر أنساب العرب. وتجلت أهمية هذا الفص في تتبع اختلاف العلماء في بعض الأنساب، والمقابلة بين ما ورد عند النسابين العرب، وما ورد عند أهل الكتاب؛ كما تجلت في صياغة شجرة نسب واحد، تجمع بين المصدر العربي والمصدر الكتابي، وهي صياغة تسهل على الباحث ربط الأعلام بأصحابها وإن تعددت الأسماء، لنفس المسمى من آباء العرب.(179) ولم تقف فائدة هذا الفص عند ذكر أنساب العرب مقابلة، بل تجاوزت ذلك إلى تفسير أسماء بعض آباء العرب، بربطها بعدة حوادث قديمة مسترجعة من تاريخ الثقافة العربية القديم. وكانت خاتمة هذا الفص القيم تعريفا بالبناء الصوري الذي نظم العلاقات الاجتماعية بين العرب عبر تاريخهم الطويل: «والعرب كلها يجمعها جِذْمَانِ...».(180)

نخلص من هذا التعريف المقتضب بالبناء العلمي في كتاب الفصوص، إلى أن الكتاب كان صورة مكتملة لأدب المزاوجة بين الفائدة والمتعة، الذي مكن العلماء وكبار الحكام في القرنين الثالث والرابع من أن يجعلوا ما كان مجالس درس مملة، مجالس أنس ممتعة.

6) مصادر الفصوص :

حدد صاعد في خطبة الكتاب طبيعة المصادر المتنوعة للمادة العلمية التي ضمنها كتابه. ولتسهيل تعرُّف هذه المصادر، من حيث كونها منطلقا منهجيا للتأليف، لا من حيث كونها وحدات

---

179) انظر الفص بالجملة من الفصوص 94ب إلى 97أ.

180) انظر الفص بالجملة من الفصوص 97أ.



متفرقة قابلة للإحصاء، نقسم هذه المصادر إلى قسمين: المصادر الوسيطة، ثم المصادر الأصول.

أ) المصادر الوسيطة :

وأقصد بها المصادر التي استطاع صاعد من خلالها أن يصل إلى المصادر الأصول؛ وكان الغالب على مثل هذه المصادر التي توسل بها العلماء إلى مادتهم العلمية أن تكون شفوية، لتقدم السماع على النقل؛ إلا أن صاعدا جعل من النقل من الصحف أو الوجادات ـ خلافا لما كان شائعا ـ مصدرا قويا آخر، ينافس أسانيده السماعية. وكان صاعد يذكر القارئ بأنه ينقل من المخطوط، كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وهذا ما يلزمنا بدراسة النقل من الخطوط في كتابه، باعتباره مصدرا وسيطا، يماثل من حيث القوة الرواية الشفوية، فهو نفسه يقول: «ولم أضمن كتابي إلا ما نقلته من خط منسوب، أو تلقيته من في عالم...».(181) ولتقديم صاعد النقل من الخطوط في قولته السابقة على السماع من الشيوخ، نعرف بنقوله المخطوطة، قبل التعريف بأسانيده المسموعة.

I ـ النقل من خطوط العلماء :

يدافع صاعد عن القيمة العلمية للنقل من الكتب المخطوطة الموثقة، من خلال تفريقه ضمنيا، بين ما ينقل من خط منسوب إلى عالم مشهور، وما ينقل من خطوط النساخ والوراقين. وإذا كان عدد العلماء والشيوخ الذين يُروى عنهم عددا قابلا للحصر زمانا ومكانا، فإن عدد المخطوطات التي يمكن أن ينقل منها من يجيز النقل من الصحف يكون غير محصور، لذا وجدنا صاعدا في

181) الفصوص ص: 2أ.



أول كتابه يعرف بالمخطوطات التي سينقل عنها مادة كتابه؛ وأهم ما وصف بـه هذه المخطوطات، أنهـا نادرة عزيزة، وتعـود ندرتها إلى أنها كانت مما استأثر بـه كبار العلماء لأنفسهم، أو خصوا بها كبار الحكام، فخطوها بأيديهم. ولندرة هذه المخطوطات ونفاستها، ظلت محفـوظـة في خـزائن الخلفـاء، حتى نهبت خـزانـة الخليفـة العباسي المقتدر، فخرجت لتحفظ بعـد ذلك مع مخطوطات نفيسة أخرى، في خزانة الوزير عبد العـزيز بن يوسف الذي ولى صاعدا شؤون هـذه الخزانة، بعد أن أعجـب بعلمه. ويبدو أن هذا الـوزير كان ينفق بسخـاء ليقتـني ـ مستعينـا بصاعـد ـ القاضي الكـتب التي خـطت بأيـدي كبار العلماء، فـإلى هذه الخزانـة نقلت نفائس كتب خـزانـة القـاضي أبي الحسـن محمـد بن صـالح الهـاشمي المعروف بابن أم شيبان المتوفى سنة 369هـ، كما يظهر من قول صاعد نفسـه: «ووجدت في الكتب التي نقلتها من خـزانة القاضي أبي الحسن... رحمه الله، إلى خزانة الـوزير كتابا بخط ابن المعتز كتبـه إلى أبـي العبـاس ثعلب... ثم وجـدت بعـد ذلك بخط ثعلب تفسيـر القصيـدة فنقلتـه وأضفتـه إلى مـا نقلتـه من خط ابن المعتز...».(182) فخزانـة الوزير ابن يوسف كـانت المصدر الخطي الأول لكل الكتب التي نقل منها صـاعد بخطه مـا يزيد على ثـلاثة آلاف ورقة كما يذكر هو نفسه، محصلا بذلك معارف موثقة نادرة لم تكن ميسرة لغيره.(183) ولنفاسة ما نقله من الخطوط المنسوبة إلى هؤلاء العلماء الكبـار، اعتبر صاعد فقدان كتبـه ـ في الحادثـة التي نـشـبـت بـيـن الـوزيـر وصاحـب بغـداد ـ مصـيـبـة أصابته.(184)

182) الفصوص ص: 97أ ـ 97ب.

183) الفصوص ص: 2أ.

184) الفصوص ص: 2أ. «ورُزئت كُتبي في الحادثة...».



ورغم اعتماده في إملاء فصوصه وفي تدريسه على ما حفظه، مما نقله من هذه الخطوط، نجده ينبه في فصوص كثيرة إلى العالم صاحب الخط، وكأنه ينظر إلى هذا الخط وهو يملي فصوصه.

ومن مشهوري علماء العربية الذين نقل صاعد من خطوطهم، أذكر الأقرع(185) وراق ابن طاهر، وأبا عمرو الشيباني،(186) والأصمعي،(187) وإسحاق الموصلي،(188) والمفضل بن سلمة،(189) والطوسي،(190) وابن السكيت،(191) وثعلبا،(192) واليزيدي،(193) وأبا موسى الحامض،(194) والبحتري،(195) والمدائني،(196) وابن المعتز،(197) والباهلي،(198) والفراء،(199) وسيبويه،(200) والأخفش،(201) والمبرد،(202) وأبا بكر بن الأنباري،(203) وابن

185) الفصوص ص: 317 وغيرها 72 أ.
186) الفصوص ص: 29أ.
187) الفصوص ص: 30أ.
188) الفصوص ص: 35أ.
189) الفصوص ص: 40ب.
190) الفصوص ص: 53ب.
191) الفصوص ص: 54أ.
192) الفصوص ص: 54ب.
193) الفصوص ص: 63ب.
194) الفصوص ص: 64أ.
195) الفصوص ص: 66ب.
196) الفصوص ص: 74أ.
197) الفصوص ص: 77ب.
198) الفصوص ص: 81أ.
199) الفصوص ص: 51ب.
200) الفصوص ص: 51ب.
201) الفصوص ص: 51ب.
202) الفصوص ص: 51ب.
203) الفصوص ص: 51ب.



دريد،(204) وقطربـا،(205) والأثـرم،(206) والسكـري،(207) وأبـا زيـد الأنصاري.(208)

وعندما نقارن النقل من خطوط أمثال هؤلاء المشاهير، بأسانيد الـروايـة الشفويـة، يتبين أن النقل من خـط كخط سيبويـه مثـلا بالنسبة لعـالم في القرن الرابع، يصبح أقوى من الروايـة الشفوية الممتدة عبر سلسلة سند طويلة من القرن الثاني إلى القرن الرابع؛ فصاعـد عندما ينقل من خط سيبويـه عيانا، يلغي الـزمن الفاصل بينه وبين صاحب الكتاب، ليصبح واحدا من التلاميذ الذين تتلمذوا لسيبـويـه، فخط العـالم كإمـلائه أو أقـوى، لأن المخطـوط ينقح ويراجع. وعنـدما ينقل صاعـد مثلا من خط المبرد كتـاب القوافي للمازني، الذي نقله المبـرد من خط المازني نفسه، تصبح سلسلة السند قصيرة نظريا (المازني<—المبرد<—صاعد)، رغم أن صاعدا لم يـدرك المبرد ولا أمثـاله من العلمـاء. ولعل إحساســه بالقيمـة العلمية لما نقلـه من خطوط هؤلاء العلماء الكبـار، كان وراء تعبيره غيـر المقصـود عن الحسـرة التي مـلأت قلبـه بعد فقـدانـه هـذه النقول.(209) وإذا كـان قسم كبيـر مـن كتـاب الفصـوص، يعتبـر صياغة متأخرة لما علـق بالذاكـرة مـن هـذه النـقـول، فإن مـن المـمـكـن أن نتصـور الأثـر العلمي الـــذي كـان صاعـد سيـتـركه بالأنـدلس، لـو قـدر له أن يحمـل معـــه كتبـه إلى الأنـدلس، كـما فـعل القالي.

---

204) الفصوص ص: 51ب.

205) الفصوص ص: 51ب.

206) الفصوص ص: 89ب.

207) الفصوص ص: 86أ.

208) الفصوص 124أ.

209) انظر الفصوص ص: 51ب.



II ـ الرواية الشفوية :

تتخذ أسانيد صاعد في الفصوص اتجاهين اثنين:

الأول: أفقي ينتقل السند معه في نفس العصر، عبر مجموعة من العلماء الذين عاصروه.

والثاني: عمودي ينتقل فيه الإسناد عبر التلاميذ الشيوخ، إلى أن يتصل بعلماء الحقبة الأولى. ورغم أن النوع الثاني كان هو الإسناد العلمي الذي يشهد للعالم بسعة العلم، فإن قصد صاعد إلى أن يجمع في كتابه بين أخبار معاصريه من الأدباء وأشعارهم وأخبار السابقين، فرض عليه أن يجعل سلسلة سنده تمتد في المكان لا الزمان امتدادا أفقيا. وقد تجمع بعض أسانيده بين الامتداد الأفقي والامتداد العمودي.

وأكثر رواياته عن شيخيه السيرافي والفارسي، ثم عن الرماني وابن شاذان، وابن مهدي، وابن المرزبان، والقاضي التنوخي، والخالديين، وشرحبيل، وبعض من وصفهم بفصحاء العرب، أو بعض أصحابنا ممن لم يسمهم.

أما العلماء الذين يرد ذكر أسمائهم في أسانيده، فهم نفس العلماء الذين يسند إليهم معظم علماء القرن الرابع، مع بعض الغلبة لأسانيد ابن السراج، والزجاج، وابن دريد، والمبرد، وثعلب، والأخفش، والزبير بن بكار، والسكن بن سعيد، والأصمعي، وابن الكلبي، والمدائني. ويغلب على هذه الأسانيد نفسها أسانيد شيخيه أبي سعيد وأبي علي المشهورة. ونجتزئ من بعض الفصوص قوله يروي عن شيخه أبي علي الفارسي: «وحدثنا أبو علي قال: أخبرنا أبو إسحاق الزجاج قال: أخبرنا المبرد، عن المازني قال: حدثني الأخفش قال: كان أمير البصرة...».(210)

---

210) الفصوص ص: 123ب.



وقد ورد نفس الخبر في أمالي الزجاجي(211) بنفس السند، أي برواية الزجاجي، عن الزجاج، عن المبرد، عن المازني، عن الأخفش. وقد يميل صاعد في بعض الفصوص إلى اختصار السند، برفع الخبر، أو بعبارة «روي» تساهلا؛ ولم يكن التساهل في الإسناد غريبا عن علماء القرن الرابع. ولعل صاعدا، في دخيلته، كان أميل إلى توثيقه الخبر بنسبة الخط إلى صاحبه، منه إلى توثيقه بالإسناد الطويل، لكن بيئة الأندلس العلمية فرضت عليه أن يلتزم هذه الأسانيد المطولة في كثير من فصوصه توثيقا لما يورده من شعر وأخبار.

والملاحظ أن أسانيد بعض الفصوص تبدو مضطربة، إلا أن هذا الاضطراب في كثير منها ظاهري؛ ففي الفص (992) مثلا يستهل الإسناد كما يلي: «قال لي المفضل الضبي...»،(212) والعبارة توهم أن المتكلم هو صاعد، والاضطراب يبدو في روايته عن المفضل الضبي، إلا أن ربط هذا الفص بالفص (480) قبله، الذي ينقل فيه صاعد من خط أبي زيد الأنصاري،(213) يكشف عن كون المتحدث في الفص (492) أبا زيد الأنصاري لا صاعدا. وفي الفص (424) نجد: «أنشدنا ثعلب لبعض بني مرة...»(214) وهي عبارة توهم أيضا أن صاعدا يروي عن ثعلب؛ ويظل هذا الاضطراب قائما إذا ما حاولنا ربط هذا الفص بالفصوص السابقة، فالفص السابق له منفصل عنه انفصالا تاما إسنادا وموضوعا، لكن الانتقال إلى الفص اللاحق يضعنا أمام قول صاعد: «وأنشدنا أبو سعيد قال: أنشدنا ابن مقسم قال: «أنشدنا ثعلب، ولم يذكر

---

211) أمالي الزجاجي ص: 296.

212) الفصوص ص: 129أ.

213) الفصوص ص: 128ب.

214) الفصوص ص: 124ب.



قائله...»(215) وورود عبارة أنشدنا ثعلب التي وردت في الفص السابق تجعلنا نفترض لرفع الاضطراب، أن خللا قد حدث في ترتيب هذين الفصين، مما جعل واو العطف في إسناد الفص (425) تنتقل إلى أول الفص (426)، بينما الصحيح افتراض ورودها في الفص (425)، لا في الفص الذي وضع بعده خطأ.

ونعترف رغم هذا التخريج بأن الإسناد في بعض هذه الفصوص يظل مضطربا غير قابل لأن يربط بما قبله وما بعده من الفصوص والأسانيد، لانفصاله عنها انفصالا كاملا، ومن ذلك الفص (749) الذي يُستهل بقول المتحدث: «أنشدني يونس وابن الأعرابي جميعا لبعض العرب...»(216) والعبارة توهم أن صاعدا يروي عن يونس وابن الأعرابي، ولا يمكن دفع هذا الوهم إلا بحذف ضمير المتكلم من «أنشدني» لتصبح العبارة: «أنشد يونس وابن الأعرابي جميعا» — ولها نظائر في الفصوص — أو بافتراض عبارة سند ساقطة تصل بين صاعد ويونس وابن الأعرابي. وقد آثرنا حفاظا على أصل الفص وترتيبه ألا نتصرف في مثل هذه الفصوص المضطربة إسنادا، مكتفين بالتنبيه إلى اضطرابه أحيانا.

ب) المصادر الأصول :

ونقصد بها المادة العلمية التي بنيت عليها جل فصوص الكتاب؛ ويمكن أن نقسم هذه المصادر إلى:

I ـ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

II ـ مصادر أدبية مسموعة.

III ـ مصادر أدبية مخطوطة.

ونكتفي بالحديث عن القسم الثاني والثالث.

---

215) الفصوص ص: 124 ب.

216) الفصوص ص: 155 ب.



أما المصادر المسموعة فهي كل المرويات التي كان صاعد يرويها عن شيوخه وأصحابه، مسندة أو مرفوعة إلى أصحابها، أو إلى من رواها من العلماء. وتندرج جل المرويات الشعرية القديمة والأخبار التي نقلها، تحت هذا النوع المسموع؛ ويلحق بها كل ما سمعه أو رواه من أشعار معاصريه من الشعراء والأدباء، وأخبارهم؛ وتعد مرويات الأصمعي، وابن الكلبي، والمدائني، والسكن بن سعيد، نموذجا لهذه المصادر.

أما المصادر المخطوطة فيبدو اهتمام صاعد بها في فصوصه كبيرا - كما تبين - وهو اهتمام مرتبط بعنايته بخطوط العلماء المنسوبة، وإكثاره النقل منها. وقد أدت هذه العناية بالكتب المخطوطة، إلى جعل الفصوص خزانة حفظت فيها كتب أو أجزاء من كتب غير قليلة، بعضها يعد مفقودا. ومن الكتب المخطوطة التي نقل منها صاعد: شعر مُرَادٍ وجُعْفِيٍّ(217) بخط أبي موسى الحامض، وأشعار بني ضبة بخط عمرو بن أبي عمرو الشيباني برواية «أبي عمرو وابنه وتأليفه»،(218) وقصائد العشر الدبيقية بخط الأقرع،(219) ومختارات من كتاب الأنساب بخط أبي رؤبة،(220) وقسم من نوادر أبي زيد بخطه،(221) واللِّبَأُ واللَّبَنُ له بخطه(222) أيضا، وأشعار مزينة كذلك وبخطه(223) وكتاب القوافي للمازني بخط المبرد نقلا من خط المؤلف؛(224) فضلا عما لم

---

217) الفصوص ص: 9ب.

218) الفصوص ص: 16أ.

219) الفصوص ص: 82ب.

220) الفصوص ص: 94ب.

221) الفصوص ص: 124أ.

222) الفصوص ص: 126ب.

223) الفصوص ص: 128ب.

224) الفصوص ص: 145ب.



يذكره من مصنفات العلماء الذين ذكر صاعد أنه نقل من خطوطهم، في خطبة الكتاب وغيرها من الفصوص.

وقد كشف لنا التحقيق عن عدة مصادر أخرى أفاد منها صاعد، مخطوطة أو مروية، دون ذكر أسمائها، أو مكتفيا بالإشارة المقتضبة إليها. ولعل من أهم هذه المصادر، كتب التفسير، ومعاني القرآن بصفة خاصة، وكتاب الخيل لأبي عبيدة، وكتاب النخلة للسجستاني، وحماسة أبي تمام، والغريب المصنف لأبي عبيد، وكتاب الوحوش للنضر بن شميل. ولم يكن سكوته عن ذكر بعض هذه الكتب تعمية أو تقصيرا، فقد كان في تعريفه بالمصادر التي رواها ونقل من خطوطها معرفا بأهم مصادر كتابه.(225)

ثالثا : الشخصية العلمية لصاعد من خلال الفصوص :

قد تبين من خلال تتبع المعارف التي أمتع بها صاعد المنصور، وأفاد بها تلامذته الأندلسيين، أن هذه المعارف كانت تمتح من مشارب متعددة متنوعة بين الجد والهزل، والصرامة والتساهل، لتكون شاهدا على غزارة العلوم التي حصلها المؤلف بالمشرق، ومعبرة عن الطبع المرح الذي كان صاعد يصدر عنه، وهو يملي كتابه. وإذ كانت شخصية صاعد العلمية نتاجا لعدة عناصر ثقافية ونفسية، تكاملت لترسم صورة صاعد العالم، فسنحاول أن نتعرف بعض أوجه هذه الشخصية، معتمدين على كتاب الفصوص نفسه، لا على ما حكي عنه في المصادر، لأن هذا الكتاب كان صياغة لغوية لحياة صاعد بأبعادها الإنسانية والثقافية.

---

225) انظر تفصيل ذلك في الفصوص ص: 12.



1) العالم المفسر :

تـدل الآيات الكـريمة التي بنـى عليها صـاعد بعض فصـوص كتابه، على معرفة بعلم التفسير؛ إلا أن اهتمـامه بالمسائل النحوية والصرفية في هـذه الآيات، وتجنبه الخوض في القضايـا العقدية، يفيد أنـه كان يتحـرج من أن يكون علمه بـاللغة، سببـا في ادعاء معرفة مراد الله، وقد أبدى هـذا التحرج في قوله: «قول الله تعالى ذكره: وجعلنا بينهم موبقا، اللـه أعلم بمراده. إلا أن أبا عبيدة قال: موبقا أي موعدا... وقال مجـاهد... وقال الضحـاك... وقال الفراء... وقـال صاعـد: كـان الأصمعي لا يفسر القـرآن على علمـه باللغـة تحرجا، لأن مراد الله تعالى لا يعرفـه أحد، إلا من عرفه الله وبينه لـه. ولـو جاز الكـلام فيـه على مقتضى اللغـة لقلنا: مـوبقـا: أي بعدا».(226)

ويبدو أن صـاعدا لم يكن يميل إلى التفـرد بالرأي عنـد تفسير القـرآن ـ خـلافا لما نجـده في تفسيـره للأشعار ـ إذا كـان رأيه مخالفا لما ذهب إليه القراء. ويظهـر ذلك واضحا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إنما حرم عليكم الميتةَ والـدمَ ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله**﴾ الآية: «النصب فـي «الميتة» وما عطف عليهـا، من القراءة الجيدة، لأنه مفعـول به. ودخلت «ما» تمنع «إن» من العمل، ولأنْ يليها الفعل. ويجوز: «إنما حرم عليكم الميتةُ» بالرفع، على أن «مـا» بمعنى الـذي، فيكـون معنـاه أن الـذي حـرم عليكم الميتـة. والمختار أن تكـون «ما» تمنع من العمل، ويكون المعنى: مـا حرم عليكم إلا الميتة والـدم ولحم الخنزير، لأن «إنمـا» تأتي إثباتـا لما يذكـر بعدهـا ونفيا لما سـواه... والاختيار ما عليـه جماعـة القراء، لاتبـاع السنة، وصحتـه في المعنى، ولأن الإجمـاع لا يقع إلا على

226) الفصوص ص: 152ب.



الصحيح، لقول النبي ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلال».(227) كما يقدم صاعد رأي القراء، يأخذ برأي الفقهاء؛(228) لكن هذا التقدير لرأي المفسر المقرئ والفقيه، يختفي عندما يكون التفسير لعالم لغوي يراه صاعد مخطئا، كما يتضح من قوله في تفسير نفس الآية: «وقوله تعالى: «والدم»، فالدم اسم ناقص مثل يد أصلهما يدي ودمي... ووهم بعض من لا أحب ذكره من أهل اللغة، فذكر أن الدم من أسماء الخمر، فقيل له: ما الشاهد عليه؟ فما وجدناه في شيء من كتب اللغة؟ فقال: قول الشاعر: (طويل)

خَلَطْنا دَماً مِنْ كَرْمَةٍ بِدِمَائِنَا فَأَظْهَرَ فِي الْأَلْوَانِ مِنَّا الدَّمَ الدَّمُ

فسمى الخمر دما. هذا غلط من القول، لأنه لم يسمه دما في آخر البيت مطلقا، إلا على ما أراد به في صدر البيت، وشبه ما يخرج من العنب في لونه وخروجه عند الأعشار بالدم على التمثيل. وما جرى على التمثيل لم يكن اسما لازما كقولك: هذا العنب عسل... فأرَمَّ عند ذلك مطرقا، ولم يُفْضِ ببنت شفة».(229)

وإذ كان الغالب على صاعد، في تفسيره ـ كما ذكرت ـ الميل إلى تناول المسائل النحوية والصرفية في الآيات، دون الخوض في العقائد والأحكام، فإن الاستشهاد ببعض القراءات الشاذة كان يتكرر في كتابه. والراجح أن استشهاده بمثل قراءة ابن مسعود، يعود إلى أنه كان يعتبر هذه القراءة متنا لغويا صالحا لبحث المسائل النحوية والصرفية، وإن لم يعد قرآنا يتعبد به. فالفصاحة لا تسقط عن قراءة ابن مسعود، رغم أنها لا تعتبر قرآنا معجزا، لأن ابن مسعود عاش في عصر السليقة اللغوية، كباقي من يستشهد بكلامهم ولغتهم من العرب الفصحاء.

227) الفصوص ص: 14ب.

228) انظر الفصوص ص: 58 ب حيث يفسر قوله تعالى: ﴿**والذين يظاهرون من نسائهم**﴾ الآية.

229) الفصوص ص: 14ب ـ 15أ.



2) العالم المحدث :

وصف الحافظ ابن حجر صاعدا بأنه كان من الرواة[230] للحديث. وقد ذكرت في حديثي عن البناء العلمي للفصوص أن صاعدا اختار بعض الأحاديث لشرح ألفاظها، أو تناول بعض ما تتضمنه من مسائل لغوية، واختار أحاديث أخرى لمضمونها ومعناها، دون شرحها. إلا أن ما يثير الانتباه عند تتبع الأحاديث النبوية الشريفة في كتابه، كون جل هذه الأحاديث يرد في الصحاح، وكون الإسناد في معظمها مرفوعا. وهذا الأسلوب في اختيار الأحاديث يبدو مخالفا لمنهج علماء الحديث، والعلماء المتشددين المتأثرين بهم في إثبات الأحاديث النبوية. فهل يمكن أن نرجع ذلك إلى ضعف صاعد في علوم الحديث؟ إن ابن حجر قد وصفه كما ذكرت بأنه كان من رواة الحديث النبوي؛ وصدور هذا الوصف عن حافظ كابن حجر، يجيز لنا أن نرفع صاعدا إلى درجة المحدثين. لكن هذا الحكم، وإن صح بالنسبة لصاعد المحدث، يظل منافيا للمنهج الذي سلكه في اختيار الأحاديث وإثباتها في الفصوص. وفي هذا التعارض بين ما قاله ابن حجر وما ورد في الفصوص، ما يلزمنا بتأمل قولة ابن حجر نفسها. إن ابن حجر الذي جعله من الرواة للحديث، نبه أيضا إلى أنه من الملفقين؛ والتلفيق إيهام بالصحة. وفي القدرة على التلفيق بعض العلم، فالإيهام بصحة حديث ما لا يتم إلا إذا كان الملفق ملما بالشروط التي تجعل الحديث صحيحا، وإن افتقر الملفق إلى الحفظ. وقد كشف ابن حجر عن تلفيق صاعد، من خلال نقده لمتن الخبر الذي قص فيه صاعد قصة الطفيلي وجاره، وكان موضوع النقد الحديث الذي استشهد به الجار على فسق كل من يأتي المآدب دون أن يدعى

230) لسان الميزان 3/160 ـ 161.



إليـــهـا.(231) وقـد تجلى تجريحـه لصاعـد، في قولـه متهما إيـاه بالتلفيق: «... ومن عجائب صاعد التي يستـدل بها على مجازفاته، أنـه قال في هـذا الكتاب: حـدثنا أبـو علي التنوخي... فلمـا تمكن الناس ورفع عليهم الطعـام، قلت رافعا صـوتي: حدثنـا فلان، عن فلان، عن نافع، عن ابن عمر رضـي اللـه عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: من حضـر طعامـا لم يدع إليه مشى فـاسقا، وأكل حـراما... والحكايـة المذكورة معـروفة لنصر بن علي الجهضمي، ذكـر هذا الخطيب وغيره بـالسند الصحيح إليه، والحـديث عنده: درست عن ابن زياد، عن أبان بن طارق. ثم قال: ما استحيى صاعد أن ينسب الكلام المـروي عن علي بن الجعد في حق ابن عمـر إلى الطفيلي. ومن تدبـر الحكاية عرف أنهـا ملفقة...»،(232) وتجريح ابـن حجر لصاعد، لا ينفي عنه صفة العلم بـالحديث. فالحجة التي احتج بها صـاعـد على لسـان الطفيلي، لا تصـــدر إلا عن متمكن من علـوم الحديث، وعلم السند بصفة خاصة. لذا وجدنا ابن حجر يجمع في ميـزانه بين وصف صـاعـد بكونـه من الـرواة للحـديث، واتهامـه بالتلفيق؛ وهذه النتيجة تجعلنا نستبعـد أن يكون خلو الصحاح من معظم الأحاديث التي أثبتها صاعد في الفصـوص، وخلو أسانيدها من العنعنة، شـاهدا على ضعفه فـي علوم الحديث. فـالمنهج الذي سلكه صاعد في اختيار الأحـاديث وإسنادها، يدل على أنه لم يكن متشددا في رواية الحديث النبوي، ولم يكن هذا التساهل غريبا عن بعض العلماء والمحدثين في القرن الرابع. فالعالم المحدث أبو بكر القطيعي شيخ صاعد في الحديـث، الذي روى عنه الدارقطني وابن شاهين، ووصفه ابن الجوزي بأنه كان كثير الحديث ثقة،(233) اتهم

231) الفصوص ص: 152أ.

232) لسان الميزان 3/160 ـ 163.

233) المنتظم 7/92.



بالتساهل: «... قال المصنف رحمه الله: لما غرقت القطيعة بالماء الأسود، غرق بعض كتبه، فاستحدث عوضها. فتكلم فيه بعضهم وقال: كتب من كتاب ليس فيه سماعه؛ ومثل هذا لا يطعن به عليه، لأنه لا يجوز أن تكون تلك الكتب قد قرئت عليه وعورض بها أصله. وقد روى عنه الأئمة كالدارقطني، وابن شاهين... ولم يمتنع أحد من الرواية عنه، ولا ترك الاحتجاج به. أخبرنا القزاز، أخبرنا الخطيب قال: لما اجتمعت بأبي عبد الله الحاكم، ذكرت ابن مالك ولَيَّنْتُه، فأنكر علي وقال: ذلك شيخي، وحسَّن حاله...».(234) وشيخ صاعد الثاني أبو بكر بن شاذان كان ممن حدث بالمسانيد، «وما كان يحدث بها من قبل ذلك».(235) وشيخ صاعد الثالث الفقيه الحنبلي المحدث ابن بطة العكبري الذي وصف بالورع والصلاح، وعرف بمؤلفاته القيمة في الحديث والفقه كان ممن جرحهم الخطيب البغدادي: «... قال المصنف: وقد تعصب له الخطيب بعد أن نقل عن مشايخه الأكابر مدحه، فغمزه بأشياء منها أنه قال: كتب إلي أبو ذر عبد الرحمن بن أحمد الهروي من مكة، يذكر أنه سمع نصرا الأندلسي يقول: خرجنا إلى عكبرا، فكتبت عن ابن بطة كتاب السنن لرجاء بن مرجئ، عن حفص بن عمر الأردبيلي، عن رجاء؛ فأخبرت الدارقطني فقال: هذا محال، دخل رجاء بغداد سنة أربعين، ودخل حفص سنة خمسين ومائتين، فكيف سمع منه؟ قال الخطيب: وحدثني عبد الواحد الأسدي، أنه لما أنكر الدارقطني هذا، تتبع ابن بطة النسخ التي كتبت عنه، وغير الرواية، وجعلها عن أبي الراجيان، عن فتح بن شخرف، عن رجاء...».(236) فإذا كان هذا شأن من تفرغ للتحديث، فكيف بصاعد الذي تفرغ لرواية

234) المنتظم 7/ 93.

235) المنتظم 7/ 134.

236) المنتظم 7/ 194.



الشعر واللغة؟ ولعل التفسير المقبول لتجنب صاعد إثبات الأحاديث المروية في الصحاح والأسانيد المتصلة، أنه كان يروي من حفظه أمام علماء أندلسيين عرفوا بالتشدد. والتساهل في أحاديث وأسانيد لم ترد في الصحاح، أهون من التساهل أو الخطأ في رواية ما صححه البخاري أو مسلم مثلا، مادامت الغاية من إيراد هذه الأحاديث في الفصوص هي الاستفادة من لغاتها أو معانيها، لا استنباط الأحكام الشرعية منها.

ولهذا التحرج من التساهل والخطأ في ما صح من حديث الرسول ﷺ، آثر صاعد أن يحدث بأحاديث ورد جلها في غير الصحاح من كتب الحديث.

وفي إشارة ابن حجر إلى أن صاعدا كان يتساهل[237] ويروي من حفظه، ما يقوي التفسير الذي ذهبنا إليه؛ لكن هذا التساهل لا يُحمَل على الكذب، فابن حجر كان صريحا عندما قال عنه: هو من الرواة للحديث النبوي، وإنما كان يُتهم في اللغة..[238]

3) العالم الشارح :

يشترك كثير من العلماء في معرفة الغريب، والقدرة على شرح المفردات المعجمية، لكنهم يتفاوتون في القدرة على الكشف عن معاني الشعر المركبة، وفك المعمَّى من أبيات المعاني. ويبدو من خلال القصائد والمقطعات والأبيات التي شرحها صاعد أنه كان خبيرا بمعرفة معاني الأشعار، ومقاصد الشعراء؛ والقسم الكبير الذي خصصه في آخر الكتاب لشرح أبيات المعاني يؤكد هذه الخبرة.

وإذا كان صاعد يستفيد كباقي الشراح من شروح سابقيه، فإن القيمة العلمية لهذه الشروح لم تكن تمنعه من أن يأتي بشروحه

237) لسان الميزان 3/163.
238) لسان الميزان 3/160 ـ 161.



الخاصة، وإن خالفت شروح المتقدمين، إذا ما اطمأن إلى سلامة شرحه. ويظهر هذا مثلا في شرحه لقول الشاعر: (طويل)

إِذَا ظَعَنَ الْحَيُّ الْجَمِيعُ اجْتَنَبْتُهُمْ مَكَانَ النَّدِيمِ لِلنَّجِيِّ الْمُسَاعِفِ

«يقول: إذا ظعنوا اجتنبتهم مخافة أن يُفطَن بي، على أن اجتنابي إنما هو انحراف كقدر ما بين النديم ونديمه المساعف للمناجاة... وقال أبو عمرو في قوله اجتنبتُهم: أي صرت بِجَنْبِهِمْ، كما تقول: خاصرتُ الرجلَ: أي مَاشَيْتُه وخِصْرُه إلى خصري».(239)

وقد كثرت في كتابه الفصوص التي بنيت أصلا على شروح اجتهد فيها؛ وكان هذا الاجتهاد في الشرح مما رفع مكانته عند علماء الأندلس، وعند المنصور بن أبي عامر؛ إلا أنه مع اجتهاده في شرح الشعر، لم يكن يعبث بالرواية، فالرواية عنده أسبق، وإن كان الشرح الذي خالفها سليما. ومن الفصوص التي برهن بها صاعد على أن إخلال الرواية ظاهرا، بالمعنى المفهوم، لا يعفي الشارح من البحث عن المعنى المناسب لرواية البيت، الفص 432 الذي نبّه فيه إلى صحة الرواية، بتنبيهه إلى صحة المعنى الخفي في شعر لمسكين الحنظلي سأله المنصور عن وجهه.(240) لكن تقديمه رواية الشعر على الشرح المقبول، - إذا خالفت الرواية الشرح - لم يكن ينسيه التنويه بالشرح الحسن، وإن لم يقدم على الرواية؛ ففي فصله في الخلاف الذي نشأ بين أبي علي الفارسي وتلميذه ابن حمود الزبيدي الأندلسي، لم يخف صاعد إعجابه بما ذهب إليه الزبيدي في شرح بعض الأشطر، رغم مخالفته للرواية الصحيحة التي رواها أبو علي الفارسي: «... فأَنِفَ الشيخ من اعتراضه عليه في إنشاده ونُكْرِهُ ذلك، ثم أقبل عليَّ فقال لي: ياأبا

239) الفصوص ص: 141ب.

240) الفصوص ص: 125أ.



العلاء، كيف تحفظ هذا؟ قلت: ما حفظته إلا كما أنشد الشيخ... فقال: الحمد لله ما كَذَبْنَا ولا كُذِّبْنَا، وهكذا سمعته من فَلْقِ في ابن دُرَيْدٍ قال صاعد: وهو صادق في ذلك، لم يَرْوِ أحدٌ إلا «ابن يزيد». غير أن كلام أبي محمد حَسَنٌ صحيحُ المعنى، لو أسْعَدَتْه الروايةُ.(241)

ولهذا الربط بين رواية الشعر وشرحه، كان صاعد يسلك في شروحه منهجا يتجلى في البدء بذكر روايات الشعر قبل البدء في الشرح: «... فقلت: نبتدئ بما في البيت من اختلاف الرواية، ثم نرجع إلى تفسيره ومعناه. روى ابن الأعرابي...».(242) وكان هذا الحصر لروايات الشعر الذي ينوي شرحه، أسلوبا يجنبه الدفاع غير المجدي عن شروحه في بيئة أندلسية، كان علماؤها يبالغون في التمسك بالرواية؛ فشرح الشعر لديهم لم يكن يقبل، إذا كان الشارح مفتقرا إلى الرواية التي تسعفه. وقد سجل لنا صاعد نفسه هذا التشدد، في فص ذكر فيه خبر دفاعه عن تفسيره لأحد أبيات الشماخ، معتمدا على إيراد الرواية التي تقوي تفسيره: «قال الأخفش: الحمامة: المرآة، وأنشد قول الشماخ: (بسيط)

تدني الحمامة منها وهي لاهية   من يانع الكرم قنوان العناقيد

يعني أنها تنظر في المرآة، فترى ما تدلى من شعرها على خدها، وشبه ما تدلى بعناقيد الكرم... فحضر من لم يعرف هذا المعنى فأنكره وقال: لم يقل هذا أحد، وإنما هو: (بسيط)

تدني الحمامة منها وهي لاهية   من يانع المرد قنوان العناقيد

وقبل هذا البيت: (بسيط)

---

241) الفصوص ص: 71أ.

242) الفصوص ص: 42أ ـ 42ب.



دَارُ الْفَتَاةِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَهَا   يَاظَبْيَةً عُطُلاً حَسَّانَةَ الْجِيدِ

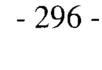
... تدني الحمامةُ منها، يعني أن الظبية تأتي إلى ساق شجرة فتَعْطُو بظِلْفَيْهَا، فتقع الحمامةُ على الشجرة، فتُدنِي الغصنَ منها. ومعنى تدني الحمامة: تُحرك الحمامةُ قنوانَ العناقيد، فتناله الظبية بظلفيها. قلت: لم أنكر ذلك، وهذا معنى آخر، ورواية أخرى؛ من ذهب إلى هذا المعنى روى: تدني الحمامةُ، بالضم، لأنها تدني إلى الظبية قنوان العناقيد، ويروى: من يانع الشرد... ومن ذهب إلى معنى الشعر، روى: تدني الحمامة منها وهي لاهية...

ترك الظبية وصفتها، ورجع إلى قوله (دارُ الفتاة التي كنا نقول لها...).

وتنظر في المرآة فترى ما تدلى من شعرها؛ وليس بين البيتين إلا بيت واحد، ولو طال الكلام وكثرت الأبيات لجاز أن يُرجَع إلى الصفة المتقدمة فيه وهي من قرب... فوقف كلامي موقف الريبة، إلى أن ظفرت بكتاب تضمن هذه الرواية وهذا المعنى، وأريته الموضع، وهو كتاب مجالس ثعلب، عن ابن الأعرابي، فأذعن له».(243)

لقد كان صاعد يدرك أن التميز عن الشراح القدامى بشروح لم تسمع، يعتبر تطاولا على هؤلاء الشراح، في زمن كان العلماء فيه يبرهنون على صحة شروحهم بنسبتها إلى من تقدم من كبار العلماء، لكنه كان يصر رغم ذلك ـ عندما يكون الشرح له ـ على تنبيه قارئ الفصوص إلى أن هذا الشرح له وليس لغيره، حتى عندما يكون الشارح المبعد عالما كالأصمعي: «وهذه قصيدة النظار الفقعسي التي نقلتها عن يد الأصمعي، ووعدتك بها في وسط الديوان وشرحها. قال: أنشدني عيسى بن عمر للنظار بن هاشم الفقعسي، وليس للعرب على وزنها وقافيتها قصيدة... لم

243) الفصوص ص: 156ب.



أجد بخطه من تفسيره إلا شيئا يسيرا، أذكره إذا شرحته إن شاء الله... وقوله (لِعُجْمِ أَمْثَالِ الْكُلَى) فلم ينون للوزن، هذا قول الأصمعي. وقال صاعد: ولو قال: «لِعُجْمٍ أَمْثَالَ الْكُلَى» فبيّن التنوين، وأدرج الألف، فتكون صورته في اللفظ «لِعُجْمِنَمْ» لكان صوابا خارجا من حد الضرورة».(244) إن نسبة هذا الشرح إلى أمثال الأصمعي من العلماء، قد يكون مما يضمن له النفاق والسيرورة في بيئة علمية متشددة كالأندلس، تجل شيوخ العلم من المتقدمين، لكن ثقة صاعد بعلمه ودراسته وقدرته على فك المعمى، جعلته يفضل التمييز بين شرحه، وشرح الأصمعي في هذا الفص. وفي هذا ما يؤكد أنه كان يثق في قدرته، وإن تأخر زمانه، على الإتيان بما لم تستطعه الأوائل. وقد نبه صاعد فعلا في أحد الفصوص، إلى أنه يشرح البيت الذي سكت كل العلماء عن شرحه: «قوله»: (طويل)

وَبِتْنَا وِسَادَانَا إِلَى عَلْجَانَةٍ وَحِقْفٍ تَهَادَاهُ الرِّيَاحُ تَهَادِيَا

قال صاعد: لم أجد أحدا تكلم فيه، وهو من أغمض ما في القصيدة، لأن الْعَلْجَانَ شوك، فيكف تَوَسَّدَا شوكا، حتى سألت أبا عمر النَّجْدِيَّ، بِزُبَالَةَ، فأخذ بيدي...».(245) وليس هذا الفخر المتحدي بسبقه إلى شرح بيت سحيم إلا دليلا على أنه كان يعلم من نفسه ما يجعله ندا لكبار الشراح.

4) الصرفي النحوي :

لن ننتظر ممن تتلمذ لأبي سعيد السيرافي مناظر ابن متى في فضل النحو على المنطق، ولأبي علي الفارسي صاحب الإيضاح، والتكملة، والبغداديات، والشيرازيات، أن يكون ذا بضاعة مزجاة في

244) الفصوص ص: 116 ب إلى 123أ.

245) الفصوص ص: 136أ والبيت من يائيته المشهورة.



النحـو والصـرف. وقـد تبين في مبحث سـابق،(246) مدى تنـوع المسـائل التي بحثها في كتـابه؛ ولم يكن صـاعد يكتفي في هـذه المباحث بترديد ما رواه عن شيوخه من آراء، فمثل هذا كان ميسرا لكل التـلاميذ، لكنه تجـاوز ذلك إلى الاجتهاد في بعـض المسائل، مـرجحا بعض الآراء، أو مخطئـا بعض الافتراضـات، أو مستغربـا بعض الاستعمـالات. وكثـر هـذا الاجتهـاد بصفـة ملحـوظـة في المباحث الصـرفية، ففي الفص (244) الـذي بناه على تبيين بنـاء «مُرَيْطَـاكَ» في قول عمر رضـي الله عنه لأبي محـذورة: (كِدْتَ أَنْ تَشُقَّ مُرَيْطَـاكَ) قابل صـاعد بين آراء أبي عبيـدة، وخلف الأحمر، والأصمعي، في المسألـة، ثم رجح رأي الأصمعي وأبـي عبيـدة، محتجا بآرائه هو.(247)

ولم يتحـرج في فص آخر من تخطئـة ثعلب، رغم إجـلاله لـه، عندما بنى تفسيره لقـولهم: «إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ» على جعل هُنْ من فعَل يفعُل بضم عين المضارع: «وقال ثعلب في كتاب الفصيح: إذا عـز أخوك فهن، معنـاه إذا تعظم أخوك شـامخا عليك فـالتزم لـه الهوان؛ وهذا خطأ من ثعلب، وإنما الكلام إذا عز أخوك فهن بكسر الهاء، معنـاه: إذا اشتد عليك فهِـن له... أي دَارِهِ، وهذا مـن مكارم الأخلاق».(248) وقد يميل إلى تخطئـة الرأي، فيعوزه الـدليل، فيعدل إلى استغرابه، كقـوله في أحد الفصوص مستغـربا رأي الكسائي: «وهذا غريب من حكاية الكسائي».(249)

ويبـدو من خـلال تتبع أسماء العلمـاء الـذين يـروي عنهم في فصوصه، أو يحتج بـآرائهم أنه كان يميل إلى المدرسـة البصرية:

246) انظر المبحث الخاص بالفصوص النحوية والصرفية.

247) الفصوص ص: 88ب.

248) الفصوص ص: 79أ.

249) الفصوص ص: 80 ب.



«... وكان ثعلب يحكي عن المفضل أنه كان يقول: إذا حركت السين،(250) كان اسما لما لا يتبعض كقولك: جلست وسَط الدار؛ وإذا سكنته كان لما يتبعض كقولك: جلستُ وسْط القوم، لأنه يفترق الجمع؛ وليس هذا عندي بشيء. وعند ابن دريد وجمهور أهل اللغة غير النحويين أن وسْطا ووسَطا واحد، وليس عندي بجيد. وقول البصريين أولى».(251) وليس هذا بمستغرب، فشيخاه أبو سعيد وأبو علي كانا من علماء المدرسة البصرية. إلا أن الفصوص الكثيرة التي احتج فيها بآراء الكسائي، والفراء، والمفضل الضبي، وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وابن السكيت، والمفضل بن سلمة، وثعلب، وأبي بكر بن الأنباري، وأبي بكر السجستاني، وابن مقسم، وأبي عمر الزاهد، أو نقل أقوالهم، أو أسند إليهم، تفيد أنه لم يكن يتعصب للبصريين على الكوفيين، بل إنه في بعض الفصوص يجعل من إثبات آراء علماء الكوفة وسيلة إلى رد ما يقول به علماء البصرة؛ وقد بدا هذا في إيراده قول ثعلب، في سياق نقله لبعض شروح العالم البصري الأصمعي.(252) وقد تخالف آراء الكوفيين ما قال به شيوخه مما يراه فصيحا، لكن ذلك لا يمنعه من أن يميز بين ما يستظرفه من آرائهم، وما يراه مقبولا. وفي تمييزه بين ما قال به ابن السكيت في وزن (محبرة)، وما قال به غيره من الكوفيين، ما يوضح ذلك.(253) والذي أرجحه أن صاعدا كان ككثير من البغداديين في القرن الرابع يجمع بين الاستفادة من آراء البصريين والكوفيين جميعا، وإن أظهر الميل إلى البصريين، بالإكثار من الرواية عنهم. فكثرة الروايات غير

---

250) في كلمة (وسط).

251) الفصوص ص: 79أ.

252) الفصوص ص: 51ب.

253) الفصوص ص: 156ب.



المشهورة التي خالف بها المشهور من المرويات الشعرية، وما نقله من أشعار قديمة غير متداولة بين الرواة، تؤكد أنه كان يستفيد من مرويات الكوفيين الشعرية التي كان البصريون ينكرونها. ولعل التظاهر بالإكثار من النقل عن علماء البصرة، كان مجاملة منه لعلماء الأندلس الذين يجلون علماء البصرة إجلالهم لأبي علي القالي.

5) الراوية الموثق :

قد تكون الأشعار والأخبار الكثيرة والمتنوعة التي أوردها في كتابه وحدها كافية للشهادة له بأنه كان راوية؛ إلا أن كثرة ما أورده من الأشعار القديمة غير المشهورة، تؤكد أنه كان يحفظ من دواوين القدماء وأشعارهم المتفرقة، ما رفعه إلى درجة الرواة الحفاظ. وقد مكنه هذا المحفوظ الغزير المتنوع، من تجاوز النقل المدرسي للمرويات، إلى توثيق بعضها، ومقابلته بغيرها، والتنبيه إلى ندرتها أحيانا. ويمكن أن نلخص هذه الدراية بالمرويات في:

أ) ترجيح الروايات :

ويعتمد في ترجيحه رواية على رواية، على منهجه العلمي العام في قبول الروايات والمفاضلة بينها، كتقديمه رواية الأعراب على رواية أهل الحاضرة. ويظهر هذا الترجيح لرواية الأعراب على غيرهم، في تقديمه رواية شيخه شرحبيل أحد فصحاء العرب باليمن، على رواية شيخه أبي سعيد السيرافي، رغم تلمذته الطويلة له. فشرحبيل يروي بعض الأبيات منسوبة إلى فرعان اللص، بينما يرويها السيرافي لعبيد بن أيوب العنبري وكان لصّاً أيضا. وعندما يورد صاعد هذه الأبيات، يثبتها منسوبة إلى فرعان، مرجحا رواية



شرحبيل، ومكتفيا بالتنبيه إلى رواية السيرافي «... لأن العرب أعرف بأشعار العرب من الحاضرة...».(254)

ب) ذكر الخلاف في الرواية :

ويظهر ذلك في تنبيهه إلى بعض ما خالف به بعض الرواة الرواية المثبتة، دون أن يتجاوز التنبيه إلى المفاضلة والترجيح؛ وفي سكوته عن الترجيح قبول للرواية الثانية، وإن كان إثبات الرواية الأولى يعد تقديما ضمنيا لها.(255) وقد يكون الخلاف في نسبة الشعر، فينبه إليه.(256)

ج) التنبيه إلى ما لم يرد عند بعض الرواة :

ويكثر هذا في الفصوص التي يبنيها على أشعار من روى أشعارهم كبار الرواة، كقوله في فص بناه على أبيات لسحيم رواها عن شيخه الرماني: «وقرأت على علي بن عيسى في بعض ما قرأت عليه من فوائده... قال سحيم بعدما ضُرب ونُهي فعاود، وليست في رواية الأصمعي وابن الأعرابي...».(257)

ومن تنبيهاته التي تستوقف الدارس، إشارته إلى أن أبيات المرقش الأكبر التي بني عليها الفص (50) ليست في رواية المفضل: «وأنشد له أبو عمرو الشيباني، وليست في رواية المفضل...».(258) وإذا كان صاعد يقصد رواية المفضليات، فالأبيات واردة في النسخة المتداولة من مجموعة المفضل، لكن هذا قد يفيد أن النسخة التي بين أيدينا تضم قصائد لم يخترها المفضل.

---

254) الفصوص ص: 77ب.

255) انظر مثلا الفصوص ص: 74أ.

256) انظر مثلا الفصوص ص: 82ب.

257) انظر مثلا الفصوص ص: 78ب ـ 79أ.

258) انظر مثلا الفصوص ص: 14أ.



د) التنبيه إلى تفرد الرواية :

ويلتجئ صاعد إلى هذا، حتى لا تحمل الرواية التي يستشهد بها على القوة، تمييزا لها عن الروايات القوية. ومن ذلك تنبيهه إلى رواية مرفوعة إلى الفراء، لم يسمعها إلا من راويها: «... قال الفراء: يقال هذا أولى... ولم أسمعه من غيره».(259)

هـ) بناء الفص على رواية شبه مركبة :

وذلك بالاستفادة من الروايتين في نفس الفص؛ وقد بدا هذا جليا في الفص (182) الذي بناه على شرح أبيات للشاعر الأموي جعفر بن علبة، نقلها من خط شيخه أبي سعيد السيرافي، حيث جمع بين رواية شيخه، ورواية أبي تمام.(260) وفي جمعه بين رواية شيخه ورواية أبي تمام، ما يوحي بأنه كان يعتبر رواية الشعراء للشعر أقوى من أن تؤخر، لكون الشعراء أدرى بالشعر من الرواة العلماء.

و) تخطئة ما لا يراه صحيحا من الروايات :

يبدو صاعد من خلال فصوصه ميالا إلى نقد الروايات التي لا يرضاها؛ وامتد نقده للرواية أحيانا إلى بعض ما كان متداولا منها، دون أن تمنعه شهرتها من ردها وتخطئة أصحابها. فما قاله الرواة مثلا في نصب (وقوفا) في قول امرئ القيس مشهور، إلا أن هذه الرواية كانت مما رده صاعد واستضعفه، معتمدا على شرح نقله من خط الأصمعي.(261) وقد تكون الرواية التي يستضعفها صاعد لعالم كبير، أو لأحد شيوخه، فلا يمنعه ذلك ـ وإن ألان الكلام ـ

---

259) الفصوص ص: 66أ.

260) الفصوص ص: 66أ إلى 67أ.

261) الفصوص ص: 50ب ـ 51أ.



من تخطئتها وردها. وقد صرح صاعد نفسه، وهو يخطئ شيخه أبا علي الفارسي، بأن الحق لا هوادة فيه.(262)

ولم تكن هذه العناية بتصحيح الروايات، ونقدها، وتوثيقها مقصورة على المسموع من مروياته؛ فما كان ينقل من الخطوط المنسوبة من الروايات، كان أيضا مما يوثق، إما بذكر سند الخطوط المنسوبة، كإشارته في الفص (212) إلى أنه ينقل من خط ابن المعتز الذي نقل من خط الفراء؛(263) أو بالمقابلة بين ما نقل من أكثر من خط، من الأشعار والأخبار، كمقابلته ما نقله من خط الأثرم، بما كتب بخط محمد بن حبيب: «نقلت من خط الأثرم... فكانا سواء».(264)

ونجد نفس المنحى في التوثيق، في فص آخر يقابل فيه ما نقله بخط سلمة، بما وجده بخط البحتري: «ووجدت بخط سلمة صاحب الفراء، ثم وجدت بخط البحتري لبعض العرب، ولم يذكروا قائله...».(265)

أما مواقف علماء الأندلس من هذه الروايات الغزيرة فقد كانت مختلفة؛ ولعل تهمة الكذب التي ألصقت بصاعد في المصادر، كانت نتيجة للشك الذي واجه به تلامذة القالي صاحب الفصوص. وقد ذكر هو نفسه ذلك في خبر المجلس الذي أنكر فيه تلامذة القالي روايته المتميزة لبيت الشماخ: (بسيط)

تُدْنِي الْحَمَامَةَ منها وهي لاَهِيَةٌ(266) ....

---

262) الفصوص ص: 63ب.

263) الفصوص ص: 77ب.

264) الفصوص ص: 89ب.

265) الفصوص ص: 125ب. وانظر أيضا مقابلته ما نقل من خط الأصمعي بنفس ما نقل من خط إسحاق الموصلي (الفصوص ص: 63أ).

266) الفصوص ص: 156ب.



ولا نريد أن نتولى اليوم الانتصار لصاعد ممن عاداه واتهمه من تلامذة القالي، حسدا أو جهلا بما أتى به، فقد اعترف صاحب الذخيرة بأن اشتراط صاعد لغير المشهور، كان سببا فيما اتهم به. وفي القرن السابع، كان القفطي قد ذكر أن اختبار الكتب المطولة في اللغة، قد كشف عن حقيقة ما أتى به صاعد.(267) ولكننا نكتفي بتنبيه من ظل يصدق ما قيل عن الفصوص وتغريقه، من الدارسين المعاصرين، إلى أننا استطعنا أن نرد كثيرا من المادة العلمية التي تضمنها كتاب الفصوص إلى أصولها ومصادرها، رغم قلة ما بيد الدارس اليوم من المصادر الأصول؛ أما اتهام صاعد بالكذب في عصره وفي المصادر التي ترجمت له، فقد كان كاتهام بعض كبار المحدثين والعلماء كالقطيعي وأبي عمر الزاهد؛ والمؤلف مستهدف. وفي رد ابن بسام لتهمة الكذب التي اتهم بها صاعد، ما يؤكد أن ما وصف به كتاب الفصوص، لم يكن إلا تحامل حاسد،(268) أو جاهل بقيمة ما تضمنه الكتاب.

ومما يدعو إلى الاستغراب من موقف تلامذة القالي من صاعد، أنهم شككوا في شاعريته عندما نظم الشعر، واتهموه بسرقته؛ فلما روى الأشعار منسوبة إلى أصحابها، شككوا في روايته، واتهموه بالنحل والكذب فيما يرويه، فجعلوه بذلك عند نظم الشعر راويا منتحلا، وعند رواية الشعر ناظما ناحلا.

6) الشاعر الناقد :

لم يضمن صاعد كتابه، من شعره، ما يكفي لجعل الكتاب صورة لشاعريته؛ فما ورد فيه من شعره لم يتعد البيت الذي اختصر فيه بيتي الشافعي، والأبيات القليلة التي اقتطعها من مدحته في ابن أبي عامر، لذا تظل أشعاره المتفرقة في المصادر

267) إنباه الرواة 2/88.

268) الذخيرة 4ـ 1/16.



الشاهد الأول على قيمة ما نسب إليه من شعر. وخلافا لذلك، كان لآرائه النقدية في كتابه بعض البروز. ومن القضايا النقدية التي وقف عندها في كتابه، قضية الأخذ، وفساد المعنى الشعري. واهتمام صاعد بالأخذ، الذي يعد أحد المصطلحات النقدية المرتبطة بباب السرقات الشعرية، كان مرتبطا بتمثله الشعر باعتباره بناء ومعاني. والتشابه بين معاني الأشعار، كان من الظواهر الشعرية التي نبه صاعد إليها عن قصد، مخصصا لذلك فصوصا مستقلة، كالفص (126)، الذي أرجع فيه معنى بعض الأبيات إلى أبعد مما ذهب إليه بشار: «ومن خط ثعلب في قبيل ضبة لابن الحدادية: حلت رميلة بالمتبع حلة...... فأخذ بشار هذا المعنى فقال: إني لأحسد ثوبيها إذا رقدت...».(269)

ويرد في فص آخر شعرا لأبي العتاهية وبشار، إلى ما ورد في أبيات لشاعر جاهلي قديم: «يروى أن أبا العتاهية زار يوما بشار بن برد فقال له: ياأبا العتاهية، والله إني لأستحسن اعتذارك في البكاء إذ تقول: (مجزوء الكامل)

كم من صديق لي أسا   رقه البكاء من الحياء...

فقال: أيها الشيخ، ما غرفته إلا من بحرك، ولا نحتته إلا من قدحك، وأنت المبرز السابق حيث تقول: (وافر)

وقالوا قد بكيت فقلت كلا   وهل يبكي من الطرب الجليد....

قال صاعد: قد تقدمهما الحطيئة إلى هذا المعنى فقال: (وافر)

إذا ما العين فاض الدمع منها   أقول بها قذى وهو البكاء

وإنما أخذ الحطيئة أيضا من وديعة بن ذرة، وهو جاهلي قديم حيث يقول: (طويل)

---

269) الفصوص ص: 54ب.



لَقَدْ قِيلَ مِنْ طوُلِ اعْتِلَالِكَ بِالْقَذَى أَجِدَّكَ لاَ تَلْقَى لِعَيْنَيْكَ قَاذِيَا...

نقلت هذه القطعة عن خط الأصمعي». (270)

وبنفس النظر النقدي، يكشف عن علاقة بيت لابن أبي الجنوب في هجاء علي بن الجهم، ببيت لجرير ليس في ديوانه: «وأنشدني ابن سابط بالبصرة قال: أنشدني أبو الحسن علي بن لنكك لابن أبي الجنوب يهجو علي بن الجهم، وكان بينهما مماظة: .... (كامل)

إِنَّ ابْنَ جَهْمٍ لَيْسَ يَرْحَمُ أُمَّهُ لَوْ كَانَ يَرْحَمُهَا لَمَا عَادَانِي

أخذ هذا المعنى من جرير في قوله: (طويل)

وَمَا حَمَلَتْ أُمُّ امْرِئٍ فِي ضُلُوعِهَا أَخَفَّ مِنَ الْجَانِي عَلَيْهَا هِجَائِيَا» (271)

ويبدو أنه كان يعتبر معرفة مصدر المعنى الشعري الأول من شروط رواية الشعر، وكان يعد إعجاب العالم بالمعنى في شعر شاعر، مع وجوده عند شاعر سابق، تقصيرا. فقد استغرب من أبي عمرو بن العلاء إعجابه بشعر لأبي دهبل، مع سبق الأعشى إلى معنى ذلك الشعر: «حدثنا أبو سعيد السيرافي رحمه الله قال: حدثنا ..... قال: قيل لأبي عمرو بن العلاء: ما يعجبك من شعر أبي دهبل؟ قال: قوله: (سريع)

يَاعَمْرَ جِيرَانُكُمْ بَاكَرُوا فَالْقَلْبَ لاَ لاَهٍ وَلاَ صَابِرُ

قال صاعد: عجبت من إعجاب أبي عمرو بن العلاء بهذه القطعة واستغرابه لها، وهو يعلم أن الأعشى سبقه إلى هذا المعنى، وأن الآخر سلخ الأول، إذ يقول....». (272)

---

270) الفصوص ص: 50أ ـ 50ب.

271) الفصوص 104أ.

272) الفصوص ص: 53ب.



وتفسر هذه العناية النقدية، بـرد المعاني الشعرية إلى أصولها الأولى، اهتمـامـه بنقـد البناء المنطقي لمعـاني الشعـر، وتفسيـره الشعري لبعض مـا اختل منها. ففي نقده مثـلا لبيت بشر بن أبي خـازم في وصف فحل إبل، يكـاد يسلك مسلك طـرفـة في قصـة «استنوق الجمل» قال: وقول بشـر: (وافر)

وَخِنْذِيذٍ تَرَى الْغُرْمُولَ مِنْهُ ... كَطَيِّ الزِّقِّ عَلَّقَهُ التِّجَارُ

أخطأ عن وصفه، لأنه ذكره بكبر غـرموله، وهذا عيب: ولا يكبر ذلك إلا في الهُجْن، وأمـا العتـاق منهـا فـلا تـوصف إلا بصغـر الجردان».(273) إلا أنه يبـدو أشعر منـه ناقـدا في تأويلـه لاختلال المعنى في بيت للمـرقش الأكبر: «وأنشد لـه أبو عمـرو الشيباني، وليست في رواية المفضل: (طويل)

1 — هَلْ يَـرْجِعَنْ لِي لِمَّتِي إِنْ خَضَبْتُهَـا
إِلَى عَهْـدِهَـا قَبْـلَ الْمَشِيبِ خِضَـابُهَـا

2 — رَأَتْ أُقْحُـوَانَ الشَّيْبِ فَـوْقَ خَطِيطَـةٍ
إِذَا مُطِـرَتْ لَـمْ يَسْتَكِنَّ صُـؤَابُهَـا

...... قـال: إنما يشبّـه الأقحـوانَ بالأسنـان، ولم يشبـه الشيب بـالأقحوان قبلـه. والخَطِيطَـةُ: الأرض التي لم تُمْطَـرْ، بين أرضين ممطورتين، فزعم أنه قد صَلِعَ فجعل صَلْعَتَه كالخطيطة، فيقول: لو مُطِـرت لم يستكنّ صُـؤَابُهـا. أي لا شَعَـر على رأسي فيستكنَّ الصـؤابُ فيه. قـال صـاعد: ليس لقـولـه: لو مطـرت، معنى، لأن الصلعة لا يستكنُّ فيهـا الصُّؤاب، مُطِـرتْ أو لم تمطر، ولكنـه لما ذكر الخطيطةَ، ذكر معها المطر، كقول الآخر: (طويل)

وَنَحْنُ نَقَلْنَا مِنْ مُعَاوِيَةَ الَّتِي ... هِيَ الْأُمُّ تَغْشَى كُلَّ فَرْخٍ مُنَقْنِقِ

273) الفصوص ص: 143 ب.

أراد بالفرخ الدماغ، فلما سماه فرخا ـ لأن الهامة يقال لها أم الدماغ ـ جعل له نقنقة».(274)

ويلحق بهذه اللمحات النقدية، تخريجه للضرائر الشعرية وفساد الوزن في بعض المختارات الشعرية، إلا أن هذه المختارات نفسها تظل أهم ما يشهد لصاعد بنمو الحس النقدي المتذوق، وإن كان كتابه يفتقر إلى ما يمكن أن يعد نظرية أو كتابة نقدية منهجية.

7) الهازل المتماجن :

تدل كثرة القصص والحكايات والطرف والملح التي تضمنها كتاب الفصوص، على مهارة بأدب المسامرة والمؤانسة؛ وما تحكيه المصادر عن شغف المنصور بكتاب الجواس الذي ألفه له صاعد، يؤكد أنه كان قصاصا بارعا في السرد. ويمكن أن يعد هزله في الكتاب تكملة لما تتطلبه صناعة المنادمة وأدب المسامرة من براعة في الفكاهة والتسلية، وإن كان هذا الهزل يتحول في بعض الفصوص إلى تماجن وتعبير صريح عما يجب أن يكنى عنه. ولا يستغرب هذا التماجن من صاعد، فالمجالس التي كان يحضرها في بغداد، والأشعار التي نظمها شيخاه ابنا حجاج وسكرة، وكثير من شعراء اليتيمة، يفيد أن ظاهرة التماجن في الأدب، كانت قد أصبحت نمطا في الكتابة لا يضايق العلماء ولا الحكام؛ والمجون الذي مزج به التوحيدي جده في كتابه الإمتاع والمؤانسة شاهد على ذلك. لكن الذي يستغرب من صاعد جرأته في بناء هزله، على وضع ما مكانه الجد في موضع الهزل؛ ومما يوضح ذلك الفص الذي نقل فيه خبر الأعرابي أبي مهدية عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿**الأعراب أشد كفرا ونفاقا**﴾: «... فقال: الأعراب هم والله مادة

---

274) الفصوص ص: 14أ.



الإسلام، كـذبتم والله، وإنما قلبتمـوها كما تقلبون الشعـر. فقلنا: فكيف هـو؟ قـال: الأعزاب أشـد كفـرا، وقـد بلغني أنهم في الخط واحد، وما أحسب أن الله تعالى خلق خلقا هو شر منهم، ولا جيلا أخبث منهم، يدبـون إلى جاراتهم دبيب العقارب، فلا يَغُـرَّنَّكَ صومُ عزب وصلاته، فإنه لا يؤول إلا إلى خبث». (275)

ويلحق بهذا الهزل في موضع الجـد، هزله في الفص الذي نقل فيه خبـر الضيف الذي نظم كلامـا وأوهم بعض النساء أنـه قرآن، طمعا في قراهن. أمـا الضيف فقد جعله الخبر الذي ينقلـه صاعد، يونس مع مـا عرف عن هذا العالم من جـد: «وروى لنا محمد بن شاذان، عن ابن دريد، عن عبد الرحمـان، عن عمه، عن يونس قال: صرت إلى حي يعرف ببني يربوع، فطلبت مَن أنْزِل عليه، فلم أجد إلا نسـاء. فـأضـرَّ بي الجـوع، فقلت لهن: هل لكن فـي الصـلاة جامعة؟ قلن: وأيم الله، إن فيها لَهَلاً. قال: فأذَّنت، وتقدمت فكبَّرت وقرأت: الحمـد، ثم قلت: يا أيها الذين آمنـوا إذا نزل بكم الضيف، فلتقم ربة البيت فتملأ قَعْباً زُبْداً، وقعبا تمرا، فإن ذلك خير وأعظم أجرا. قال: فو الله ما انفلتت من صلاتي إلا وصِحافُ القوم حَوْلِي، فأكلت حتى تَمَـلَّأْتُ، وأخـذت معـي زادا؛ ثم جـاء رجـال الحي، فسمعت امرأة منهم، تقول لزوجها: ما سمعت قرآنا قط أحسن من قرآن قـرأه ضيفنا هـذا. قال لها زوجهـا: اقرئي علي هـذا الكلام. فأعـادت عليـه. فقـال: أبى اللـه تعـالى أن يأمـرنـا إلا بمكـارم الأخلاق». (276)

هذا العبث بما هو جد، قد يجيـز للدارس أن يتساءل عن علاقة نزعة التمـاجن لدى صاعد، ببعض التيارات الفكريـة المشرقية في القرن الرابع؛ فنظرة صاعد إلى الورع والاستقامة، تبدو مختلفة عن

---

275) الفصوص ص: 78ب.

276) الفصوص ص: 132أ.



التصور السائد. إن المبالغة في أداء العبادات ـ في رأيه ـ لا تدل على صفاء الإيمان وطهارة السلوك، فالتظاهر بالورع قد يكون شركا أو حبالة للصيد، كما أن التماجن والظرف لا يعبران عن باطن المسلم وسلوكه الحقيقي؛ وفي وصف صاعد لأبي حلتيت الصوفي بالظرف والمجون والورع، ما يؤكد ذلك: «أنشدني رجل من أهل واسط، صوفي ... وهو من سواد واسط، يقال له أبو حلتيت، وكان ظريفا ماجنا ورعا...».(277)

هذا المفهوم للورع الماجن أو المجون الورع، يجعل الورع ورع النفس والفعل، لا ورع الأقوال، والمجون مجون النفس والفعل لا مجون القول. وهو تصور يبدو وثيق العلاقة بالموقف الذي وقفه التيار السلوكي في القرن الرابع من التيار الاعتزالي، الذي كان يبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتخويف مرتكب الكبيرة من الخلود في النار، رغم أن أصحابه ـ في نظر مفكري التيار السلوكي ـ كانوا أبعد الناس عن الخشوع والورع. وكان التوحيدي ممن تزعم هذه الدعوة إلى جعل الورع ورع النفس، كما يظهر في مهاجمته للفقيه الداركي، وللمعتزلة مطلقا.(278)

ولعل هذا التصور المتميز للفرق بين المجون والتماجن، أو مجون الفعل ومجون القول، كان وراء افتتاح صاعد لكتابه بتفسير(279) «التوسط»، من خلال شرح قوله تعالى: ﴿**وجعلناكم أمة وسطا**﴾، وختمه له بقول الرسول ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة».(280)

---

277) الفصوص ص: 125ب.

278) الإمتاع والمؤانسة 1 / 141.

279) الفصوص ص: 2أ.

280) الفصوص ص: 159ب ـ 160أ.



8) العالم المتحزب :

لا تمدنا المصادر التي ترجمت لصاعد، ولا كتابه الفصوص، بما يمكن أن يكون شاهدا على انتحاله الصريح نحلة أو مذهبا من المذاهب، أو عقيدة من العقائد. ورغم العلاقة التي ربطته في المشرق ببني بويه، تظل علاقته بالمذهب الشيعي، قبل حلوله بقرطبة، مجهولة.

ونستنتج من بعض آرائه في تفسير الآيات القرآنية، أنه كان يأخذ بالسنة؛(281) وتفيد الفصوص التي بناها على أخبار بعض آل البيت أنه كان يُجلّهم، لكن الفص الذي استخف فيه استحفافا ماجنا بمقولة الإمام المنتظر في المذهب الشيعي، تكشف عن موقف يدل ـ في الظاهر ـ على عدائه للإمامية: «وحدثنا علي بن مهدي أنه دخل إلى أبي الحسن بن الناصر الأصم العلوي، الذي أسلم الديلم على يده.... فأنشده قصيدة حسنة..... فأعجب أبا الحسن شعره، فقربه ونادمه وأحسن صلته؛ وباتا ليلتهما يتعاطيان ملح الأشعار ويتقارضان البديهة، ويتذاكران أخبار الإمامية من الشيعة وسخف مذهبها في اعتقاد إمامة منتظر لم يولد، وما أشبه ذلك من حمقهم، حتى انفجر عمود الصبح. فقام على ابن الناصر إحليله، فقال: ياأبا الغمر، ما أدري ما كنا فيه منذ الليلة؟ ولكن قل في قيام إحليلي شيئا. فأطرق ساعة ثم قال: (مجزوء الرمل)

1 — قل لمن كان إماميا إلى كم تتردد

2 — التمس ما في سراويل فتى الناصر ترشد

3 — فهو القائم يامغرور من آل محمد...»(282)

---

281) الفصوص ص: 14ب.

282) الفصوص ص: 17أ.



وكــان من الجــائز أن نعــد نقل صاعــد لهـذا الخبــر المستخف بــالإماميــة، دليلا صــريحــا على بغضه لهم، إلا أن ارتبــاط تأليف الفصـــوص بأحد خــدام الدولــة الأمــوية، في بيئــة سنية، يجعلنــا نحترس من احتمال كون هذه السخرية، مجاملة مذهبية للمنصور ولسيده الخليفة الأموي هشام المؤيد. أما مجاملاته الصريحة لبني أميــة من خلال نقل أخبــارهم، فقد كــانت كثيرة، ولعل أوضحهــا، الفص الذي يجعل الخليفة عمــر بن عبد العزيز هــو المقصود بدل أبي بكــر، في قولهم «العمــران»: «وأمــا العمران فأبــو بكر وعمــر، وقيل لعثمــان رحمه اللــه: نسألك سيــرة العمــرين.... الفراء قــال: أخبرنا معاذ الهراء قال: لقــد قيل: سيرة العمرين قبل أن يولد عمر بن عبد العزيز، وزعم الأصمعي عــن أبي هلال الراسبي عن قتادة أنه سئل عن عتق أمهات الأولاد فقــال: أعتق العمران فما بينهما من الخلفاء أمهــات الأولاد. ففي قول قتــادة: العمران عمــر بن الخطاب وعمر بن عبد العــزيز رحمهما الله، إذ لم يكن بيــن أبي بكر وعمر رحمهما الله، خليفة».(283)

إن كتاب الفصوص يكشف عن شخصية علمية متعددة الأوجه، وإذا كان الوجه الحزبي المذهبي، يعتبر أقل هذه الأوجه وضوحا، فإن أهم صــورة يرسمهــا الكتــاب لشخصية صــاعد العلميــة، هي صورة الراوية الحافظ.

283) الفصوص ص: 6ب.

رابعا: أثر صاعد والفصوص في المؤلفات اللاحقة:

لم يكن تشكيك تلامذة القالي في صحة ما تضمنه كتاب الفصوص من معارف وعلوم، ليمنع العلماء اللاحقين، من الاستفادة من الكتاب. وإذا كانت بعض الأسباب غير العلمية قد منعت كتاب صاعد من أن يكون متداولا كما تدوول كتاب الأغاني مثلا، فإن في ما نقله بعض المصنفين من كتاب الفصوص، وما أفادوه من صاعد، ما يدل على أن هذا الكتاب لم يكن مجهولا لدى القدماء.

1) ولعل أقدم من أفاد من كتاب الفصوص، تلميذه ابن حيان الذي كان ممن رووا الفصوص. وقد أورد في مقتبسه متصرفا خبر البدوية التي «نقلها زوجها عن البادية إلى قرى النخل كارهة، فأحمدت النجعة لما طعمت التمر، ثم حنت إلى وطنها، فلما عاودته أعوزها التمر فتشهته، وقالت: (طويل)

1 — ألا من لقلب لا يزال مكلفا
تزايل ما بين القرينة والفحل

2 — يحن إلى الأرطاة حتى إذا أتى
بلادا بها الأرطاة حن إلى النخل(284)

وما يشير إليه ابن حيان هو الخبر الذي بني عليه الفص (373).(285).

2) وأفاد ابن سيده تلميذ صاعد كثيرا من شيخه وكتابه؛ وليست الإفادات التي سترد في لسان العرب إلا نقلا من محكم هذا العالم. وفي فصل من رسالة لابن سيده ـ نقلها صاحب الذخيرة ـ في الرد على ابن أرقم نجد قوله: «... وأنا أنشدهم ما

---

284) المقتبس 3/14.

285) الفصوص ص: 109ب.



أنشدته عن أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي، عن أبي رجاء الضبعي: (طويل)

حسود كئيب القلب يخفي أنينه ويضحي كئيب البال عندي حزينه...»(286)

وهذا الذي استشهد به ابن سيدة هو أول ما أورده صاعد من الشعر في كتاب الفصوص.(287)

3) وكان أبو عبيد البكري تلميذ ابن حيان ممن أكثروا النقل عن صاعد؛ ففي التنبيه ينقل من الفصوص خبر سؤال عمر رضي الله عنه رجلا طائفيا عن النخلة والكرم.(288) وينقل في التنبيه(289) واللآلي،(290) رد صاعد لرواية القالي المصحفة لقول الشاعر، مع تصحيحه للرواية: «... وأخبرني من أثق به أن صاعد بن الحسن كان يرد هذه الرواية في البيت ويقول إن الصحيح: (طويل)

تجللت عارا لا يزال يشبه سباب الرجال نثره والقصائد(291)

وأكثر البكري من النقل عن صاعد في معجمه، ففي حديثه عن البرق يذكر برقة حاج ويقول: «... هكذا ذكرها صاعد بالحاء والجيم، وهكذا رويناه عنه، وإنما هو خاخ بخاءين معجمتين، على ما يأتي في حرف الخاء...».(292) وفي حديثه عن برقة الصفاح يشير إلى تشديد الصاد المفتوحة والفاء، ثم يقول: «هكذا ذكره

---

286) الذخيرة 3/1/390.
287) الفصوص ص: 1ب.
288) الفصوص ص: 112أ.
289) التنبيه ص: 56.
290) سمط اللآلي 1/429.
291) انظر المصدرين السابقين.
292) معجم ما استعجم ص: 242.



صاعد، وحُدِّثنا به عنه، وأنا أراه برقة الصفاح».(293) وورد الحديث عن البرق في الفص (76).(294)

وعن صاعد نقل البكري بعض كلامه عن الدارات في حديثه عن دارة شجيّ: «ودارة شجى، هكذا ذكرها ابن حبيب. وقال كراع: دارة وَشْحَى، بالواو والشين المعجمة والحاء المهملة، مقصور على وزن فعلى. وكذلك ذكره صاعد. قال: ورأيت بخط إسحاق دارة شحاً بالشين المعجمة والحاء المهملة على وزن فعل. قال: فلست أدري أهي هذه أم دارة أخرى».(295)

وإشارته إلى صاعد إشارة إلى قوله في الفصوص: ودارة وشحى، ورأيت بخط إسحاق دارة شحا فلست أدري أهي هذه أم دارة أخرى...(296)

واستفاد البكري منه أيضا في ضبطه للفظة مكمن، في حديثه عن دارة مكمن.(297)

4) ويذكر أحمد بن يحيى الضبي رواية عن ابن حزم «... أن أبا العلاء صاعدا سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول الشماخ: (بسيط)

1 — دَارُ الْفَتَاةِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَهَا
يَاظَبْيَةً عُطُلاً حَسَّانَةِ الْجِيدِ

2 — تُدْنِي الْحَمَامَةَ مِنْهَا وَهْيَ لاَهِيَةٌ
مِنْ يَانِعِ الْمُرْدِ قِنْوَانَ الْعَنَاقِيدِ...(298)

---

293) معجم ما استعجم ص: 2/835.

294) الفصوص ص: 41ب.

295) معجم ما استعجم ص: 535.

296) الفصوص ص: 41ب.

297) معجم ما استعجم ص: 537 والفصوص ص: 35أ.

298) بغية الملتمس ص: 322.



والخبر المذكور في آخر الفص 755، في سياق ما استدركه صاعد على القالي في بارعه.(299)

5) وكما أفاد البكري من صاعد وفصوصه في معجمه، أفاد الحموي. ففي معجم البلدان نقول كثيرة من كتاب الفصوص.(300)

إلا أن الحموي في معجم الأدباء وَهِمَ في ترجمته لعلي بن عيسى الربعي، فجعله(301) المعقِّبَ على أبي علي الفارسي في قوله «أكأت الرجل...»، والحكاية في الفصوص(302) كما نقلها الحموي؛ إلا أن الربعي المقصود هو أبو العلاء صاعد بن الحسن، لا علي بن عيسى. ولم نعثر في صلة ابن بشكوال الذي نقل عنه الحموي، على أية إشارة إلى الحكاية المذكورة، التي خلط فيها صاحب الإرشاد بين صاعد الربعي، وعلي بن عيسى الربعي.

6) واستفاد ابن خلكان في كتابه من الفصوص استفادة صريحة تدل على معرفته به معرفة من طالعه؛ ففي ترجمته لأبي العتاهية ينقل من الفصوص خبر بشار وأبي العتاهية، وتنبيه صاعد إلى سبق الحطيئة وشاعر جاهلي قديم آخر إلى المعنى الذي نظماه: «... وحكى صاعد اللغوي في كتاب الفصوص أن أبا العتاهية زار يوما بشار بن برد فقال له أبو العتاهية: إني لأستحسن قولك...».(303) والخبر بنصه في الفص (107) من كتاب صاعد.(304) ونقل ابن خلكان من الفصوص أيضا خبر قتل الوزير

299) الفصوص ص: 156أ.

300) انظر مثلا معجم البلدان 3/452 حيث انفرد ياقوت بإيراد قصيدة الأعرابي اليائية التي في الفصوص ص: 61ب.

301) معجم الأدباء 14/81.

302) الفصوص ص: 118ب.

303) وفيات الأعيان 1/223 إلى 226.

304) الفصوص ص: 50أ.

علي بن عيسى لغلام الشاعر أبـي بكر بن العلاف، والقصيدةً التي رثى بها الشاعر غـلامه مكنيا بالهر.(305) والخبر بنصـه في الفص (337) من الفصوص؛ والملاحظ أن هذه القصيـدة المطولة النادرة لم ترد في أي مصـدر سابق لـوفيات الأعيان ـــ حسب ما اطلعت عليه ـ وإن كانت قد وردت بعده عند الصفدي وغيره. وفي هذا ما يجعلنا نعتقد أن فضل وصول هذه القصيدة إلينا يعود إلى مصدر وحيد هو كتاب الفصوص.(306)

7) وبـالنقل عـن محكم ابن سيـده، جعل ابـن منظـور من آراء صاعد اللغويـة مكونا من المكونات العلميـة لمعجمه الكبير. وكان النقل عن صـاعد إما بـذكر اسمـه كقولـه: «... وقالت شـاعرة من العرب، وكـان تزوجها رجل من غيـر بلدها فعُنِّن عنهـا... قال ابن سيده: وهذه الأبيات قرأتهـا على أبي العلاء صاعد بن الحسن في الكتاب الموسوم بالفصوص...».(307) وكقوله: «وأنشـد صـاعد في الفصوص لأيمن بن خريم يذكر غزالة الحرورية...»،(308) أو بدون ذكر اسمه.(309)

8) وفي تخليص الشـواهـد ينسب ابن هشـام قـول الشـاعـر: (منسرح)

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ فِي بَعْضِ غِرَّاتِهِ يُوَافِقُهَا

305) وفيات الأعيان 2/109 و2/110.

306) الفصوص ص: 104ب.

307) لسان العرب 3/446.

308) لسان العرب 7/385. وانظر أيضا 1/124، و1/161، و1/224، و1/460، و1/471، و1/607، و1/799؛ و2/44، و209، و189، و366؛ و4/498؛ و5/189، و9/125.... وغيرها.

309) لسان العرب 7/385. وانظر مثلا لسـان العرب 10/246 حيث يـرد النقل عن الفصوص دون الإشارة إليه ولا إلى صاحبه.



إلى أمية بن أبي الصلت. ثم ينبه إلى أن صاعدا نسبه(310) إلى رجل خارجي قتله الحجاج. ونقل العيني نفس الإشارة، فذكر أن صاعدا نسبه إلى رجل خارجي، ورجح نسبته إلى ابن أبي الصلت. ولم أعثر على هذا البيت في كتاب الفصوص.

9) وفي لسان الميزان، استفاد ابن حجر من الفصوص مصرحا بأنه طالعه،(311) فعرف ببعض شيوخه معتمدا على خطبة الكتاب. ومثل لمناكير صاعد(312) ومجازفاته، بالخبر الذي ذكر فيه صاحب الفصوص خبر مناظرته لقرموطة. وأشار إلى تلفيقه ممثلا بالفص (120) الذي ذكر فيه خبر الطفيلي وجاره.(313)

10) وفي القرن التاسع الهجري نجد ابن الأزرق يضمن كتابه بعض ما نقله عن كتاب صاعد. فقد نقل(314) خبر الأعمش وهو يقرئ الناس في مسجد بني أسد بالكوفة مع أبي حصين إمام المسجد، وخبر المنافسة التي كانت بين المبرد وثعلب، وما كان بينهما عندما التقيا في مجلس واحد، وذكر البيتين اللذين استشهد بهما المبرد.(315) كما نقل متصرفا في اللفظ خبر أمير البصرة الذي لحن على المنبر في قراءة آية.(316) وقد وردت هذه

---

310) تخليص الشواهد ص: 328، والمقاصد النحوية 2/188.

311) لسان الميزان 3/160.

312) لسان الميزان 3/161 وانظر الخبر في الفصوص ص: 11ب.

313) لسان الميزان 3/162 وانظر الخبر في الفصوص ص: 51أ.

314) روضة الأعلام ص: 27 (نسخة مرقونة).

315) روضة الأعلام ص: 410.

316) روضة الأعلام ص: 488.



الأخبار كلها في كتاب صاعد في ثلاثة فصوص متباعدة.(317)

وما يمكن أن نستنتجه من هذه النقول التي نقلتها المصادر المذكورة من كتاب الفصوص، وخصوصا ما نقله ابن خلكان المتوفى سنة (681هـ)، والحافظ ابن حجر المتوفى سنة (852هـ)، وابن الأزرق المتوفى سنة (894هـ)، أن مؤلَّف صاعد كان حتى القرن التاسع الهجري ما يزال متداولا بين العلماء.

غير أن أهم أثر لفصوص صاعد أمكننا أن نطلع عليه، بعدما سبقت الإشارة إليه، هو أن الفصوص إذا كانت قد ألبت عليها تلاميذ القالي، فوجدت من تصدى لها من بينهم فألف كتابا في الرد على صاعد في مناكير كتابه هو أبو عثمان سعيد بن عثمان المعروف بابن القزاز،(318) فقد وجدت من اهتم بها أكثر ممن سبقت الإشارة إليهم، وذاك هو سعد بن أحمد بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن ليون المتوفى سنة 780هـ، الذي ذُكر أن له مختصر كتاب الفصوص لصاعد،(319) ولا شك أن هناك من تعدى اختصار الفصوص من القدماء، إلى الشرح،(320) إلى غير ذلك من أصناف الاهتمام العلمي.

---

317) هي على الترتيب (الفص 81 ص: 36ب والفص 498 ص: 129 ب والفص 413 ص: 123أ).

318) الصلة 209 ـ 210 وانظر ص: 90 مما سبق.

319) درة الحجال 3/293.

320) انظر ص: 56 فقد سبق ـ نقلا عن حاجي خليفة ـ أن لابن النفيس المصري شرحا على كتاب الفصوص.



خامسا : . فصوص صاعد وأمالي(321) القالي :

ـ تحدي كتاب لكتاب، أم عالم لعالم:

اتفقت جل المصادر التي ترجمت لصاعد، على أنه ألف كتابه ليعارض به نوادر القالي وأماليه؛ وذكر ابن بسام أن صاعدا قال للمنصور لما أراه كتاب النوادر لأبي علي القالي: «إذا أراد المنصور، أمليت على مقيدي خدمته، وكتاب دولته، كتابا أرفع منه قدرا، وأجل خطرا، لا أدخل فيه خبرا مما أدخله أبو علي. فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بالفصوص».(322) وقد يوهم هذا الخبر أن صاعدا كان يرغب في تأليف الفصوص، لينسي به ذكر الأمالي باعتباره كتابا تعلق به العلماء. وإذا كان هذا يعد بعض ما قصد إليه صاعد، فإن ما قصد إليه كان أبعد من ذلك. إن معارضته لكتاب الأمالي لم تكن إلا وجها من أوجه الصراع الذي حدث بين صاعد العالم المشرقي الوافد، ومدرسة القالي المتمثلة في تلامذته بالأندلس. فصاعد وفصوصه كانا يمثلان الغزو المشرقي الثقافي الثاني للبيئة العلمية الأندلسية، وهو غزو جعل ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع المزدهرة، تواجه بقايا ثقافة القرن الثالث، وأوائل الرابع المستهلكة. وقد اتخذت هذه المواجهة مظاهر مختلفة، نختزل ما يتعلق بصاعد منها في الحديث عن تحدي هذا العالم لتلامذة القالي، ثم تحديه لمؤلفاته.

1) صاعد وتلامذة القالي :

تكشف الأخبار التي نقلتها المصادر، والأخبار التي حكاها صاعد نفسه في بعض الفصوص، عن أن المنافسة بينه وبين

---

321) نتحدث عن الأمالي والنوادر باعتبارهما كتابا واحدا.

322) الذخيرة 4 ـ 1/15.



تلامذة أبي علي كانت قوية؛ وتفيد المكانة التي حظي بها صاعد في بلاط المنصور أن المناظرات التي كانت تجري بينه وبين هؤلاء العلماء، كانت تزيد المنصور إعجابا بعلم الوافد المشرقي الجديد. ويبدو أن صاعدا كان يعتمد في إفحام خصومه من هؤلاء العلماء على طريقتين:

- مواجهة المحفوظ بالمبتكر.
- ثم مواجهة المتداول المشهور بالنادر المضنون به على غير أهله.

أ) أما مواجهة المحفوظ بالمبتكر، فقد تجلت في اجتهاده في شرح الشعر وتفسيره، وفي فك المعمى من أبيات المعاني. وقد بدت هذه الشروح مبتدعة مبتكرة، بالقياس إلى الشروح المحفوظة التي كان علماء الأندلس يرددونها نقلا عن شيوخهم. وفي شرح صاعد لبيت الشماخ،(323) وإنكار الأندلسيين لهذا الشرح، واعترافهم بطرافة ما أورده في شرح بيت امرئ القيس،(324) ما يوضح نوع المبتكر الذي واجه به صاعد محفوظ الأندلسيين.

ب) وتجلت مواجهته للمتداول المشهور من محفوظهم، بالنادر المضنون به على غير أهله، في تلك الفصوص الكثيرة التي بناها على قصائد ومقطعات شعرية لم يسمع بها الأندلسيون من قبل، وعلى روايات خالف بها الروايات المشهورة. ورغم كون صاعد قد نبه في خطبة كتابه إلى أنه لن يضمن الكتاب، إلا العيون التي انتقاها مما بقي في حفظه، من النقول التي نقلها عن خطوط العلماء التي كانت محفوظة بخزانة الوزير ابن يوسف في المشرق، لم يستطع تلامذة القالي أن يخفوا اعترافهم الضمني بجدة ما يسمعونه، وإن كان هذا الاعتراف قد تحول إلى تشكيك

323) الفصوص ص: 156 أ، وانظر الخبر في بغية الملتمس 322 وفي غيرها.

324) بغية الملتمس ص: 322.



صريح في صحة ما يرويه هذا الوافد المشرقي. لكن هذا التشكيك لم يستطع أن يمنع غيرهم من العلماء والتلاميذ، من أن يبدوا إعجابهم بمثل قصيدة شبل بن الصامت، التي نقلها صاعد عن مخطوطة خطها الأصمعي، تتضمن ما استأثر به هذا العالم الراوية لنفسه.(325) وكان المنصور، ممن أعجبوا بهذه العيون الشعرية التي لم تكن من مرويات القالي؛ وقد تجلى إعجابه هذا في أمره صاعدا بأن يكتب لابنه عبد الملك قصيدة النظار الفقعسي، التي نقلها من خط الأصمعي ليرويها: «ونقلت فيما نقلت عن خط يده قصيدة النظار الفقعسي، التي ليس للعرب على وزنها وقافيتها وجودتها قصيدة، وهي: (رجز مولد)

كأنني فوق أقب سهوق   جأب إذا عشر صات الإرنان

وسوف أثبتها في وسط الكتاب مشروحة، فقد كان مولانا المنصور أبو عامر أنسأ الله أجله، وتقبل عمله، أمرني بكتابتها وشرحها، ليرويها الوزير صاحب البرد ولده، أقر الله بفضائله عينه».(326)

وقد كان في تنبيه ابن بسام على أن صاعدا اشترط غير المشهور، وإشارة القفطي إلى أن اختبار كتب اللغة قد أثبت حقيقة ما جاء في الفصوص، ما يؤكد أن تلامذة القالي قد آثروا القدح غير النزيه في كتابه، على الاعتراف له بفضيلة العلم، والإحاطة بما لم يحط به شيخهم.

2) صاعد ومؤلفات القالي :

لم يذكر صاعد في فصوصه من مؤلفات القالي بالاسم إلا كتاب البارع، إلا أن إشارة المصادر إلى معارضته للأمالي،

325) الفصوص ص: 30أ

326) الفصوص ص: 50ب.



ووقـوف صاعـد نفسه عنـدما ذكـر القالي من أسمـاء القيم على المال، في الأمالي، وإن لم يسم الكتاب، يجعلنـا نتناول موقفه مما ألفـه صاحب البـارع، والأمـالي، والمقصـور والممدود، من خـلال الوقوف عند كتاب البارع وكتاب الأمالي.

أ) صاعد والبارع :

لم يبق من هــذا المعجم إلا قطع(327) قليلة؛ وقـد حاول بعض الدارسيـن، معتمدا على مـا تبقى من مخطوطـات البارع، البـرهنة على أن هـذا المعجم الـذي ألفه القـالي لسـد الفـراغ المعجمي في الأندلس،(328) كان مما شهـد للقالي بالإحاطـة والاستيعاب. ويبدو أن صاعدا، الذي حضر المجالس التي قرئ فيها كتاب البارع بأمر من المنصور بن أبي عامر، لم يكن يرى في هذا المصنف الأصالة التي تجعل القـالي يستحق التقديـر الـذي أولاه إياه تـلامذتـه من الأندلسيين. فـالكتاب في رأيـه كان نقـلا لما ورد في كتـاب آخر يحمل نفس الاسم: «قال صاعد بن الحسن: كـان مولانا المنصور بن أبي عامر أطـال الله بقاءه، أمر بقراءة البـارع، وهو كتاب لأبي علي القالي رحمـه الله، صنفه بالأنـدلس، ونفض كتب المستنصر رحمة الـه عليه واستقصى، وهو كتـاب احتذى فيـه بالمفضل بن سلمة، صاحب الفراء. وهـو كتاب بليغ يقع بخط مجموع في نحو من ثلاثة آلاف ورقة، وسماه البـارع، يرد فيه على كثير مما أورد صاحب العين ويخطئه فيه. ولابن دريـد كتاب في الرد عليه كبير، يعرف بكتاب الانتصار لصـاحب كتاب العين. فنقله أبو علي وضم إليه من خزانة المستنصر رحمـه الله زوائد كثيرة. فكان يقرأ على المنصور بحضـوري، فكنت أذكر ما أخل به ولم يقع عليـه، فكان

327) حققها هاشم الطعان.

328) أبو علي القالي ص: 286.



يقع ما أورده مرة في حال الاستحسان، وتارة في حيز الارتياب، وأخرى في حيز الرد، إذ لم يصحبني من كتبي التي درست منها شيء، وكان معولي على حفظي. فقرئ عليه حرف الحاء والميم، فاستمعت إلى آخر الباب فقلت: قد أخل، على طلبه الاستقصاء، بكلمتين. قال المنصور أيده الله: وما هما؟ قلت: قال الفراء: الحميم: الماء البارد... هذه واحدة...»(329) والواضح أن صاعدا لا يكتفي بأن يتهم القالي بالأخذ من كتاب البارع للمفضل بن سلمة الذي كان في الرد على الخليل، وأخذ ما ورد في كتاب الانتصار الذي ألفه ابن دريد شيخ القالي، للرد على المفضل بن سملة، بل يتعدى ذلك إلى اتهام القالي بالتقصير في النقل، والإخلال بما لم يقع عليه. وإذا كان بعض الدارسين(330) ـ اعتمادا على قول ابن خير(331) ـ قد اقتنع بأن القالي جعل من أهدافه، المفاخرة بما أضافه وزاده على المعجم الخليلي، فإن كلام صاعد يجيز لنا أن نجعل من سبق إلى التأليف أولى بالفخر. ويذكر نفس الدارس أن القالي، بما زاده على العين وصوبه منه، قد وضع أمام تلميذه أبي بكر الزبيدي المادة العلمية التي بنى عليها كتابه المستدرك على كتاب العين، ثم يصف الكتاب بأنه مصنف جمع فيه الزبيدي بين إيراد الزيادات، والانتقاد والتصويب، منوها بالردود والتصويبات التي أتى بها القالي على بعض مواد العين».(332) لكن نسبة صاعد ما ورد في بارع القالي إلى ابن سلمة، يجعلنا نتساءل عن مدى أصالة كتاب الزبيدي نفسه. فبتشكيك صاعد في أصالة بارع

329) الفصوص ص: 156أ ـ 156ب.

330) أبو علي القالي ص: 297.

331) فهرسة ابن خير ص: 354، حيث يقول، وهو يتحدث عن القالي وبارعه: «زاد على كتاب الخليل نيفا وأربع مائة ورقة، مما وقع في العين مهملا، فأملاه مستعملا».

332) أبو علي القالي ص: 298.



القالي، يكون قد شكك في أصالة كتاب الزبيدي أيضا. وقد يرد على هذا الذي ذهبنا إليه بأن صاعدا كان يعتمد، للتشكيك في علم القالي وتلامذته، نفس الأسلوب الذي شكك به، هؤلاء التلاميذ في علم صاعد؛ إلا أن ما ورد في مقدمة القطع المحققة من كتاب البارع، يجعلنا نطمئن إلى أن ما قاله صاعد، كان وصفا حقيقيا لهذا المعجم. فمحقق هذه القطع الذي لم يقرأ الفصوص، يعتمد على دراسته لما تبقى من البارع، ليصل إلى أن هذا الكتاب يفتقر إلى الأصالة التي تجعله متميزا عن العين: «... لكنني بعد أن حققت النص، وقعت على حقيقة طريفة جديرة بالإعلان، هي أن البارع ما هو إلا كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي».(333) أما علاقة بارع القالي ببارع المفضل بن سلمة، فقد قال عنها المحقق: «وسبقه المفضل بن سلمة في تأليف «بارع»، موضوعه وثيق الصلة بموضوع بارع القالي».(334) ونبه مرة ثانية إلى هذه العلاقة فقال: «وتسمية الكتاب كما قلنا مسبوق إليها، من قبل المفضل بن سلمة. ومن المصادفات الجديرة بالانتباه، أن بارع المفضل بن سلمة هو في الرد على كتاب العين».(335) فإذا كان المحقق قد انتهى إلى هذه النتائج في عصرنا، فإن ما وصف به صاعد - في القرن الرابع - كتاب البارع، رغم كونه تجريح منافسة، يظل كلام عالم باللغة خبير، يصف ما وصفه عن علم ودراية، إلا إذا كشف العثور على ما ضاع من الكتاب، عما يخالف ذلك، كما تكشف اليوم أول نسخة تخرج إلى القارئ المعاصر، من كتاب الفصوص، عن أن جل ما اتهم به صاعد كان تحاملا.

333) البارع في اللغة: (مقدمة التحقيق) ص: 64.

334) البارع في اللغة: (مقدمة التحقيق) ص: 61.

335) البارع في اللغة: (مقدمة التحقيق) ص: 67.



ب) صاعد والأمالي :

إذا كان موقف صاعد من البارع، قد تجلى في تنبيه تلامذة القالي وغيرهم على أن مجهود المصنف في هذا الكتاب لم يتعد النقل من كتابي ابن سلمة وابن دريد، فإن موقفه من كتاب الأمالي والنوادر، الذي شغف به الأندلسيون في عصره، نحا منحى آخر، تمثل في محاولته التعفية على آثار القالي وكتابه، وإن كان قد سكت عن هذا في مقدمة كتابه الفصوص. فكل الأخبار التي تحدثت عن مناسبة تأليف الفصوص، ذكرت أنه ألفه على غرار كتاب الأمالي والنوادر، وتميزت بالإشارة إلى أن صاعدا ألزم نفسه - وهو يعد المنصور بأن يؤلف له كتابا أرفع قدرا من كتاب القالي - بألا يدخل في مصنفه خبرا مما ورد في الأمالي. وعند مقارنة الأمالي بالفصوص، نلاحظ أن صاعدا سلك في محاولته التفوق على القالي طرقا مختلفة نجملها في:

I - النظر إلى الأمالي باعتباره كتابا كباقي كتب الأدب العام.

II - إيراد ما ورد في الأمالي، مع تكملة ما اعتبر نقصا فيه، أو تصحيح ما اعتبر خطأ.

III - النظر إلى موضوع بعض ما ورد فيه من المطالب، مع إيراد صياغة ثانية له.

IV - تجاوز ما ورد فيه، إلى عيون نادرة لم يسمع بها تلامذة القالي من قبل.

ويعود هذا التنوع في النظر إلى الأمالي، إلى أن صاعدا كان يدرك أن التفوق على هذا الكتاب، لا يمكن أن يتم بتناسيه مطلقا، لأن التجاوز لا يتأتى إلا بعد التقليد.



I ـ النظر إلى الأمالي باعتباره أحد كتب الأدب العام :

أشرت في مبحث سابق،(336) إلى أن الفصوص والأمالي معا ينتميان إلى مجموعة من المصنفات، تندرج تحت ما وصفناه بأدب الأنس والدرس؛ وهي المصنفات التي قصد أصحابها من تأليفها إلى جعلها مصدرا للمتعة والفائدة معا. ولتحقيق هذه الغاية، كان تنويع المادة العلمية للكتاب أول ما يهتم به المصنف. وإذ كانت هذه غاية الأمالي والفصوص، فإن تنويع موضوعات الكتابين، كان مما اهتم به القالي وصاعد. هذا الالتزام بمنهج التنويع، كان مما جعل صاعدا يبني فصوصه على نفس المطالب الكبرى، التي بنى القالي عليها أماليه، وأقصد بذلك الفصوص والمطالب التي بنيت على تفسير الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والمباحث النحوية والصرفية، والأخبار والمواعظ والحكم، وشرح الغريب، والمختارات الشعرية والأدبية... من حيث اعتبار هذه المادة العلمية فنونا كبرى تتنوع موضوعاتها الفرعية، فهذه الفنون هي جوهر التأليف في الأدب العام، والتخلي عنها لا يتأتى إلا بالتخلي عن هذا النوع من التصنيف.

II ـــ إيراد نفس ما ورد في الأمالي، مع تكملة نقصه وتصويب خطئه :

والمقصود بالنقص والخطأ هنا، ما اعتبره صاعد كذلك، ليجعله وسيلة إلى تكرار نفس ما أورده القالي في أماليه؛ والملاحظ أن القارئ يتوهم أحيانا أن صاحب الفصوص يكرر ما أورده القالي بنصه، لكن التأمل يكشف دائما عن جانب يميز به صاعد ما نقله هو، عما نقله القالي. ففي مطلب الأعمى وقائده الشاب مثلا، يقول القالي: «وحدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال: حدثنا السكن بن

336) المبحث الأول من المدخل الثالث.



سعيد، عن هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه قال: رأيت ببيشة رجلا من أزد السراة أعمى يقوده شاب جميل وهو يقول له: ياسمي، لا يغرنك أن فسح الشباب خطوك، وخلى سربك، وأرفه وردك، فكأنك بالكبر قد أرب طوفك وأثقل أوقك، وأوهن طوقك، وأتعب سوقك، فهدجت بعد الهملجة، ودججت بعد الدعلجة، فخذ من أيام الترفيه لأيام الانزعاج، ومن ساعات المهلة لساعة الإعجال...».(337) ويورد صاعد نفس الخبر قائلا: «وقرأت على أبي سعيد رحمه الله: حدّث ابن دريد، عن السكن بن سعيد، عن العباس بن هشام، عن أبيه هشام بن محمد السائب، عن أبيه قال: رأيت ببيشة رجلا من أَزْدِ السَّراةِ أعمى، يقوده شاب جميل الوجه وهو يقول: يَاسَمِيُّ لا يغرنك أن فَسَح الشباب خَطْوَك، وَخَلَّى سَرْبَك، وأَرْفَدَ قَدْرَك، فكأنك قد أُرِّبَ طَوقُك، وأُثْقل أَوْقُك، وأُتعِب سَوْقُك، فَهَدَجْتَ بَعْد الْهَمْلَجَةِ، وَدَرَجْتَ بعد الدَّعْلَجَةِ، فخُذ من أيام التَّرْفِيه لأيام الإِتْرَاعِ، ومن ساعات المُهْلَةِ لساعات الإِعْجَال...».(338) والتشابه واضح بين مطلب القالي وفص صاعد، إلا أن المقارنة الدقيقة تكشف لنا(339) عن حلقة في السند يزيدها صاعد بين السكن وهشام، ليصبح الإسناد إلى ابن دريد، عن السكن، عن العباس، عن هشام، عن أبيه. وتكشف المقارنة أيضا عن زيادة في الشرح يزيدها صاحب الفصوص، وعن ورود القسيم الأول لنصف البيت الذي استشهد به القالي، مع نسبة البيت إلى قائله، خلافا لما ورد في الأمالي.

وينقل القالي، مسندا إلى ابن دريد، خبر أم الضحاك المحاربية، والأبيات التي قالتها عندما طلقها زوجها الضِّبابي، فيقول: «وقرأت

337) الأمالي 2/312.

338) الفصوص ص: 78أ ـ 78ب.

339) مع تجاوز الفروق اليسيرة التي تعود إلى تصحيف بعض ما ورد في الأمالي.



على أبي بكر بن دريد رحمه الله تعالى قال: كانت أم الضحاك المحاربية تحت رجل من بني الضباب، وكانت تحبه حبا شديدا، فطلقها، فقالت: (طويل)

1 — هَلِ الْقَلْبُ إِنْ لاَقَى الضِّبَابِيَّ خَالِياً
لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا مُتَحَرِّجُ

2 — وَأَعْجَلَنَا قُرْبُ الْمَحَلِّ وَبَيْنَنَا
حَدِيثٌ كَتَنْشِيجِ الْمَرِيضَيْنِ مُزْعِجُ

وروى أبو عبد الله: كتنشاج...».(340) فينقل صاعد نفس الخبر دون تسمية المرأة، مسندا الخبر إلى الراوية الكوفي أبي عمرو الشيباني تلميذ المفضل الضبي. والإسناد إليه أقوى من إسناد القالي إلى ابن دريد، لتقدمه زمنا عليه، ولأخذه عن المفضل أحد أقدم رواة الكوفة. ويستمد سند صاعد قوته من كونه ينقل عن خط عمرو الشيباني في أشعار ضبة،(341) بروايته ورواية أبيه أبي عمرو. والنقل من خط عمرو، كالرواية السماعية عنه. هذا الإسناد إلى عمرو بن أبي عمرو الشيباني، والنقل من أشعار ضبة، يفسر مخالفة صاعد للقالي في ذكر مناسبة الأبيات، فالقالي ينسب الشعر إلى أم الضحاك، بينما ينسبه صاعد إلى امرأة عشقت رجلا من الضباب: «وأنشد أبو عمرو الشيباني لامرأة عشقت رجلا من الضباب: (طويل)

هَلِ الْقَلْبُ إِنْ لاَقَى الضِّبَابِيَّ خَالِياً   لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا مُتَحَرِّجُ(342)

---

340) الأمالي 2/86.

341) الفصوص ص: 16أ.

342) الفصوص ص: 9أ.



ومن الأخبار التي نقلها القالي، خبـر اجتماع وفود العرب بباب سلامة ذي فائش لتعزيته، وما قالوه في التعزية.(343) ونقل صاعد نفس الخبر،(344) لكنه زاد على إسناد(345) القالي، فأصبح عن ابن الكلبي عن أبيـه عن أبيه. وتـرك الخبـر بدون شـرح، وكأنه كـان يعتبر شرح القالي لبعض ألفاظ الخبر، مغنيا عن إعادة الشرح، إن لم يكن قصـد بتـرك الشـرح التـرفـع عن شـرح مـا اعتبـره من المستعمل المفهوم من الألفاظ.

وكان الفص الذي ذكر فيه صاعـد القالي بالاسم، نموذجا لهذا التناول المصحح لمطـالب القالي في أماليه، إذ يضيف صـاعد إلى أسماء القيم على المـال التي ذكرهـا القالي في أمـاليه(346) أسماء أخرى هي: الترعاية، والحبل، والأيل، واليل، والدمنة،(347) رواية عن أبي الشيخ العقلي الـذي وصفه بأنـه كان من فصحاء عقيـل. وما يعنينا من هذا الفص هو تصريح صاعد بأن هذه الزيادات، جعلت أحد تلامذة القالي يعترف له ضمنيا بالتفوق على صاحب الأمالي: «ثم قال أبو بكر: إن أبا إسمـاعيل بن القاسم البغدادي رحمه الله، ذكـر في هذا عـدة أسمـاء، يعني في القيم على المـال. فما الـذي تحفظ فيـه؟ فعددت لـه ثمانيـة عشر اسمـا؛ فأقبل أبو بكـر على مولانا المنصور أبقاه الله، فقـال: يامولانا، لم أعلم أني رأيت الذي رأيت، وإن أبـا علي نفض كتب المستنصـر رضـي اللـه عنـه على تأليفه، فلم يـورد في هذا المعنى إلا سبعة أسماء أو ثمـانية، وقد عدَّى هذا على ثمانية عشر اسما، إن هذا لحفظ عظيم. ثم قلت: وما

343) الأمالي 2/99 ـ 100.

344) الفصوص ص: 60ب.

345) يقول القـالي: «وحدثنا أبو بكـر بن الأنباري، قال حدثنـا عمي عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبيه قال...».

346) الأمالي 2/322.

347) الفصوص ص: 25أ وكل هذه الكلمات مضافةٌ إلى «مال».



أعجبك مما رأيت، وأنا أشرح الغريب المصنف في أربعة أمثاله، فأُغْنِي ملتمس هذا العلم أن ينظر بعده في شيء من كتب اللغة. فقال: إذا فعلت هذا فأنا أول غاد إليك ورائح عنك، والله المعين».(348) إن مثل هذا الاعتراف كان الغاية التي سعى إليها صاعد، من خلال مشاركته للقالي في إيراد نفس المطالب، مع الزيادة عليها، أو التصويب الضمني لبعض ما ورد فيها.

III ـ النظر إلى موضوع ما أورده القالي، مع إيراد صياغة ثانية له :

ونكتفي للتمثيل لهذا الأسلوب في البحث عن التفوق، بالمقارنة بين مطلبي الرُّطَب والعنب، ثم العنز الضالة، وفصي النخل والكرم، ثم الإبل الضالة، لدى القالي وصاعد. يقول القالي: «وحدثنا أبو عبد الله رحمه الله قال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق... قال: ذكروا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيهما أطيب، العنب أم الرطب؟ فقال عمر: أرسلوا إلى أبي حثمة. فقال ياأبا حثمة: أيهما أطيب: الرطب أم العنب؟ فقال: ليس كالصقر في رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، تحفة الصائم، وتعلة الصبي، ونزل مريم بنت عمران، وينضج ولا يعني طابخه، ويحترش به الضب من الصلعاء، ليس كالزبيب الذي إن أكلته ضرست، وإن تركته غرثت...».(349) ويقول صاعد: «وذكروا أن عمر بن الخطاب سأل رجلا من أهل الطائف: آلحبلة خير أم النخلة؟ يعني شجرة الكرم. فقال الطائفي: الحبلة أتزببها وأتسننها، وأصلح بها برمتي، يعني الخل، وأنام في ظلها. فقال: لو حضرك رجل من أهل يثرب رد عليك قولك. قال: فدخل عبد الرحمان بن

348) الفصوص ص: 125أ.

349) الأمالي 2/58.



محصن البخاري، فأخبره عمر خبر الطائفي، فقال: ليس كما قال، إني إن آكل الزبيب أضرس، وإن أدعه أغرث، ليس كالصقر في رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، تحفة الكبير وصمتة الصغير، وزاد المسافر، وعصمة المقيم، ينضج فلا يعني طابخا. تحترش به الضباب بالصلعاء، وتخرسة مريم ابنة عمران. فقال عمر: أراك ياأخا الطائف إلا وقد غلبت...».(350) فالموضوع كما يظهر في الخبرين واحد، لكن الرواية التي يوردها صاعد، تجعل الفص لتأخر زمن إملائه عن زمن إملاء مطلب القالي، أطرف. وتبدو رواية القالي أقوى، لإسناده الخبر إلى شيوخه، إلا أن استهلال صاعد الفص بقوله، «وذكروا» لا يضعف روايته، فالخبر بلفظه وارد في كتاب النخلة(351) للسجستاني، والنقل من الخطوط المنسوبة كان سندا لصاعد في بعض رواياته.

أما الفص الذي نقل فيه صاعد خبر الأعرابي وإبله الضالة، فقد كان بطوله(352) وكثرة غريبه، وما تلا ذلك من شرح وتفسير مسهب وشواهد شعرية، بديلا من المطلب القصير الذي ضمنه القالي غريبا قليلا وشرحا مقتضبا، وهو ينقل خبر وصف الغلام للعنز التي أضلها: «وحدثنا أبو بكر رحمه الله قال: أخبرنا عبد الرحمان، عن عمه، عن أبي عمرو بن العلاء قال: رأيت باليمن غلاما من جرم ينشد عنزا له، فقلت: صفها ياغلام. قال: حسراء مقبلة، شعراء مدبرة، ما بين غثرة الدهسة وقنوء الدبسة، سجحاء الخدين، خطلاء الأذنين، فشقاء الصورين، كأن زنمتيها تتوا قلنسية، يالها أم عيال وثمال مال».(353) وما يجدر التنبيه عليه في

---

350) الفصوص ص: 112أ.

351) كتاب النخلة ص: 119.

352) انظر الفص بأكمله في الفصوص ص: 68أ ـ 72أ.

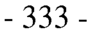
353) الأمالي 1/34.



فص صاعد، أن الذي حدث السيرافي بخبر الإبل الضالة هو نفسه أبو بكر بن دريد، شيخ القالي الذي حدثه بخبر العنز الضالة؛ وفي إسناد الخبر إلى ابن دريد، ما يوحي بأن صاعدا كان يذكر تلامذة القالي بأن تأخر زمانه عن زمان ابن دريد، لم يمنعه من أن ينقل عنه - وهو شيخ شيخهم - ما لم يروه شيخهم نفسه.

وقد يكون التحول من الجد إلى الهزل، كافيا لدى صاعد، لتمييز الفص عن المطلب، وإن كان الموضوع واحدا. فالقالي يورد في سياق الجد، خبرا يستخلص منه أن اجتماع الخصال الحميدة كلها في رجل واحد مع إمكانه، لا يتم. وصاعد يورد خبرا نستخلص منه نفس الفائدة، لكن ما يميز فص صاعد غلبة الفكاهة على الجد في الخبر الذي يتضمنه. يقول القالي: «وحدثنا أبو بكر: قال: .... كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي: أما بعد، فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عفة ونزاهة طعمة، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه، إن أؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه، له سن مع أدب ولسان، تقعده الرزانة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة وترشده السكتة..... وقد آثرتك بطلبه، وحبوتك بارتياده، ثقة بفضل اختيارك، ومعرفة بحسن تأتيك. فكتب إليه: إني عازم أن أرغب إلى الله جل وعز حولا كاملا في ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل الثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالإجابة، فأفوز لديك بقضاء حاجتك والسلام».(354) ويقول صاعد: «وروى المرزباني، عن ابن السراج، عن محمد بن يزيد، عن العتبي، قال:

354) الأمالي 1/249.



كتبت أم محمد بن مروان إلى عامل المدينة: أن اطلبْ لي غلاما، وَرِعَاً، تقيا، عالما، أديبا، فقيها، كاتبا، أمينا، حاسبا. فكتب إليها: قد طلبت هذه الصفة فلم أجد إلا علي بن الحسين، أو عبد الله بن عمر، وأهلهما يأبون بيعهما».(355)

VI ـ تجاوز ما ورد في الأمالي إلى عيون لم ترد فيه :

هذا التجاوز هو الأسلوب الذي اختاره صاعد لتحدي أمالي القالي. وتعد كل الأخبار، والاختيارات، والشروح، والمباحث التي وردت في كتاب الفصوص، دون أن ترد في الأمالي ـ نظريا ـ وسائل توسل بها صاعد إلى تحقيق هذا التجاوز. إلا أن عمق التحدي، لم يكن يكمن في الإتيان بما لم يأت به القالي في أماليه، فرواية ما لم يروه القالي لا تشهد لصاعد بفضل التفوق، إذا كان المروي من المشهور المتداول. إن جوهر التحدي يكمن في الإتيان بما ند عن الأمالي، والكامل، وما أشبههما من كتب النوادر؛(356) ولا يكون هذا متأتيا للعالم، إلا إذا كان يمتح من معين علمي لا يمتح منه غيره. ويبدو أن صاعدا كان ـ وهو يختار هذه الطريقة في تحدي الأمالي ـ يريد أن يسلك نفس المسلك الذي سلكه أبو علي القالي، لبناء مجده العلمي في الأندلس. فالقالي يصرح في خطبة أماليه بأن ما صنفه وأملاه، كان علما مصونا بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، منزها عن أن يذاع عند من يجهل مكانه: «... ثم أما بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة على خير البشر ﷺ، فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة، فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية. ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه، حتى حويت خطيره، وأحرزت رفيعه،

---

355) الفصوص ص: 103.

356) الفصوص ص: 1ب.



ورويت جليلــه وعــرفت دقيقـــه، وعقلت شــارده، ورويت نــادره، وعملت غــامضــه، ووعيت واضحــه. ثم صنتــه بــالكتمــان عمن لا يعرف مقداره، ونــزهته عن الإذاعة عند من يجهل مكــانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديه لمن يعلم فضله، وأجلبه إلى من يعرف محله، وأنشره عند من يشــرفه، وأقصد به من يعظمه... فغبرت برهــة ألتمس لنشره موضعا، ومكثت الــدهر أطلب لإذاعته مكانا، وبقيت مدة أبتغي له مشرفــا، وأقمت زمنا أرتاد له مشتريا، حتى تواتــرت الأنباء المتفقة... بأن مشرفــه في عصره أفضل من ملك الورى، وأكــرم من جاد باللهــى... الحكم ولي عهد المسلمين، وابن سيد العالمين، أمير المؤمنين عبــد الرحمان بن محمد، الإمام العــادل، الخليفــة الفــاضل.... فخـــرجت جــائدا بنفسي، بـــاذلا لحشاشتي، أجــوب متون القفار، وأخوض لجج البحــار، مؤملا أن أوصل العلق النفيس إلى من يعــرفــه... وأعــرض الــرفيع على من يشتــريه، وأبــذل الجليل لمن يجمعه ويقتنيــه، فمنّ الله جلّ وعــزّ بالسلامة... حتى حللت بعصره الخــواف... فناء أمير المومنين عبد الرحمــان بن محمد... وصحبت الحيا المحسب، والجــواد المفضال الحكم... فتابعا لــديّ النعمة، ووَاترَا عليّ الإحسان، حتى أبــديت ما كنت لــه كاتمــا، ونشرت مــا كنت له طــاويا، وبــذلت ما كنت بــه ضنينــا، ومذلت بمــا كنت عليــه شحيحا، فــأَمْلَلْتُ هذا الكتــاب من حفظي...... وأودعتــه فنونــا من الأخبــار، وضــروبا من الأشعــار، وأنواعا من الأمثال، وغرائب من اللغــات. على أني لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته، ولا ضربا مــن الشعر إلا اخترته، ولا فنا من الخبر إلا انتخلته....».(357) وصاعد أيضا يــذكر أن المنصور أمره أن يجمع له من حفظه «ما استطف من نخيلــة شعر، وغريبة خبر، وعقيلــة كلم، ندت عن الكتب المتــداولة كــالكامل وغيــره من كتب

357) الأمالي 1/1 ـ 3.



النوادر؛ إذ قد تساوى الناس في تعاورها، وتكافؤوا في نقلها». (358) إلا أن المصون الذي أذاعه القالي، يختلف عن المضنون به الذي أذاعه صاعد. فالقالي صان بالكتمان، ما كان قد سمعه من شيوخه أيام اغترابه للرواية والدراية؛ بينما كان المصون الذي أذاعه صاعد، مما صانه كبار العلماء والشيوخ عن التلاميذ أنفسهم، استئثارا به، واختصاص بحسنه: «.... حتى ولاني الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، تغمد الله خطاياه، خزانة كتبه، فأصبت فيها خطوط العلماء وأصولهم، التي استأثروا بها لأنفسهم دون الناس، إذ لابد لكل عالم من أثيرة مجموعة لخاصته، غيرما يذيعه للطلبة عنها. ووجدت في كتب الخلافة التي خرجت في نهب دار المقتدر، بخط الأصمعي، والفراء، وأبي زيد، وابن السكيت، وابن الأعرابي، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأبوي العباس: المبرد وثعلب، وغيرهم، عيونا من علم العرب، لم يصنف في شيء من الكتب ضنا بها، واختصاصا بحسنها». (359) وليس هؤلاء الطلبة الذين ضن عليهم شيوخهم ببعض العلم وعيونه، إلا شيوخَ شيوخِ القالي. فهل كان القالي قادرا على أن يروي من العيون والنفائس، ما لم يروه شيوخه ولا شيوخ شيوخه أنفسهم؟ إن صاعدا وحده كان يستطيع أن يتحف علماء الأندلس بهذه النفائس التي استأثر بها كبار العلماء لأنفسهم. وإذا كان القالي قد صان ما حصله من العلم، وأبى أن يعرضه على من لا يجزل ثمنه، (360) فإن صاعدا آثر أن يذيع في الأندلس ما لم يذعه في المشرق من المعارف العزيزة، التي كانت نقلا عن خطوط كبار العلماء، لا رواية عن الشيوخ، خشية أن يحين أجله فتموت بموته: «... وحذرتُ خِلاجَ الأجل،

358) الفصوص ص: 1ب.

359) الفصوص ص: 2أ.

360) الأمالي 1/1.



واعتياق طوارق العلل، فيموت بموتي ما وعيته، ويدرج في ضريحي ما حفظته، وأشفقت من المأثور عن النبي ﷺ: «من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار». ولم أضمن كتابي إلا ما نقلته من خط منسوب، أو تلقيته من في عالم، فلم أسطره إلا في سويداء القلب، حذار أن يزيغ عن الذكر، أو أعول على تضمين الكتاب؛ وتصنيف المرء مجلاة عقله، فلينظر فيه ابن العمّ، والصديق الأحم، فإن رأى حسنة قال، وإن رأى سيئة أقال، فخيرا أردت، ومضنونا به أذعت، وذخيرة أشعت، وعند الله الجزاء، ومنه التوفيق، وعليه التُّكْلان».(361) هذه العيون المصونة التي وعد صاعد الأندلسيين بإذاعتها، كانت الوسيلة التي اختارها لتجاوز القالي والتفوق عليه؛ لكنه لم يكن يعلم أن هذه الوسيلة نفسها ستكون سببا في وقوع ما أورده في حيز الارتياب تارة، وحيز الرد تارة أخرى، كما صرح بذلك هو نفسه.(362)

إن الرغبة في التعفية على الأمالي بالفصوص، لم تكن ـ كما ذكرت ـ إلا وجها من أوجه الصراع بين ثقافة القرن الثالث وأوائل الرابع، الوافدة إلى الأندلس، وثقافة النصف الثاني من القرن الرابع التي انتقلت إلى الأندلس بانتقال صاعد إليها. وإذا كان الحاجب المنصور قد جنى من حمايته لصاعد، كتابا خلد اسمه كما خلد الأمالي اسم الخليفة الناصر، فإن المبالغة في الحديث عن أثر السياسة في إذكاء نار الصراع بين صاعد وتلامذة القالي ومدرسته، قد تصرفنا عن تمثل حقيقة هذا الصراع. إن المواجهة بين صاعد وتلامذة القالي، كانت أعمق من أن تعد مظهرا سطحيا للحرب الخفية التي كانت تجري بين سلطة الخلافة المقوضة وسلطة الحجابة الناشئة.

361) الفصوص ص: 2أ.

362) الفصوص ص: 156أ ـ 156ب.

لقد كان صاعد يخشى أن يحين أجله، فيموت بموته ما وعاه وحفظه من عيون العلم؛ وإذا كان حديث الرسول ﷺ، قد حثه على أن يذيع من عيون علم العرب المضنون بها، ما لم يصنف في شيء من الكتب، فإن مما نأمله اليوم بإخراج كتاب الفصوص إلى القارئ، أن نكون قد حققنا مرة ثانية ما هدف إليه مصنفه، من إذاعة هذه العيون. فكثير من الذخائر التي كان صاعد قد أشاعها، لا توجد اليوم إلا في هذا الكتاب، كتاب الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار.



ـ فهرس عام ـ

1 ـ فهـرس الأعـلام



الأعـلام	الصفحات

ـ أ ـ

- ب -

ـ ت ـ

ـ ث ـ





- خ -

ـ د ـ



ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ز -

- س -

- ش -



ـ ص ـ

ـ ض ـ

- ط -

- ع -



- ق -



ـ ك ـ




رفع
المستهم

- ن -

ـ هـ ـ

ـ و ـ



2 ـ فهرس القوافي



النظر	كامل	3	سراج اللغوي	40
النظر	كامل	3	صاعد	40 ـ 68 ـ 189

الزاي

الشيرازي	رجز	1	ابن سيده	18

السين

أنفاسها	متقارب	2	صاعد	36
الإنس	طويل	1	صاعد	174
جليس	مجزوء الرمل	2	صاعد	188
جليس	مجزوء الرمل	3	كشاجم	195
الرؤوس	وافر	1	صاعد	29 ـ 127 ـ 180

الصاد

الفصوص	سريع	1	صاعد	26 ـ 82 ـ 89
يغوص	سريع	1	ابن العريف	26 ـ 82 ـ 89

الظاء

الحفاظ	رجز	1	ابن سيده	18

العين

بيربوع	منهوك المنسرح	3		257
براعه	رجز	1		161
مصاعه	رجز	1		161
المروع	وافر	2	صاعد	184
بارع	رجز	1	ابن سيده	18

الفاء

المساعف	طويل	1		294

القاف

سراق	بسيط	1	صاعد	29
أوراق	بسيط	2	صاعد	180
يوافقها	منسرح	1	أمية بن أبي الصلت	317
منقنق	طويل	1		307
المخاريق	بسيط	1	العكبري	202
مخرنق	كامل	3	ابن لنكك	192

اللام

العضالا	وافر	1	المتنبي	176
زليل	كامل	7	صاعد	132
رجلي	طويل	1	صاعد	191
الفحل	طويل	2	بدوية	18 ـ 313



الميم

النون

الهاء

الياء

أنصاف الأبيات

3 ـ المصادر والمراجع



ـ ابن الأبار (محمد بن عبد الله القضاعي) :
1) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ـ طبعة مصورة عن طبعة مدريد 1885 ـ نشر مكتبة المثنى بغداد ومؤسسة الخانجي ـ بمصر.
2) المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة 1967.
3) الحلة السيراء ـ تح: حسين مؤنس ـ ط 1 ـ القاهرة ـ 1963.

ـ ابن أبي يعلى (القاضي أبو الحسين محمد) :
4) طبقات الحنابلة ـ تح: محمد حامد الفقي ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ 1952.

ـ ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) :
5) الكامل في التاريخ ـ تح: عبد الوهاب النجار ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ ط 1 ـ مصر ـ 1353هـ.

ـ إحسان عباس :
6) تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ دار الثقافة بيروت ـ 1960.

ـ الأزدي (علي بن ظافر) : المتوفى سنة 613 هـ.
7) بدائع البدائه ـ تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ 1970.



8) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ـ دار المعارف القاهرة ـ 1971.

ـ ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد بن علي الحميري الأصبحي) :
9) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام ـ تح: سعيدة العلمي ـ مرقونة بكلية الآداب بفاس.

ـ الأصفهاني (أبو الفرج) :
10) الأغاني ـ تح: عبد الستار أحمد فراج ـ دار الثقافة بيروت ـ 1958.

ـ ألبير حبيب مطلق :
11) الحركة اللغوية في الأندلس ـ المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ـ 1967.

ـ أمين (أحمد) :
12) ظهر الإسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1961.

ـ الباخرزي (علي بن الحسن) :
12 م) دمية القصر وعصرة أهل العصر، تح : محمد التونجي ـ دار الفكر ـ دمشق 1971.

ـ بروكلمان (كارل) :
13) تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة مجموعة ـ دار المعارف القاهرة.



ـ ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني) :

14) الذخيرة في محاسن أهل الجزيـرة ـ تح: إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ 1979.

ـ ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :

15) الصلة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة 1966.

ـ البغدادي (عبد القادر) :

16) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية ـ دار الثقافة ـ بيروت.

ـ البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) :

17) اللآلي في شرح أمالي القالي ـ تح: عبـد العزيز الميمني لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ 1936.

18) التنبيه على أوهـام أبي علي في أماليه ـ دار الكتـاب العربي ـ لبنان.

19) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ـ تح: مصطفى السقا ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط 3 ـ 1983.

ـ بلاشير (ريجس) :

20) صاعـد البغدادي رائد من رواد الثقافـة العربية المشـرقية في إسبانيا في القـرن العاشر الميلادي ـ مجلـة هيسبريس المجلد 10 ـ الجزء الأول ـ 1930 ـ لاروز ـ باريس.



ـ بلانثيا (آنخل جنقالث) :
21) تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة حسين مؤنس ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ط 1 ـ 1955 ـ القاهرة.

ـ التوحيدي (أبو حيان) :
22) الإمتاع والمؤانسة ـ تح: أحمد أمين وأحمد الزين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.
23) المقابسات ـ تح: حسن السندوبي ـ المكتبة التجارية القاهرة ـ 1929.

ـ الثعالبي (أبو منصور عبد الملك) :
24) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ـ تح: محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ـ بيروت.

ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن) :
25) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ـ 1357هـ.

ـ حاجي خليفة :
26) كشف الظنون ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

ـ ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) :
27) فتح الباري بشرح البخاري ـ تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ـ ومحب الدين الخطيب ـ دار الفكر ـ بيروت.
28) لسان الميزان ـ بيروت ـ لبنان.



ـ الحموي (أبو عبد الله يا قوت بن عبد الله الرومي) :
29) معجم الأدباء ـ نشر أحمد فريد رفاعي ـ مكتبة البابي الحلبي ـ القاهرة.
30) معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت.
ـ الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله) :
31) جذوة المقتبس ـ تح: محمد بن تاويت الطنجي ـ مكتب نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة ـ 1952.

ـ ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) :
32) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ـ القسم الثاني. تح: محمود علي مكي ـ القاهرة ـ 1971.

ـ ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني) :
33) الإحاطة في أخبار غرناطة ـ تح: محمد عبد الله عنان. نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط 2 ـ 1973.
34) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام تح: ليفي بروفنسال ـ دار الكشاف ـ بيروت.
35) السحر والشعر ـ تح: قدور إبراهيم ـ رسالة ماجستير ـ نقلا عن المستدرك على ديوان ابن شهيد الأندلسي.

ـ ابن خلدون (عبد الرحمان) :
36) العبر ـ وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ـ نشر دار الكتاب اللبناني ـ لبنان ـ 1958.

ـ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) :
37) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمن ـ تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ط 1 ـ 1948.



ـ الخوانساري (الميرزا محمد باقر الموسوي) :
38) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ـ طهران 1391هـ.

ـ ابن خير (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي) (المتوفى سنة 575هـ).
39) فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف... ـ تح: فرنشكه قداره زيدين وخليان رباره طرغون ـ المكتب التجاري ـ بيروت ـ 1963.

ـ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) :
40) العبر في خبر من غبر ـ تح: فؤاد سيد ـ سلسلة التراث العربي ـ الكويت ـ 1961.
41) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ تح: محمد علي البجاوي دار المعرفة ـ بيروت ـ 1963.
42) المغني في الضعفاء ـ تح: نور الدين عتر ـ دون ذكر الناشر والطابع والتاريخ.

ـ ابن رشيق (أبو علي الحسن القيرواني) :
44) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط 3 ـ 1963 ـ القاهرة.

ـ الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق) :
45) أمالي الزجاجي ـ تح: عبد السلام هارون ـ المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة ـ 1392هـ.



ـ الزركلي (خير الدين) :
46) الأعلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط 5 ـ 1980.

ـ الساوري (عبد العزيز) :
47) المستدرك على ديـوان ابن شـهيد الأنـدلسـي ـ مجلـة المورد، المجلد 17 ـ العدد 1 ـ 1988 ـ بغداد.

ـ السجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان) :
48) كتاب النخلة ـ تح : حاتم صـالح الضامن ـ مجـلة المورد مج 14 ـ ع 3 ـ 1985 ـ بغداد.

ـ سزكين (فؤاد) :
49) تاريخ التراث العربي ـ ترجمـة جمـاعة من الأسـاتذة ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ 1984 (المجلد 2 ـ الجزء 4 ـ المجلد 2 ـ الجزء 5).

ـ السِّـلَفي (أبو طاهر أحمد بن محمد) :
50) معجم السلفي ـ أخبـار وتراجـم أندلسية ـ مستخــرجـة من معجـم السلفـي ـ إعـداد إحسان عبـاس ـ دار الثقـافة ط 2 ـ بيروت ـ 1979.

ـ الشريري (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسـي) :
51) شرح مقامات الحريـري ـ تصحيح محمد عبد المنعم خفاجي ط 1 ـ مصر ـ 1372هـ.

ـ الضبي (أحمـد بن يحيى بن أحمد بن عميـرة) : المتوفى سنـة 599هـ.



52) بغيـة الملتمس في تاريخ رجـال أهل الأنـدلس ـ دار الكـاتب العربي ـ القاهرة ـ 1967.

ـ ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد) :
53) العقد الفريد ـ تح : أحمـد أمين وأحمد زين وإبراهيم الأبياري ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ط 2 ـ القاهرة ـ 1952.

ـ ابن عذاري المراكشي : (توفي في حدود 695هـ).
54) البيان المغـرب في أخبـار الأندلـس والمغـرب ـ ج 3 تح : ج.س. كـولان وإ. ليفـي بـروفنسـال ـ دار الثقافـة (أوفست بيروت) 1929.

ـ ابن عطية (عبد الحق بن عطية المحاربي) :
55) فهرس ابن عطية ـ تح : محمد أبـو الاجفان ـ محمد الزاهي ـ دار الغرب الإسلامي ـ ط 1 ـ 1980 ـ بيروت.

ـ ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن العماد) :
56) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ المكتـب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

ـ عنان (محمد عبد الله) :
57) دولة الإسلام في الأندلس ـ مطبعة مصر ـ القاهرة ـ 1952.

ـ عياض (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض) :
58) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعـرفة أعلام مذهب مالك ـ تح: د. أحمد بكير محمود ـ بيروت ـ 1965.



59) الغنية (فهرسة شيوخ القاضي عياض) تح : د. محمد بن عبد الكريم ـ الدار العربية للكتاب (ليبيا ـ تونس) ط 1 ـ 1978.

ـ العيني (محمود) :
60) المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية المعروفة بشرح الشواهد الكبرى (بهامش خزانة الأدب للبغدادي).

ـ الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) :
61) البلغة في تاريخ أئمة اللغة ـ تح : محمد المقري ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ 1972.

ـ ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي) :
61م) درة الحجال في أسماء الرجال ـ تح : د. محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس، ودار التراث بالقاهرة، ط 1 ـ 1970.

ـ القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم) :
62) البارع في اللغة. تح : هاشم الطعان ـ مكتبة النهضة بغداد ـ ودار الحضارة العربية في بيروت ـ ط 1 ـ 1975.

ـ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :
63) عيون الأخبار ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ 1925.

ـ القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) :
64) إنباه الرواة على أنباه النحاة ـ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ 1952 ـ 1973.



ـ كابانيلاس (داريو) :
65) ابن سيدة المرسي ـ ترجمة د. حسن الوراكلي ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس.

ـ ابن الكتاني (أبو عبد الله محمد الطيب) :
66) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ـ تح : د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ 1966.

ـ ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل) :
67) البداية والنهاية ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.

ـ كشاجم (أبو الفتح محمود بن الحسين السندي) :
68) ديوان كشاجم ـ تح : خيرية محمد محفوظ ـ دار الجمهورية ـ بغداد ـ 1970.

ـ كحالة (عمر رضا) :
69) معجم المؤلفين ـ مكتبة المثنى ببغداد ـ ودار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) :
70) الكامل ـ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ 1981.

ـ المراكشي (عبد الواحد) :
71) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ فرغ منه سنة 621هـ



تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـ دار الكتاب ط 1 ـ الدار البيضاء ـ 1949.

ـ المراكشي (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك) :
72) الذيل والتكملة ـ القسم الثاني السفر 5 ـ تح : إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ 1965.

ـ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين) :
73) لسان العرب ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1955.

ـ المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله التنوخي) :
74) سقط الزند ـ تح : إبراهيم الزين ـ دار الفكر ـ بيروت 1965.

ـ المقري (أحمد بن محمد) :
75) نفح الطيب ـ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ـ ط 1 1949 ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة.

ـ ميخائيل (أماري) :
76) المكتبة العربية الصقلية ـ جمع وتحقيق (ميخائيل أماري) ليبسك 1857 ـ اعادت طبعه بالأوفست ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ د.ت.

ـ ابن هشام الأنصاري (جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف) :
77) تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد ـ تح : عباس مصطفى الصالحي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط 1 ـ 1986.

- الودغيري (عبد العلي) :
78) أبو علي القالي وأثره في الدراسـات اللغوية والأدبية بالأندلس - الرباط 1983.

- الندوي (هاشم) :
79) تذكـرة النوادر من المخطـوطات العربـيـة - دار المـعـارف العثمانية - حيدر آباد الدكن - 1350هـ.

- النويري (أحمد بن الحسن) :
80) نهـاية الأرب في فنـون الأدب - مطابـع كوستـاتسومـاس - القاهرة.



4 ـ فهرس الموضوعات



قراءة في المصادر



مشروع سيرة







رقم الإيداع القانوني: 242 / 1993

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)